الطاقية

بقلم: محمود تيمور

عند ما استفقت من غفوة القيلولة ، لم اجد من نفسي رغبة فى مبارحة الدار ، فقد كان عملى صباح اليوم فى الوزارة شاقا اجهدنى ، فآثرت الاعتكاف فى امسيتى ، أنشد الراحة والجمام .

وكنت احتفظ بصندوق اطلقت عليه اسم « صندوق الذكريات » ، جمعت فيه اشتاتا من الصور والتذكارات من مخلفات الماضي ، احتفى بها واعتز .

وطاب لى ان اقصد الى الصندوق ، وان اقلب فى محتوياته ، وتعلقت نظرتى اتفاقا بلفيفة لطيفة ناعمة الملمس ، معقودة بشريط من حرير ، فتناولتها بين يدى اميط عنها الغبار ، ثم الفيتنى احل الشريط من حولها ، وابسط مافيها ، فاذا هو « طاقية » ... طاقية غلام ، يشهد مظهرها الساذج وما فيها من وشي زاهى الالوان بأنها بضاعة ريفية الطابع ، لعصر سلف .

وابهجنى مرأى « الطاقية » ، فانتحيت بها ركنا فى الحجرة ، اتفحصها مليا ، وانشر ذكرياتى معها من طوايا الزمن البعيد .

وتواردت المشاهد على مخيلتى ...

ورايتنى امام « ستوتة » ... « ستوتة » الصغيرة ، وهى تمد يدها على استحياء بتلك « الطاقية » ، هدية تتودد بها الى فى يوم الرحيل . ومالبثت ان مالت على اذنى تقول : انها ابتاعتها من « سوق الأربعاء » وادت ثمنها مما اقتصدته من نقودها الخاصة .

وفى حيرة وارتباك ، تلقيت منها « الطاقية » ، وما اذكر اشكرت لها صنيعها بى ، ام ظلت انامِلى تعبث « بالطاقية » دون ان انبس بقول .

كنت صبيا ادنو من العاشرة ، على حين كانت « ستوتة » تصغرنى بنحو عامين ، وقد مكثت فى صحبتها فى قرية « السلامية » شهرا ما كان أطيبه وأحلاه ، حيث جمعتنا دار أبيها « الحاج ابو صالح » ، وهو رجل من اواسط القوم ، ميسور الحال ، يحيا حياة الريفى الأصيل ، وبينه وبين ابى اواصر ود . وكان الربيع يومئذ قد اوشك ان ينصرم ، وانا اعانى هزالا ينذر بسوء المصير ، فاستجاب أبى لمشورة الطبيب ان يبعث بى الى الريف ، لأنعم فيه بجو طلق ، ومنظر بهيج ، وغذاء طيب مرىء .

ولم يتخل عنى أبى فى هذه السفرة ، فركبنا القطار الى محطة « السلامية » ، وبلغناها ساعة الأصيل ، فالفينا « الحاج ابو صالح » ينتظر قدومنا ، وقد اعد لنا ركائب من الحمير يحرسها نفر من الغلمان ، وسرعان ما امتطيت ركوبتى ،

وأن مرح نشوان . وسرنا فى طريق ترب ، تحف به حقول شناسعة على مد البصر ، والهواء رخى عبق برائحة الزروع .

ولم يطل بنا المسير أكثر من نصف ساعة ، فاستقبلتنا قرية « اسلامية » ذات الدور المتخاضعة ، والجميزات العتيقة ، وذلك الجدول الضيق تتهادى على صفحته وعلى حافاته اسراب من الاوز والبط .

ثم جاز موكبنا بدرب ملتو حافل بكومات التراب وبرك الماء ، والاطفال أنصاف عراة يتواثبون هنا وهنالك متضاحكين .

واخيرا أوفينا على الدار ، فكان احتفاء الأهل بنا بالغا الغاية ، وتجلت الاريحية الريفية فيما أعدوه لنا من مأوى ، وفيما حبونا به من طعام وشراب .

وفى ضحوة غد زايل أبى القرية ، بعد أن تركنى وديعة عند « الحاج أبو صالح » واهل بيته ، فأحسست تهيبا ووحشة ، وجلست وحيدا على دكة بجوار باب الدار ارقب السابلة .

وما هى الا ان شعرت بيد تربت كتفى ، يد « ستوتة » ابنة « الحاج أبو صالح » ، وكنت قد رأيتها البارحة ، وقضيت معها قليلا من الوقت نتعارف وهى صبية سمراء ، بشرتها فى لون النحاس المصقول ، وعينها خضراء صافية تماثل لون البرسيم فى ابانه .

قالت لى « ستوتة » ويدها على كتفى ، والابتسامة تسطع على محياها :

تعال نلعب .

وأمسكت بذراعى ، فنهضت معها ، وخطونا فى الدروب التربة الملتوية ، فسألتها :

الى اين نذهب ؟

— الى الجرن .

— الجرن ؟

— نعم ... الجرن ... الا تعرفه ؟

وامضينا ساعة فى الجرن ، راكبين النوارج مع الفلاحين ، ندرس القمح ، ويعلو صياحنا على خوار الثيران ، نحثها على استكمال دوراتها المألوفة . ولم نكتف بهذا كله ، فتركنا الجرن الى ارجاء القرية ، نتسلق الجميز الهرم المجعد السيقان ، وطعمنا من ثماره المعسولة . وخاضت اقدامنا فى ماء الترعة الضحل ، ثم جلنا على حافة الترعة نصطاد صغار السمك ، ونلقى به الى الكلاب الجائعة ، ثم اجتمعنا مع الرفاق نلعب « السيجة » ، وانطلقنا فى الحقول نجمع أعواد « السريس » ، واخيرا قعدنا الى « الزاوية » وتطلعنا الى « الكتاب » المهدم بجوارها ، وقد التفت فيه حلقة الغلمان يقرءون ويكتبون . وهكذا قضيت النهار مع « ستوتة » فرحا نشيطا ، تقر عينى بمشاهد طريفة .

كانت تجتاحنى هيجة عارمة اطاحت بتهيبى ووحشتى ، فلم يكد الليل يقبل حتى صرت و « ستوتة » الفين متلازمين ... ولما ازف موعد النوم اعتلينا معا سطح الفرن ، فقد كان هو المرقد المفضل فى الدار ، بل فى كل دار ريفية ، وتمددت « الحاجة ام صالح » تفصل بيننا كما كان الحسام الماضي يفصل فى النوم بين « الشاطر حسن » و « ست الحسن والجمال » فى أساطير الأولين .

ما اعذب تلك الليالى التى نمت فيها فوق سطح الفرن ، قريبا من «ستوتة.. كان الدفء الذى ينبعث منه يشيع فى



اوصالى ، فيبعث فيها خدرا اذيذا يثير فى نفسي غرائب احاسيس .

وطـــابت لى فى تلك الفترة حياة الطلاقة والمراح ، حياة الفطرة بين قوم لايعرفون تكاليف المدنية واوضـــاعها الخانقة ، و « ستوتة » الصـــغيرة رائدتى فى مغامراتنا اليومية ، لها فى كل يوم كشف جديد ، او لعبة لم يسبق لى بها عهد .

وشاء رب الدار ان يزيد فى الحفاوة بى ، فأقام فى أمسية رائقة حفل سمر ، تميز بطابعه الريفى الأصيل .

واحتوانا فناء الدار ، فتحلقنا ... والمشاهد تتوالى أمام عيوننا ، مشـــاهد مفرطة السذاجة ، نســـتقبلها بفرحـــة غامرة ، لاتكل ايدينا من التصـــفيق ، ولا تفتر حناجرنا عن الصياح .

وما زلت اذكر شخصـــية المهرج ، وقد طلا وجهه بالدقيق ، وامتطى جريدة طويلة كان يدعوها الفرس المطهـــم ، وشخصية الزمار الذى يطلق انغامه ، وخصره يتلوى ، وراسه يتطوح ، فيدور زر طرطوره الطويل دورات سراعا على ايقاع المزمار . وهناك الطبال بكرشه المنبعجة ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، منشـــدا مع المرددين من الصبية ، نشـــيده الموحد ، يعيده بين الفينة والفينة :

« ان لاقاكم حبيبى
سلموا لى عليه »

وفى ختام العـــرض اجتمع الممثلون فى الحلقة ، واشتركوا فى رقصـــة مائجة ، وقرع الطبل يدوى كأنه عزيف الجن ، فسرت فى أوصالى حماسة ، وأخذت بيد « ســـتوته » ودفعت بهـــا الى البهرة ، وجعلنا نسهم مع اللاعبين فى الرقص والتهريج .

ولما انفض العرض ، دعانى رب الدار

الى سماط ريفى طريف . مده فى الفناء ... كان الحصير مبسوطا على الارض ، وعليه رصت صحاف الثريد وقعاب القشدة ، وصوانى الفطير الرحراح ، وما الى ذلك من مآكل فلاحية صميمة . فجلسنا متربعين ، وبيننا فرقة اللاعبين ، وجعلنا نصيب طعامنا الشهى فى شغف ، وحلا لنا السمر من بعد الى هزيع من الليل .

***

وعدت الى « الطاقية » اقلبها بين يدى ، وظل ابتسامة يتخايل على وجهى . لقد بقيت قابعة فى« صندوق الذكريات » نيفا وثلاثين عاما ، منذ كانت زيارتى لقرية « السلامية » ، تلك الزيارة التى كانت الأولى والأخيرة .

وكرت الأيام ...

كرت تبدل من مظاهر الحياة ماتبدل، وافنا الزمن ، ومرت بنا احداث تباعد بيننا وبين مواطن الذكريات ، وتنسج عليها خيوط النسيان . ولكن هل الى ابتعاث الماضي من سبيل ، أو بالاحرى الا من وسيلة نخادع بها انفسنا ، فنحاول أن نحيا بين صور ذلك الماضي الحبيب على اى وجه يكون ؟

ومن اعماق نفسي ثار بى حنين متضرم الى رؤية قرية « السلامية » وما ضمت من اماكن ومشاهد وأناس .

وما هى الا أن رف امام عينى طيف « ستوتة » مشرقة فى جلبابها الاحمر الفضفاض ، زاهية بعصابتها ذات الهداب الهفهاف، وهى تلوح لى بذراعها تدعونى أن أقبل عليها .

وعلى الفور تجلت لى صفحات من ايامى الحاضرة كئيبة راكدة ، وخيل الى انى لست اكثر من دابة مكدودة تنوء بحملها الثقيل ، وضربات العصا تلهب ظهرها فى غير اشفاق .

واتقدت بين جوانحى ثورة سخط على حياتى التى اكابدها ، بل على الحياة نفسها من حولى ... اليس من حقى ان التمس التحرر من اغلال صعاب يكبلنى بها العيش فى المدينة ؟ اما آن لى ان استمتع بعض وقت بعيشة البداوة فى بساطة وسذاجة ، نائيا عن مشكلات العقل والتدبير والحساب متفيئا ظلال الغفلة والسكينة والاستخفاف ؟

لم لا اهرب الى الريف ، اقضي فيه بضعة ايام ؟

لم لا امر الى « السلامية » ، القرية الحبيبة ، اتذوق فيها حلاوة الماضي الرخى ؟

لا اذهب غدا الى مقر عملى ، فسأتخذ طريقى الى دار « الحاج ابو صالح » الى « السلامية » .

ذلك مابنيت عليه عزمى .

وفى اصيل غدى ، كنت ازايل القطار، ومعى حقيبتى الصغيرة تحوى قليلا من المتاع ، وشكولا من الهدايا ، وتحسست جيبى ، فألفيت « الطاقية » فى مكانها الذى ائتمنته عليها ، وشخصت عينى الى مبنى المحطة ، اتأمله وانا اراجع نفسي : اترانى اخطأت القصد ؟ اهذى محطة « السلامية » حقا ؟ ان صورتها فى ذاكرتى تمثل بناء اغبر متداعيا لاتنسيق فيه ، أما ما أشهده الساعة فهو مبنى ناصع البياض ، عصرى الهندسة ، وكدت الحق بالقطار ، لولا ان اخذت عينى لافتة اقيمت على الرصيف ، تهتف بالزوار :

مرحبا بكم فى « السلامية » !

ولاحت فى خاطرى لافتات على هذا النحو ، تواجه زوار المطارات ومداخل العواصم والمدن الكبرى .

وقفت أمام لافتة « السلامية » اتأملها

مليا ، وقد سنحت على فمي ابتسامة غامضة .

ودفعت بخطاى اجتاز المحطة .

والقيت ببصرى حوالى ، اتفقد مربط الحمير ... فلم ار الا سيارة عامة يهرول اليها الناس متقافزين متزاحمين بالمناكب .

ومر على مقربة منى شاب ريفى ، مبسوط القامة ، متألق النظر ، فاستوقفته اقول :

— اين مربط الحمير ، ولا تؤاخذنى ياحضرة ؟

فأجابنى مبتسما :

— ليس هنا مربط للحمير او للبغال ... ولا تؤاخذنى يا أستاذ !

— اريد ان اذهب الى قرية « السلامية » ...

— تستطيع ان تذهب اليها راكبا السيارة العامة ، وهناك سيارات خاصة تحملك اليها ان رغبت ، فانتظر احداها هنا حيث أنت ...

— لم احضر لأركب سيارات عامة او خاصة ... أنا شبعان منها ... اريد ان امتطى حمارا ... اريد ان استمتع بركوب الحمير ...

فاتسعت ابتسامة الفتى ، وقال :

— ليس للحمير المأجورة هنا وجود ...

— امر عجيب ... هل اقفر الريف من الحمير ياحضرة ؟

— لم تعد تتخذ وسيلة للانتقال ، فقد حلت محلها السيارات .

وتركنى وهو يتضاحك ، ووقفت حيران هنيهة ...

واخيرا مر بى فلاح مزهو على ظهر دابته ، ومن حسن حظى ان الدابة كانت من جنس الحمير ... فاشرت اليه استوقفه ، وما ان دنوت منه حتى قلت :

— اريد الوصول الى قرية « السلامية » ... كم تطلب من أجر على المشوار ؟

فرمقنى بطرف عينه ، وهو معتل حماره ، لم ينزل عنه ، وهمهم :

— أنا لا أؤجر حمارى للركوب ... يا افندم !

وهم ان يتابع سيره ، فامسكت به اقول :

— ساعطيك اجرة سخية ترضى بها ...

ولم اتوان فى اخراج قطعة فضية كبيرة ، وانا اواصل الحديث :

— هاكها ...

فرمق الرجل القطعة فى يدى لحظات ، ثم مد يده قائلا :

— هاتها ...

ونزل عن الدابة ، فما اسرع ان امتطيتها .

وسار بى الحمار الهوينى ، وصاحبه يتبعه فى تخطر ، كأنما هو فى نزهة ، وكان ضنينا بالكلام ، على محياه خيلاء ، فاخليته لشأنه ، وجعلت اسرح الطرف حوالى فى الحقول المترامية ، واستنشى هواء الأصيل المشبع برائحة الزروع .

بيد ان السيارات عامة وخاصة ، كانت تجوز بنا كالزوابع الهوج ، تملأ الجو غبرة ، وتصم الآذان بما لها من صفير ارعن ، وضجة شعواء .

وواصلنا سيرنا الهين ، وقد اخذت الشمس تنحدر المغيب ، وتبدى لى قرصها المتوهج من بين النخيل يبعث الينا تحية المساء .

وتراءت لى مجموعة من الدور الريفية على طراز عصرى مستحدث ، استرعت انتباهى بجمال تنسيقها ، وطرافة هندستها ، فملت ببصرى الى رفيقى الصامت المتخطر اسأله :

— ما اسم هذه القرية ؟

فأجابني وهو يرمى ببصره أمامه فى غير مبالاة :

— انها « السلامية » ... القرية التى تبغيها .

فعجلت قائلا :

— أواثق انت ؟

فحدجنى بنظرة جافية ، وقال :

— انا من سكان البقعة يا أفندم ...

— ولكن ... ياحضرة ...

والفيته يأخذ بزمام الحمار يقفه ، وقال فى نبرة حاسمة :

— تفضـــل ... انزل ... اقـــد وصلنا ...

ونزلت عن الدابة ، وفى يدى حقيبتى، وقلت مهمهما :

— لم تكن القرية على هـــذا المظهـــر فيما مضي ...

فقال وقد ركب دابته :

— الدنيا تغيرت يا أفندم ...

ولكز خاصرة الدابة ، فانطلقت به تعدو ...

وبقيت وحيدا على حافة الطـــريق ، اتوسم القرية فى اعجـــاب لا يخلو من وحشة . لقد احسست على الرغم منى شعور ضياع ، وكأننى قد ضـــــلت السبيل .

ومر بى شخص عارى الرأس ، يبدو من ملابسه الحضرية انه من اهل المدن ، ولاحظ على الفور أنى غريب شبه تائه ، فدنا منى يقول :

— اتبحث عن شيء ياسيد ؟

— أبحث عن قرية « السلامية » ...

فقال متلطفا :

— انها أمامك .

— اتكون قد تغيرت ملامحها الى هذا الحد ؟ اكاد انكرها

— انت على حق . لقد رأيت معالم القرية القديمة ، وانشئت عن كثب منها قرية جديدة عمرها عام واحد ... انها قرية نموذجية ... تجـــربة فريدة من تجارب العصر الحاضر .

فأخذت بالصـــــمت أفكر ، ثم انثنيت اسأله :

— واهلها ... سكانها الأصليون ؟

— انهم فيها دون شك .

فأجزلت له الشـــكر ، محييا اياه ، فودعنى ومضي لطيته .

وظللت انا فى مكانى لا ابرحه ، وكانت طلائع العشية قد احتلت ارجاء الافق تزيدنى شعورا بالوحشة والاغتراب .

وهاجت بى الخواطر والذكريات .

مالى وللقرية النموذجية بحســـــن تخطيطها وتنسيقها وما تحويه من مظاهر حضرية الاقة ؟

لقد جئت اجتلى معالم القرية القديمة كما هى ببساطتها وسذاجتها وجمالهـــا الطبيعى ، لابرقشة ولا زخرف .

كلا ... لن يكون لى فى هذا هـــذا البلد مقام ... سأعود على الفور الى « القاهرة » .

واعتزمت ان اركب أول ســـــيارة قادمة تنقلنى الى المحطة .

وبينما انا فى وقفتى اترقـــــب ، اذ سطعت الانوار بغتة ، تبدد غاشـــية الظلمة ، واذهلنى انها انوار كهـــربية ، واستقرت عينى على القرية ، فاذا هـــى تسبح فى اضواء ... واستبانت لى زمر من الناس يتوافدون عليها،وهم يتصايحون ويتضاحكون . ولم يمض طويل وقـــت حتى اشتدت زحمة الوافدين وتعـــالت منهم ضجة .

وما هى الا ان تجاوبت أنحاء الفضاء بصوت جهورى منبعث من « مجهـــار »

يلقى بأقوال متتابعة . ليست واضحة النبرات ، فهمت منها انها برنامج لحفل يعدونه ، وملت على شاب فى حلة مهندمة ، يسير صوب القرية ، فقلت له :

ــ ايحتفلون بليلة عرس فى « السلامية » ؟

فتضاحك يجيب :

ــ نعم ، وانها لليلة عرسها ...

عرس القرية نفسها !

ــ عرس القرية ؟

ــ فى مثل هذا اليوم من عام مضي ، دشن المحافظ القرية الجديدة ، وفتح ابوابها لمن يعمرونها . اننا نحتفل الليلة بعيد ميلادها الاول .

ــ اانت من سكانها ؟

ــ انى طالب فى معهدها الزراعى .

فهمهمت اردد :

ــ معهدها الزراعى ؟

وتراءت فى مخيلتى على الفور صورة لم انسها لطرافتها ، صورة « كتاب القرية » فى العهد السالف ، وكان هو المعهد الوحيد الذى يتلقى فيه الصبية كل مايتلقونه من تعليم ... مبادىء القراءة والكتابة ، ولطالما طرقته مع « ستوتة » فى جولاتنا اليومية ، فاذا هو حيطان من اللبن متصدعة يصل بينها سقف من فروع الاشجار العتيقة ، وفى صدره فقيه حطمته السنون ، يتبوأ دكة خشبية ، ومن حواليه تنبعث اصوات الاطفال متربعين على الارض ، وهو يتعهدهم بالدرس والتلقين ، وبين الحين والحين يلوح لهم فى يده اليسرى بعصا من جريد ، اما يده اليمنى فهى فى ذهاب واوبة بين فمه وصحفة الطعام ، وعيون تلامذته محملقة فيه بنظرات جائعة منهومة ، وآذانهم غافلة عن سماع مايقول .

ونبهنى صوت الطالب الزراعى يقول :

ــ لاتؤاخذنى ، انى ذاهب الى الحفلة ...

فهززت يده هزة الشكر .

وتوالى الناس فرادى وجماعات الى « السلامية » ، واسترسل « المجهار » يواصل اذاعته فى حماس شديد، وازدادت الاضواء من سطوع ، وارتفعت أنغام الموسيقى تملأ النفس من بهجة وايناس .

وجعلت القى لما حولى سمعى وبالى ...

ووجدت قدمى تنساق بى نحو مدخل القرية ، وجرفنى التيار يطوينى فى جوفه ، واذا انا فى ساحة قد أعدت على غرار ساحات الملاعب الشعبية « السيرك » : حلقة فسيحة نصبت فيها آلات ومعدات ، ورصت حولها المقاعد ، وقد أخذ الجمهور يشغلها .

سرت كالقتائه يدفع بى الناس يمنة ويسرة ، وقد اختلط على الامر ، فلم اعد ادرى ما انا فاعل ؟ أ ابحث عن مقعد استريح بالجلوس عليه ، واشهد منه احتفال الليل ، ام اعود ادراجى الى « القاهرة » ؟ وانتهى بى المطاف الى احد الابواب ، ورايتنى امام شخص يرتدى حلة شبيهة بحلة الكشافة ، يلف على ذراعه شريطا أبيض عريضا محلى بشارات ملونة ، فما شككت انه من اصحاب النفوذ فى الحفل ، فتقدمت اليه احييه ، فرد تحيتى فى أدب ، فقلت له :

ــ انا غريب عن القرية ، قدمت عليها ازور بعض المعارف ، فهل لى ان أعلم اين تسكن اسرة « الحاج أبو صالح » ؟

ــ لن تجد الليلة احدا فى داره . اهل القرية اما بين النظارة يتفرجون ، واما بين جوقة الفنانين يتأهبون للتمثيل .

ـ الا تستطيع ان تعينني على ان القى واحدا من تلك الاسرة ؟

ـ من العسيرَ عليك أن تجد ضالتك بين المتفرجين ، وهم حشد كما ترى كبير . وقد يسعفك الحظ اذا بحثت هنا بين جماعة الفنانين ... تفضل ... ادخلَ ... ادخل ...

وفسح لى ، فدخلت ... وواجهنى على الفور هرج ومرج ، زمر من الفتيان والفتيات فى غدو ورواح ، يتصايحون ويتضاحكون ، وهم رافلون فى ثياب زاهية بهيجة ، مختلفة الشكول والالوان .

فانتحيت ركنا اشهد منه مايدور حولى ، وبيدى حقيبتى الصغيرة ، تدل على انى زائر غريب . وكلما جاز بى شخص ، حاولت ان استوقفه ، ولكن ضاعت محاولاتى سدى ، فلم يعرنى احد بعض التفات ، واحسب انهم ظنوا انى من عمال المسرح ، او من مساعدى التصوير والاخراج ...

ونالنى ضيق ، وهممت ان ابارح المكان ، فاذا عينى تتصيد على حين بغتة وجها اسمر فى لون النحاس المصقول ، بعينين خضراوين تماثلان فى صفائهما لون البرسيم فى ابانه .

وانطلقت من حلقى صيحة .

ـ « ستوتة » !

والتفتت نحوى صاحبة الوجه النحاسي والعينين الخضراوين ، فهرعت اليها مهتاجا ، وسمعتها تقول مشدوهة :

ـ من تريد ؟

فأجبت راعش الصوت :

ـ اريد « ستوتة » ... «ستوتة»...

فقالت فى صوت هادىء :

ـ لست « ستوتة » ...

ـ من تكونين اذن ؟

ـ اسمى « فيفى » .

ـ و « ستوتة » بنت « الحاج ابو صالح » ؟

فحملقت الى بعينيها تحاول استبطان افكارى ، ثم قالت فى بساطة :

ـ لعلك تعنى امى !

ـ هل انت ابنة « ستوتة » ... ؟ هل جدك هو « الحاج ابو صالح » ؟

ـ نعم ...

فقلت ، وانا اعالج ان املك مشاعرى ، واستعيد هدوئى :

ـ حقا لا يمكن ان يكون الامر غير ذاك ... معذرة !

ـ الا تفصح عما تريد ؟

ـ جئت الى « السلامية » لازور الأسرة ، فقد نعمت بضيافتها شهرا كاملا منذ ... منذ ...

واعتصرت جبهتى اعد السنين ، ثم ابتسمت اكمل قولى :

ـ منذ ثلاثين عاما او اكثر ...

فتضاحكت « فيفى » تردد :

اكثر من ثلاثين عاما ...

ـ هذا هو الواقع ... والآن وقد عثرت عليك ، الا ترشدينني الى دار الأسرة ازورها واجدد العهد معها ؟

ـ اذهب معك بكل سرور ... انتظر حتى ينتهى الحفل ... ساشترك فى مشاهد العرض .

ـ وهل القى فى الدار « ستوتة » و « الحاج ابو صالح » ؟

فنكست راسها تقول :

ـ كلا ، لقد ذهبا الى رحمة الله !

ومرت برهة ، وكلانا صامت خاشع البصر .

ثم سموت براسي اليها اقول :

ـ والفرن ... الا استطيع ان اقضي ابلتى عليه ؟ ... لا انسي الليالى الماضية التى قضيتها نائما فوقه ...

فتخايل على وجهها طيف ابتسام ، وقالت :

لافرن الآن فى الدار ... بل ليس فى دور القرية الجديدة فرن واحد !

فتساءلت دهشا :

ــ وكيف تحصلون على خبزكم اذن ؟

فاتسعت ابتسامتها ، وقالت :

ــ من مخبز الجمعية التعاونية .

ــ أمر عجيب !

ــ بل أمر طبيعى ...

وانسرحت بى الافكار لحظات أهيم فى آفاق الماضي ، مستعيدا صوره واطيافه ، ثم انبعثت اقص على «فيفى» ما أعرفه عن « السلامية » فى عهدها الغابر وما كان فيها من أوضاع العيش ومرافق الحياة .

وافضت فى الحديث مشبوب العاطفة ، راويا لها كيف كانت امها « ستوتة » رائدتى فى جولاتنا اللاهية العابثة ، وكيف كنت سعيدا بريادتهما .

وما أتممت حديثى حتى انبرت تقول :

ــ اخشي ان تكون زيارتك اليوم « للسلامية » لاتحقق ما هفوت اليه .

فنظرت اليها ، فطالعتنى عيناها الخضراوان ، وقد تألقت فيهما حيوية دافقة . فقلت على استحياء :

ــ كيف يكون ذلك وقد سعدت بمرآك ؟

فاخذت تسترسل فى حديث حماسي ، تصف القرية فى عهدها الجديد وما شاع فيها من اسباب الرخاء والرفاهية ، وما شمل اهلها من تطور اجتماعى . وكنت انصت لها كل الانصات ، وانا مأخوذ بنغمة صوتها الساحر .

واخيرا قالت :

ــ لقد كانت أمى رائدتك فيما سلف ، فهلا رضيت بى اليوم رائدة لك ، اجول معك فى القرية الجديدة ، اريك مفاتنها ؟

فاجبت فى اقبال :

ــ ليس احب الى من ذلك .

وزعق « المجهار » فى تلك اللحظة ، يعلن ان بدء الحفل وشيك . وأن على كل امرىء ان يأخذ مجلسه ، فقلت :

ــ حان الوقت لابحث عن مكان لى وسط هذا الزحام ...

فأسرعت تقول :

ــ ان مكانك بجوارى ... ستلازمنى طول الوقت ... لقد بدأت ريادتى لك منذ اللحظة ...

ــ كيف يكون ذلك ، وانت من فرقة الفنانين الذين يشتركون فى العرض ؟

ــ اطمئن ... هذا لايغير من الامر شيئا ... اعلم ان لكل فتاة حق اختيار زميلها فى مشاهد العرض ... وقد اخترتك ... انتظرنى هنا فساعود بعد قليل ...

واجتذبت منى الحقيبة وهى تقول :

ــ سأحفظها لك فى مستودع الملابس، حتى ينتهى الحفل .

فتركتها تفعل ، وقد انعقد لسانى ، وملكتنى حيرة .

ولم تطل غيبة « فيفى » فعادت وفى يدها لفيفة ، سرعان مابسطتها أمامى ، فاذا هى « زعبوط » من المبتكرات الحديثة ، مخطط بألوان زاهية . وما عتمت ان طرحته على منكبى ، وطفقت تسويه على جسدى . ثم مضت تكرر فى الضحك ، وهى تردد :

ــ فلاح عصرى ، طراز ١٩٦٤ !

ثم ناولتنى ورقة فيها بعض اناشيد منسوخة بالآلة الكاتبة ، وقالت لى :

ــ ستحفظ امامى هذه الاناشيد

ومشدريك على اقدامها ، كما ادربك على رقصات البرنامج .

وشرعت تدربنى ، وكانت استجابتى سريعة ، ولم البث ان احسست نشطة طارئة تسرى بين جوانحى ، وكأننى عدت صبيا فى العاشرة ، استقبل لهو الطفولة وعبثها ، دون رقيب .

والحق اننى لم اعد افكر الا فى اللحظة التى احياها مع « فيفى » ، غافلا عن كل شيء عداها . لا ماضي يثقل على بتقاليده ، ولا مستقبل يزعجنى باشباحه الغامضة . ليس ثمة الا بهجة تنبعث من طلعة رائدتى ، وصفاء يترقرق من لمح عينيها الخضراوين .

وزعق « المجهار » مرة اخرى يعلن بدء العرض ، فعلت اصوات تترنم بالاناشيد وقد صاحبتها الحان جياشة . واحسست بيد « فيفى » تمسك بساعدي ، وتسير بى ، فأرخيت لها قيادى فى استسلام . . واحتوتنا الحفلة فيمن حوت من فرقة الفنانين ، وكانت الأنوار وهاجة تخطف البصر ، واستبانت اجهزة الاذاعة المرئية ضخمة متنوعة تلتقم الصور والاصوات فى شراهة .

وددت مع « فيفى » نتراقص ونشترك فى الانشاد ، وكانت الاناشيد تتغنى بقرية « السلامية » وتمجد تطورها فى العهد الجديد ، وقد حفت بها انغام تتسرب فى اعماق النفوس ، فتثير فيها الحمية والنشوة .

قضيت الوقت ، وانا شبه ثمل ، اكاد افقد الوعى لما حولى ، لولا ان هذا الوجه النحاسي المصقول بعينيه الخضراوين الصافيتين ، كان يردنى الى اليقظة آنا بعد آن .

وانتهى العرض ، والتهبت الأكف بالتصفيق ، وعلت الحناجر بالهتاف .

وخافتت الاضواء ، وزعق « المجهار » يعلن الاستراحة ، ويدعو النظارة الى المقصف ، فمضينا اليه ، فاذا موائد مستطيلة ، جميلة التنسيق ، رصت عليها آنية من الشطائر والفطائر ، وشكول من الفاكهة والحلوى . فالتففنا حولها ، واصبنا من طعامها ، فى جو يسوده بشر وايناس .

وبرز امرؤ حاسر الرأس ، انيق البزة ، على منصة فى صدر القاعة . فدوى التصفيق ، ومالت على « فيفى » تقول :

ــ انه العمدة ...

والقى العمدة خطبة عامرة ، اجمل فيها ما احرزته القرية خلال عام من تقدم ونماء ، فلقيت خطبته ترحيبا وحفاوة .

وانفض الجمع .

وهمست « فيفى » تقول :

ــ والآن الا ترغب فى الخروج ، تنشد النزهة فى جو طاق ؟

ــ انا معك ، حيثما اردت .

وادبرنا عن الملعب ، نتوخى وجه الطريق . وما لبثنا ان ملنا عنه الى سكة جانبية تسايرها ترعة ، وعن يمينها وشمالها تترامى الحقول . وتناقلنا الحديث فى شأن الحفل وما دار فيه . وكنا كلما اوغلنا فى السير بعدت عنا الضجة ، ورقت الاضواء ، وقل الكلام ...

وازدادت الحلكة ...

وملكنا صمت ..

وامتدت يدى الى جيبى ، أتفقد منديلى ، فاذا نسيج مطرز يعلق باصابعى ... وبدت لى « الطاقية » فى مظهرها الساذج ، هدية « ستوتة » الى يوم الرحيل ، فى الزمن البعيد .

وحدثتها « فيفى » ، فسألتنى :

ـــ مابالها ؟

فرويت لها قصتها ، فتناولتهـــا منى تفحصها ، وهى تقول :

ـــ ما انبل مشاعرك ! اتحتفظ بهــا طوال هذه السنين ؟

ـــ انها تذكـــرنى بأيام طفـــــولتى الهائنة ...

ـــ اثر تاريخى لطيف .

وردت « الطاقية » الى ، وواصــلت حديثها :

ـــ مثل هذه « الطاقية » لم يعد له اليوم عندنا كبير شأن !

وتلاحقت الذكريات فى خاطرى ، وقلت لفتاتى :

ـــ لم تذكرى لى كيف قضت أمك ؟ ومتى ؟

ـــ يوم مولدى .

فهمهمت :

ـــ ما أمرها ذكرى !

وطوانا الصمت ، ثم استأنفت الحديث فى نبرة محزونة ، اقول :

الى عندك مطلب .

ـــ ماذا تبغى ؟

ـــ ان ازور قبرها ...

ـــ فى مستطاعى ان امضى بك الساعة اليه ان شئت ...

ـــ الآن ؟

ـــ ان مقبرة القرية غير بعيدة ، بيننا وبينها بعض خطوات .

واشارت بيدها الى خربة تغـــزوها الاعشاب اليابسة ، ويغشاها الظـــلام الموحش ، والسكون الكئيب . وقــالت خافضة الصوت :

ـــ انه المكان الوحيد الذى لم تنله بعد يد التجديد ...

وضربنا بأقدامنا صوب الخربة ... وقد تمشى فى جوانحى قلق غامض .

وما كدنا نسير ... حتى تنادى الى اسماعنا صوت « المجهار » ينبىء بانتهاء الاستراحة واستئناف البرنامج ، فتوقفنا ، وقات :

ـــ لم يبق من وقت للزيارة ... نعود ادراجنا ...

ـــ لايستأنفون العرض على الفور ... هناك فسحة من الوقت ... تتيح لنا ان نزور ...

وتراءت خلفنا اضواء الحفل تسطع وتتوهج ، وقويت الضجة فى صخب ، وامتلأ الجو بأنغام الموسيقى .

ولبثت لحظات ارجع البصر بين الخربة من امام والحفل من وراء ، بين الظلمة الموحشةوالاضواء الألاقة ، بين السكون المطبق والحركة الجياشة . ثم الفيتنى امسك بيد صاحبتى وارتد بها نحـــو القرية ، وانبهنى صوت « فيفى » يقول :

ـــ انتظر ... انتظر قليلا ...

ـــ لم ؟

ـــ شيء سقط منك .

ـــ ماذا ؟

ـــ لعله « الطاقية » ... انظر ...

واشـــارت الى شيء ابيض ، يترنح على حافة الترعة ، تداعبه نســـمات المساء .

وهبت ريح تحمل « الطاقية » وتلقى بها فى الماء .

ورأيتهـــا تطفو بعض وقت ... ثم اختفت رويدا بين تموجات هينة رقاق .

وعجبت لامرى كيف احجم عن انتشال « الطاقية » ؟ ...

لقد عـــرانى تبلد عجيب ، فلم ابد حراكا ...

ومات بناظرى عن الترعة ، اواصـــل السير ، ويدى فى يد صاحبتى ، متجهين الى « السلامية » الجديدة التى يغمرها فيض من حيوية ونور !

صقر البحار

بقلم محمود البدوى



كان البحر عالى الموج والرياح تزمجر والليلة شديدة الظلام ...

وكان الزورق يشق الماء فى جو ينذر بالعواصف والمجدافان يعملان بشدة... وبجهد الرجال الشجعان ليصل الزورق الى مقصده ...

وكان قد ابتعد عن المنتزه وخرج الى عرض البحر .. وأصبح تحت رحمة الاقدار ... ولكن الرجال الاشداء الذين يوجهونه كانوا يكافحون ببسالة ..

ولم تكن العاصفة مقدره .. ولا كانت فى حسبان احد .. ولا كان هنك أدنى احتمال فى ان ينقلب الجو الى هذا السوء ولكن الزورق كان لابد ان يبلغ السفينة فى منتصف الليل مهما كانت الاحوال ناقلع ...

وكان «مرسي» صاحب الزورق الملقب بصقر البحار من امهر الصيادين ورجال البحر فى الاسكندرية اعتادعلى المخاطر وركوب الاهوال ، وكان يعتمد عليه فى مثل هذه المهمة اعتمادا كليا . وندر من يقبلها أو يرضى القيام بها من أصحاب الزوارق الاخرى .. ولكن صقر البحار كان على استعداد تام لان يبيع نفسه حتى للشيطان اذا دفعت له الأجرعاليا .

وكان صقر البحار أصغر من رفيقيه فى الرحلة سنا ، ولكنه اشدهم بأسا واعظمهم قوة،وكان يتولى القيادةوامساك الدفة . وفيه كل طباع القرصان .. ومع ان عهد القرصان قد ولى .. وذهبت ايامه وبقى ظله فى البحار .. ولكن مرسي كان يضحك ويقول . « ان الناس اصبحوا قراصنة على الارض بعد ان اختفى قرصان البحار .. فلماذا لا أعيد للبحر هيبته .

ومنذ عصف البحر وهو يفكر فى الشيء الذى غيبه فى القاع .. خشية ان يغرق الزورق ويفقده فتكون الكارثة الكبرى .

وكان جسورا مقداما بطبعه .. وقد اكسبه العيش فى البحر .. جـــراة وجسارة اكثر .. وقد ذهب بزورقه هذا الى سواحل « الشام » كمـــا ذهب الى قبرص والى « بيريه »..ولم تكن جراته فى الابحار تقف عند حد ..

وكان يرتدى سروالا أسمر وقد تمنطق بحزام ووضـــع على صدره فانلة البحار وفوق هذه صدارا قطنيا مخططا زاهى الالوان .. وغطى راسه بطاقية صوفية مبرقشة جعلته اشبه بصقر الليل ..

وكان الملاحان الآخران المرافقان له فى الرحلة يلبسان ملابس الصيادين .. وحشا احدهمـــــا جيوبه بالتبغ والبلح المجفف .. واخذ الرجال الثلاثة يدخنون فى صمت وعيونهم الى البحـــر والليـــل وكانت العاصفة تزداد عنفا .

وكان هناك المســـافر الوحيد فى هذا الزورق .. وقد جلس قابعا منزويا فى الجزء الخلفى الملاصق للدفةوعلى وجهه كل دلائل القلق والخوف الشديد ..

واخذ الزورق يتأرجح ويعلو به الموج ثم يهبـــط .. ومع كل ذلك ظلت ملامح الرجال ساكنة ووجوههم صلدة..وكانوا قد طووا نصف الشراع .. وبدا النصف الاعلى المنشور كافيـــا لان يدفع الزورق كالسهم فى مثـــــل هذه الريح لو كانت الاحوال طبيعية ولـــكن صراع الموج كان يعوق الابحار...وكان الزورق يبدو .. كأنه لايتحرك من مكانه .. والبحر يزأر بعنف وكأن فى أعماقه غيلانا تتقاتل .. وتجذب الزورق بسلاسل اليها .

عاش الثلاثة رفقاء فى البحر ...

وكانتحياتهم ملتصقةبالبحر وممتزجة به..وتحت سمائه يأكلون ويشربون .. وينامون ...

وكانت صدورهم المفتوحة وعضلاتهم وسواعدهم .. تزداد قوة وصـــلابة فى صراعهم مع الامواج .

وكان « مرسي » على غير عادته قد اخذ يجدف فى هذه الليلة لهول البحر .. وكانت قوته وحده تعدل قوة رفيقيه .. ثم ترك المجداف لغيره وانتصـــب فى مؤخرة الزورق.. يرقب هناك .. وبدت قامته الطويلة فى الليل كمارد أسود..

كان فارع الطول عريض الالواح .. وكان يجيل عينيه الحادتين فى أغـــوار البحر .. باحثا عن السفن التى تتحرك هناك ..

وكانت يداه تتحركان الى امام وخلف ثم وضع احداهما فى جيبه واشـــمل لنفسه سيجارة بعد ان انحنى فى القاع ليكون بنجوة من الريح ..

وبدت عينـــاه حمـــــراوين كوهـــج السيجارة التى فى اطـــراف انامله . وكانتحياته صراعارهيبا كثير المخاطر.. وكانت المخاطرة تدفعه لمثلها او اشـــد منها حتى وجد نفسه اخيرا يعيش فى حلقة مفرغة وكان الصيد ســـتارا لما يقوم به من اعمال خفية ولم يكن يؤمن الا بالشيء الذى سيحصل عليه هو مهما ركب فى سبيله من اخطار .

كان انانيا يدور حول نفسه والانانية هى محور حياته .

وكان عيشه فى البحر قد جعل جلده اسمر كأنما سفعته النكباء ... وكان شعره قصيرا خشنا . وترك شـــاربه مفتولا وكان يعنى به ويدهنه .

وفجاة برز امام عينيه شيء ضـــخم قام كالجدار كانما خرج من جوف البحر ولم يشاهد « مرسي » السفينة الا وهى امامه .. وكانت ضخمة من عدة طوابق وتسير فى الخط المضاد .. وكـــانت تقترب منه كانها متعمدة ســــحقه ولما

اقتربت توضحت معالمها وأبراجها وبدت أنوارها الضئيلة تمسح الظلمة قليلا .. لاحت فى الليل الشديد السواد وهى تترجح .. كحبات من الدر متناثرة على صينية من الزئبق الرجراج .

وكان الموج يدفع السفينة الشامخة ويميل بها الى جانب ولكنهـا كانت فى جبروت واصرار تلتزم خطها المرسوم .. وكان مرسي يدرك تماما ان السفينة لم تره ولم تحس وجوده الى جانبهـا .. قط .. وهنا يكمن الخطر ويتجسم فى كل لحظة ..

واحس بالدوامة تقترب وكـان الزبد الابيض المتخلف من محرك السـفينة والذى سيطويهـم يقترب منه .. رآه مرسي على مدى امتار قليلة .

فأمسك بالدفة فى يده وصـاح فى رفيقيه وزأر ...

واحس المسافر الوحيد بالخطر فتجمع على نفسه مرعوبا .

وزعق الرجال الثلاثة فى صـوت واحد وقد تحولوا الى مردة .. على المجـاديف ... واندفع الزورق الى الأمام ثم ارتد الى الخلف مرة اخـرى وارتفع كالطود ثم انخفض . وحسب الرجال انهم غاصوا فى قاع البحر .. ثم تنبهوا الى صوت المحرك ... مـع صفارة السفينة ..

وكأنما جاء النذير فى الليل العاصف فهدأت المحركات .. ومرق الزورق من جـانب السـفينة وخرج الى بحـر الامان ...

وران صمت كالجبال على الوجـوه المنتفخة .. والعيون المحدقة فى ذهول .. فقد نجوا من الموت بأعجوبة ...

وتغـير وجه مرسي بعـد ان اجتاز الخطر ...

وظهر عليه العبوس فقد احس بأنها ليلة مشئومة .. ولكن لهفته على ان ينجز مهمته .. جعلت قلبه الصلد لا يلين ولا يعبأ بما تأتى به الاخطار فراح يحـدق الى الامام فى سكون ..

وكان البحر يضفى عليه احساسـا بالقوة وبالحرية ...

***

تحرك المجدافان فى الماء واخـذا يضربان صفحته فى قـوة ... واحس شعبان احد الملاحين بطقطقة فى الحلقة التى تمسك بالمجداف .. وفى سرعة جذب المجداف من الماء واخذ يغير الحبل .. وبقى المجداف الآخر يثير الزبد ..

واستدار الزورق لما نزل المجـداف الثانى الى الماء مرة أخرى واخذ يشق طريقه وبدت اضواء السـفن من بعيد تتحرك فى بطء .. كان المحركات تتقى شر العاصفة ولا تدور الا هونا ... ونظر مرسي الى ساعته فألفاهـا الحادية عشرة .. وكان امامه مسـيرة ساعة كاملة فى هذه الاهوال حتى يلتقى بالسفينة التى يقصدها ...

وكان الزورق رغم العواصف والانواء يسير فى خـط معاوم كأنما يتحـرك بمحرك .. كان ينطلق ثم يرتد ولكنه يمضي على سننه فى وجهته المرسومة .

وكان الماء واسـعا وخيل الى مرسي عند ما أبعد تماما عن الشاطىء واوغل فى اليم انه يسير فى وسـط المحيط الأطلسي ويتجه غربا الى أبعد مدى .

واعتمد على عامود الدفة واخـرج لنفسه سيجارة منجيبه واشعلها واجال الطرف فيما حوله ... كان البحـر لايزال مهولا ... واسـكن السفن بدت كثيرة وراء بعضها كأنما تربطها سلسلة واحدة وهى خارجة لتوها من قنـاة

السويس ... لابد انهـا عبرت القناة بالامس ... وربما فجر اليوم وها هى ذى الآن تتهادى الى كل البحار ..

ظل الرجل فى مكانه صامتا حتى رأى النور الذى يعرفه والســـارية التى يقصدها .. وكان يعتمد على شعبان اعتمادا كليا فقال فى صوت النشوان .

ــ اننا نقترب ...

ــ اجل .. يا ريس ..

ــ عندما ندور فى الجانب الايسر من السفينة اترك المجداف لحميدو .. وارتكز انت على المقـــدمة حتى ترى الزورق ينزل بالحبال من السفينة .. وحاذر من الســـفينة والا اغرقتنا فى دوامتها ..

ــ سنبذل كل مافى وسعنا .. والله يسلم ..

ومرت لحظات وظهر من بعيد هيكل السفينة كالجدار ونزل منجانبها زورق صـــغير وبدا الرجال فى الظلمـــة كالعفاريت ..

ورفع مرسي المجـاديف عن زورقه وانحنى الى الامام يحدق فى الظلمـــة الجاثمة امامه . وقد امسك بيده عمود الدفة ..

ورأى الزورق الاخر على سطح الماء ثم انزلق الى ناحيته وران الصمت .. حتى اقترب الرجال ...

وخرج المسافر الوحيد من مكمنه كانه خارج من قاع الجب ..

واخرج مرسي الصـــــندوق المليء بالسبائك الذهبية .. من قاع الزورق وناوله لشعبان فى المقدمة .. وتقابل الزورقان ..

ونزل المســافر الوحيد فى الزورق الاخر .. وحمـل له مرسي الصندوق المملوء بالذهب والجواهر .. ووضـــعه بجانبه فى الزورق الاخـــر وقبض اجر التهريب من المسافر الوحيد.. وعاد الى زورقه وهو نشـــوان فقد قبض مبلغا ضخما .. يكفيه لان يعيش فى رغد ،

ودارت المياه وتحـــرك الزورق الاخر حركة لولبية ثم عاد الى ســـفينته مرة اخرى ورفعوه بالحبال والجنازير .

وتنفس الرجال الصعداء لقد قاموا بالمهمة فى جو عاصـــف وفوق الامواج المرتفعة .. وسأل مرسي .. رفيقيه .

ــ تعبـــتم ؟

ــ ابـــدا ...

ــ حركا .. المجـاديف ... جولة واحدة ثم نرجع لننام ...

وتسمع حركة .. فانصـــت والقى اذنيه :

ــ انى اسمع حركة ...

وانصت الملاحان ...

ــ انه طراد ..

ــ لا .. انه رفاص الســـواحل .. حل الشاغول يا شعبان .. وشد القلع على آخره ..

ــ نغرق يا ريس ...

ــ الغرق..خير من القبض علينا.. سيسوموننا العذاب .. حل يا شعبان حل ..

ــ نغرق يا ريس ...

ــ قلت لك حل ...

وتحرك اليه فدفعه الى السارية ..

واندفع شـــــعبان الى الامـــام .. وعاكسته عقدة فى الحبل .. فتعلق بالسارية .. ليعالجها .. وجاءت موجة عالية فىهذه اللحظة .. رفعت الزورق على صدرها ثم حطته .. وعندما نظر مرسي الى مكان شعبان وجده شاغرا فصرخ فى حميدو .. ولكن الزورق كان

يسير بين موج كالجبال فذهب الصراخ هباء ...

وكان حميـــدو يريد ان ينزل وراء شعبان .. ولكن مرسي منعه ..

وكان البحـر مهولا .. والحيتـان تتراقص بجـانب الزورق .. وطفا شعبان مرة واحــدة وهو يصرخ مستنجدا .. ثم ابتلعه اليم ..

***

وشرب مرسي الشاى .. واشـعل سيجارة ..

وخيم سـكون الموت فهـــذه المرة الخامسة التى يحدث فيهـا غرق فى جولاته .. كان شعبان الذى غرق من امهر الملاحين وقد اسف عليه ولكن ماذا يجدى الأسف

ولم يحـزن مرسي على الرجل الذى غرق وابتهج لانه سياخذ نصيبه وقرر ان يعطى أرملة الغريق منحة بسيطة وياخذ الباقى لنفسه ..

اما حميدو فقد حزن على موت رفيقه واحس بغصـة فى حلقه .. ولولا خوفه من مرسي لقفز الى المـاء وتركه وحيدا ...

ولما وجد الريح قد سكن اطلق الشراع كله .. ورفع .. ورفع المجداف ...

وخيم الصمت من حوله .. وبدأ الليل تنكشف غياهبه .. واخــذت نجـوم الصباح .. تتالق ..

وكان الزورق ينطلق فوق الماء فى يسر بعد ان سكنت الامواج ..

احس مرسي وهو معتمد على الدفة وقد اطلق « الشـاغول » وشد القلع بانه يملك زمام الطبيعة..وان كل شيء رجع اليه كما كان .. وبدا البحر جميلا أزرق .. وصفحة السـماء فى مثـل زرقته ...

لم يحزن على الرجـل الذى طواه البحر .. ابدا .. هذا عارض يحـدث لكل من يعمل فى البحر وماذا يجـدى الحزن .. وماذا يجدى الأسف ..

واحس بالجوع .. فأكل شيئـا .. ولم يأكل رفيقه .. واحس بعد الطعام بالدفء ولم تكن الليلة شديدة البرودة.. وان كانت ريح فبراير لاتزال تسفع ..

وكان الزورق يشـق صدر الماء فى يسر والقلع شـائلا .. والحبـال مشـدودة .. والى يساره لاحت انوار بعيدة ..

انه يقترب من الشاطىء جدا .. وقد بعد عن الخطر ...

وارتكز ثانية فى مؤخـــرة الزورق وحول اتجاهه .. ليقترب من الشاطىء اكثر واكثر .. لقد دخل فى منطقة الامان ولم يعد البحر يخيفه ..

وتحسس النقـود فى نطـــاقه الجلدى .. سيعطى « حميدو » خمسين جنيها فقط ويبقى المبلغ كله له لقد ادى المهمة واستراحت نفسه .. شــعر بالارتياح .. كان يشعر بابتهاج النفس كلما فرغ من عمل ركب فى ســبيله المخاطر ..

وملأ رئتيه من هواء البحر .. وتمطى وشعر بلذة من فرغ من عمـل كبير .. واستحوذ على اجره كاملا ...

وانطلق الزورق ...

وبدت اليابسة على مرمى الافق .. الارض الخضراء..وكان يحس بانتعاش وهو يراها .. ويحس بشــوق لان يعود .. الى بيته سليما كمـــا خرج منه ..

لقد انتهى الامر .. وذهبت المخاوف كلها .. وبغرق شعبان انزاح الشـؤم كلــه ...

واحس بانفاس البحر .. وكان الزبد يذهب مع الموج ثم يجيء .. زبدا راغيا

واخذ الزورق يتمـــايل حتى لاحت اليابسة .. مع انفاس الصـــبح .. واشرق نور الصباح . بهيجا رائعا . وسيسير فى النهار عائدا الى الاسكندرية انه الان على مبعدة من رشيد وربما من ادكو .. وســيظل يتهادى بزورقه فى عرض البحر حتى يقبل الظلام ... وفى الليل سيدخل الاسكندرية .. ما اجمل الحياة فى البحر ...

وقال لحميدو :

— ارمى الشبكة ...

ومع مطلع الشمس ســحباها وكان فيها سمك كثير ..

كان مرسي مبتهجــا .. وكان رفيقه يلقى بالســمك الحى الى قاع الزورق ويطوى الشبكة فى المؤخرة .. ويقوم بعمله العادى فى نشاط عجيب .. ونسي ما حدث فى الليل .. نسيه بسرعة .. لأن الحياة عــودته على ذلك .. وادار الزورق .. وقاده الى حيث يقدر وجود المياه الســـاكنة كان يريد ان يصطاد سمكا كثيرا يملأ به قاع الزورق ليغطى العمل الذى خرج من اجـله فى الليل فظل يصطاد ويصــطاد ... وبدا كل شيء واضحا فى الشمس وبهيجا وظل الجو هادئا الى العصر وفى الغــروب انقلب الجو مرة اخــرى ... وامسي عاصفا وظل الرجلان يكافحان ويغالبان الامواج ببسالة ...

واحس مرسي بموجة عاتية قادمة من بعيد ستدفع الزورق وتحطم الســارية وانقلب الزورق من شـــدة العاصفة واحتواه الماء .. وغاص مرسي فى اليم ثم طفى ولما نظر لم يجد الزورق المقلوب ولا حميدو واختفى كل شيء عن نظـره وظل يســبح ثم ادركه التعب وقبل ان يشرف على الغرق انتشــله زورق من زوارق الصيادين والقاه الى الشاطىء. وكان فى حالة من الغيبوبة ولمــا أفاق لنفسه كان متمددا فى كوخ بجـــوار البحر .. والشمس تسطع ...

وكانت هنــاك امراة واقفــة خارج الكوخ ...

كانت نعيمة على البــاب .. واقفة كانها تنتظر عودة زوجهــا الذى ذهب منذ ساعة الى الحقل .. او تتطلع الى اشراقة الصباح .. وكان وجهها يرف كالاقحوان وقد بدت طويلة ملساء العود نقية البشرة ..

وسالهــا الرجل الراقد وهــو يدير عينيه فى ذهول لعله يتذكر ...

— ما الذى جاء بى الى هنا .. ؟

— التقطك صياد .. وانت غريق فى البحر — بين الموت والحياة — والقى بك الى الساحل ...

— واين نقودى ؟

— اى نقود .. ؟

— نقودى الكـثيرة حزمة من اوراق البنكنوت ثلاثة آلاف جنيه كانت هنا فى منطقتى ..

— ربما سقطت فى البحر ...

— انها لاتسقط..لقد سرقت منى.. وانتزع النطاق وانا فى غيبوبة ...

— ربما فعل هذا الصياد ..

— من يدرى وربما غيره ؟

وحدق فى وجهها .. كانت رائعة فى دسارها الاســـمر .. وكانت عيناها السوداوان تشعان ببريق اخاذ .

وغاظه ان المال الذى ظل يعد العدة له منذ سنة كاملة .. ذهب سريعا فى خطفة عين.. دون ان يدرى من الذى اخذه.

واحس بالغضــب .. ولكنه الحمى

كانت تشله عن الحركة .. ونظر الى المراة مرة اخرى واتهمها وان لم يجد الدليل القاطع ..

وسألها :

ــ هل تعرفين الصياد الذى انتشلنى من البحر ؟

ــ ابدا .. انه عابر سبيل .. ربما كان فى طريقه الى الاسكندرية .. او رشيد .. لقد ابتاع منا سجائر .. وابقاك هنا .. وذهب ..

وفكر انها تكذب كذبة بلقاء ..

وسألها :

ــ تحت اى بلدة نحن ... ؟

ــ اننا قريبا من « ادكو »

ورأى رجلا يقدم فى اتجاه الكوخ.. فسألها :

ــ ومن القادم هناك ؟

ــ انه زوجى .. ؟

ورأى رجلا قصيرا يتحرك فى ضوء الضحى .. وكان يحمل زكيبة على عاتقه .. ولما اقترب الفلاح من مرسي جلس بجواره يحييه ويسأله :

ــ كيف حالك الآن ؟

ــ كما ترى .. بخير .. والشكر لك ولزوجتك ...

ــ اعملى شاى يانعيمة .. وجهزى الغدا للريس .. اسم الكريم .. ؟

ــ مرسي ..

ــ جهزى الغدا للريس مرسي ..

ــ الغدا جاهز ..

ــ اشكرك .. تعافنفسي الطعام.. ارجوك اذا مرت سيارة اجرة فىطريقها الى الاسكندرية اوقفها لى .. لاعود لبيتى ..

ــ انت الآن تعبان واذا سافرت .. وانت مريض ستؤذى نفسك ..

ــ لابد ان اذهب الى المستشفى ان الحمى تأكل بدنى ...

ــ حاضر.. سنوقف لك سيارة ...

وشرب مرسي الشاى .. واحس بالعرق والنوم يراود اجفانه فتدثر ونام نوما متقطعا الى العصر ولما استيقظ كان يحس الضعف الشديد وبالرغبة فى النوم مرة اخرى فنام الى الصباح ..

وفى الصباح وجد الفلاح قد خرج الى حقله .. وكانت نعيمة هناك بعيدة فى الكشك الذى على ناصية الطريق تبيع الدخان والكازوزة للعابرين ..

والفى نفسه فى الكوخ وحده .. ووجد الفرصة سانحة ليفتش كل جحر وشبر باحثا عن نقوده .. فتحرك واخذ يفتش فى كل ركن وفى كل الاشياء « فى الغلق » وفى الصندوق وفى الجراب .. وفى الطاقة .. بحث فى هذه الاشياء .. بسرعة ولهفة خشية ان يرجع الرجل أو ترجع المراة فجاة.. ولم يجد شيئا فىالغلق ولا فى الصندوق ولا فى الطاقة..فعاد الى مكانه يائسا وفيما هو يدور بعينه فىالحائط .. لمح شيئا ارتجف له قلبه..لمح شرخا حديثا فى الحائط سوى بمونة لم تجف بعد.. فانتصب وتحسس بيده قالب الطوب.. وانتزعه .. وهنا وجد الفجوة .. وقبضت يده على البنكنوت .. نقوده بعينها .. نقوده فى الربطة الجلدية التى كان واضعها فى نطاقه ..

وكبش بيديه ووضعالنقود فى صدره واحتضنها..وهو نشوان لانتصاره.. واستقبل الباب ليفر بها .

وهنا احس بطعنة خنجر حادة تنفذ فى ظهره تبعتها طعنات سريعة وسقط مرسي صريعا على الأرض فى مدخل الكوخ ..

وفى ظلام الليل .. سحب الفلاح القتيل على الرمال الناعمة حتى القاه فى البحر ..

عاشقان

بقلم : محمد ديب
ترجمة : فاروق يوسف اسكندر

محمد ديب واحد من كوكبة الكتاب الذين انصهروا فى بوتقة الكفاح من أجل تحرير الجزائر .. واستعملوا الفرنسية للتعبير عن أدب ثورى وطنى خارج نطاق الجزائر ...

وله خمس روايات ((بالفرنسية)) اولاها واشهرها جميعا ((البيت الكبير)) التى صدرت عام ١٩٥٢ ... وثانيتها فى الشهرة .. ((من ذا يذكر البحر)) ثم ((الحريق)) و ((النساجون)) و ((صيف افريقى)) وله مجموعتان من القصص القصيرة هما ((فى القهوة)) و ((بابا فكران)) وسيصدر له فى أوائل العام القادم ديوان شعر بعنوان ((الظل الحارس))

ومحمد ديب حين يمسك قلمه ليسجل مأساة عصره كما عاشها فى الجزائر يبحث عن أسلوب جديد . اذ يرى ان الاسلوب التقليدى قد يصلح للملاحم وتدوين الوثائق .. ولكنه يرى ان المهم فى الوقت الحاضر هو أن نصل الى الاسلوب الجديد الذى يجعلنا نمقت الحرب وعواقبها السيئة دون أن يحدثنا الكاتب عن احداث بشعة ويقول : ((ان البشاعة تجهل الجديد .. ولا تعرف سوى التكرار !!!))

ومازال يعيش يتابع انتصارات بلاده باسلوب رائع فى رقة أسلوب كامو ومالرو ... !

***

كان النهار ينحصر فى الشارع . وعلى امتداد الرصيف المتألق .. يتباعد بعض المارة التلائل ويتقاربون .. ومن فوقهم ترتطم مياه وسحب رقيقة تذهب السماء دون أن تطفئه .. وفيما وراء الاشجار الشامخة والبساتين الفسيحة. كانت هذه المياه وهذه السحب تغلف بالصمت منازل صغيرة تبدو مهجورة..

سارا فى بادىء الامر دون استعجال واسرعا عندما لاحظا ان الالوان الحمراء والاشعة الذهبية اكتسحت الشارع .

ومن وراء ظهرهما ، فجأة . زام الترولى باس .. حتى كاد يلمسهما . وحجب عنهما الشارع . فاندفعا . يجب الا يفوتهما . انه آخر ترولى .

وصل الترولى الى المحطة . نزل منه

الركاب . كانت نعيمة معلقة بذراع فضيل وتتراقص على كعبيها . اما هو فقد ضم كوعها الى جسده ، فى حركة تلقائية ، يساعدها على الصعود . كانت هى تضربه احيانا على وجهه بشعرها .

تحرك الترولل فى انين طويل . فقفز فضيل اولا على السلم ، وفى اندفاعه رفع نعيمة ، فاذا هى بجواره وقد تعالت ضحكاتها .

دفعتها حركة الترولى نحوه . فرفعت يديها الى الامام لتخفف من وطأة الصدمة وظلت تضحك . وقفز الترولل من جديد وامسكت نعيمة فى هذه المرة بمعصم الشاب بينما زادت سرعة الترولل .

وقعت انظارهما معا على الحقيبة التى كانت تحملها فى يدها . وهمهمت :-

— لاتخش !!

وابتسمت ثم نظرت الى جهة اخرى :

— انى لا أقوم بذلك لاول مرة ..

انتابه شعور بعرفان الجميل ، وبدا الرجال والنساء من حولهم غير مكترثين وكأنهم شهود من حجر .

كانت نعيمة تضم الحقيبة الى صدرها ، وقد اثنت ذراعها عليها .

وتوالت محطات الترولل الذى كان يتجه الى وسط المدينة . واخذ فضيل ينزلق نحو حالة من الذهول والدهشة لم يستسلم اليها تماما بفضل وجود نعيمة وطمأن نفسه قائلا : (لاخطر من ان انساق وراء ذلك) .. وتمالك نفسه وقد اصبح على حافة الهاوية .. ولكنه كان على يقين من انه سيقفز فيها — بين لحظة واخرى .

واحس فجأة ان الترولل قد توقف عن السير .. وان العالم ازداد كثافة .. انسياب الاشياء منحول فضيل يلفه فى دوامة احاطت حواسه بضباب كثيف .. انها تمهد لموجة من الدوار لن تنسحب قبل ان تجرفه .. وضم جفنيه ثم فتحهما . كان الترولل مازال يسير .. ثم قال محدثا نفسه : « لن اقول . لن اقول كل ماانتظره من الحياة، لن اقول كل مااود ان افعله .. »

كان الضوء قد انتشر وتوهج . بعض الاشجار فى الحدائق المبعثرة فى المدينة كاشجار الحور تشع بريقا . وتحوم فى المدنية بوادر حريق كبير .

وابتسم فضيل ابتسامة وداع لظلال بعيدة .. لمنزل ولامرأة عجوز .. بذل جهودا للتعرف عليهما .. فى وسط المنزل شجرة خوخ متفرعة الاغصان .. وفى ركن من الاركان كرمة تتسلق السطح . لتفرد فروعها على فناء الدار ووالداه واقفان كل على مقربة من الآخر .. وعلى بعد من الآخر ! هما !! ماذا يريدان ؟

وكأنهما ارادا الافصاح عن شيء ، اى شيء ! شيء حى يبحث عنه .. ويشعر انه يطوقه دون ان يصرفه .. ولكن لم يفتح احدهما فاه . فهل يقدما اخيرا على الكلام ؟

كان ينصت فى انتباه . ثم ادرك انهما قد تكاما . فى اى لحظة ؟ الم يفهمهاوتصلب فىمكانه وهو لا يدرى .

وهبت ريحباردة سوداء علىالعاطفة الدافئة التى اشتعلت فى نفسه .. وتلاشت الظلال ، انه لايدرى .. من اية مدينة عتيقة تركها وراءه .. أثبتت هذه الظلال . وخلفت الظلال السنة من اللهب تتراقص أمام عينيه .

كانت المدينة تتدحرج فىاتجاه البحر وتدور فى بطء حول نفسها . وتجرف

المبانى والحدائق وكانت اشجارها منتصبة كشعر القنفذ . ومن ورائها انعكاس الضوء الشاحب على الخليج . كان البحر يجمع ما تبقى من ضوء ، فى بؤرة بيضاء مركزة . وكان الدوران المستمر يجرف هذه البؤرة المتاججةالتى تتجلى بطريقة متقطعة . فما عسي يظن والده به وبنعيمه . فهما لم يتعودا رؤيتهما معا ترى هل يفهمانه ؟

وعلىكل فكيف نؤاخذهما علىذلك ؟ انهما لايعرفان الطريق الذى يسلكه الابناء على مراى منهما ..

وضحك فضيل لهذه الفكرة ..

وبادلته نعيمة الضحك ..

وارتشعت من فوقها .. سماء سبتمبر .. وكانت شديدة الصفاء والاكتمال .

وخصته بابتسامة . لقد عاوده شروده .. ومن جديد واجهت رجلا مجهولا لها .. وفجأة واجهت فى قلق لغزا عاريا .. ومنجديد انتصب امامها الرجل الأعزل .. واكتشفت فى نفسها مشاعر خوف مبهم وافكار متلعثمة .. وكانما تحركت حركة غير موفقة فضلت فى تيه..تعذرت عليها الرؤية واخذت تتحسس طريقها ..

هذا الرجل الضائع ليس هو فضيل لقد تمت عملية الاستبدال فى لمح البصر فلم تلحظها حال وقوعها ..

وظلت منكمشة فىهذا التيه لاتعرف فى اية جهة تبحث .. لقد ارتبكت لتصرفه .. واخذت تفكر فى حذر .. فسألت نفسها :

« ترى من ذا الذى ينقذه ؟ من ذا يوجه المأساة ؟ انا ؟ انا ؟ لسوف اكتشف حقيقة نفسه .. فلنمش جنبا الى جنب لاكتشف حقيقة نفسه ..

وفكرت .. ترى هل تطلعه على خواطرها ؟ لا .. لقد قدرت مدى مجازفتها ان هى اقدمت على ذلك ، فامتنعت عنالكلام . لسوف تبلغه ذلك عند انتهاء المهمة الموكولة اليهما ..

كانت فى الوقت نفسه تفهم وترفض ان تفهم !! ليست العزلة وحدها سبب هذه الثغرة المثقوبة فى فؤاده انما سحر التضحية الفطرى ، من أسبابها. ايضا لسوف تنجح هى بفضل حبها له فى تحطيم المرآة المعتمة حيث يتأمل فضيل نفسه .. ولن يصرفههذا الشيء عنها .

قالت لنفسها « .. هل سيرى احدنا الآخر بعد مرور هذه اللحظة .. بعد مرور هذا اليوم ؟ ربما لن نتقابل ابدا بعد اليوم . »

وترنحت نظراتها وشردت ولم تلتق داخل التروللى سوى بوجوه مغلقة . وجوه من صوان : رجال ونساء تنتقل على وجوههم نفس التعبيرات المتآكلة. وتقفز من واحد الى آخر .. وجوه كلها منطفئة .. لا تعبر الا عن الخوف من الموت او عن رغبة أصحابها الكامنة فى القتل.وانتهزت نعيمة فرصةاحدى رجات الترولى .فاقتربت من فضيل لتحتمى من البرد الذى تشعه اشباه هذه الوجوه التى تحاكى الاقنعة وارتعش كل بدنها وفى نفسالوقت تلاشت الروعة التى امتلأ بها الجو والبحر والمدينة .. واصبحالجو باهتا رماديا . واخذالعالم يتساقط فى رماد المساء .

كان فضيل يراقبالركاب الآخرين . فرأى فيهم تماثيل محترقة .. القت بها كارثة الفسق .. وكانت كل التماثيل صامتة .. لقد قالت : « عما قريب »

نظر الى رقم ساعته الاوحد . لن ينقضي طويل وقت قبل ان يصل عقربا

الساعة اليه .. وانقى بحسرة على نعيمة ..

ورفعت هى ايضا عينيها نحوه .. وضغطت اصابعها المسحوبة على ذراعه بكل قوة .

وارتسمت شبه ابتسامة على وجه فضيل . انفرجت لها ملامحه . وكان ذلك كافيا .. لتكتشف نعيمة فيه وجه الغلام الكبير الذى عرفته فى كلية الحقوق بالجامعة .. وانتابتها رعشة جديدة .. وتصلبت .. وحاولت النطق بأية كلمات طرات على بالها .. قالت :

— انحن ذاهبان الى هناك ؟ .

فمال عليها واجاب :

نعم .. نحن ذاهبان ..

وعندما فرمل التروللى تأرجحت كتلته المندفعة ونزل بعض الركاب . ونزل ايضا فضيل ونعيمة ..

كان يبدو ان احدهما لا يكترث بالآخر او يعرفه . كانت نعيمة تتعقب فضيل من على بعد ، مراعية الا يتوه عن بصرها ..

وشق فضيل طريقه وسط الزحام وسبقها . ومشت وراءه نعيمة . وبدد مشيتها وشعورها بالارض الصلبة تحت قدميها ما يشبه الضباب فى نفسها .

وكان الليل قد اطبق على الجزء الاكبر من المدينة . ولكن واجهات المحلات التى افلتتت من الدمار بمعجزة لا نعرفها .. سطعت متألقة فحددت الاضواء معالم الشوارع بأكملها . او ما يشبه الشوارع وعربات الترام والسيارات التى اوصدت ابوابها على ما فيها من الركاب . التقطت هذه الاضواء فى لمح البصر .

كانت المصابيح وحروف النيون المرتشعة تحترق لموت المدينة . والمارة انفسهم فقدوا تماسكهم اكثر واكثر . وكانهم ظلال او اشباه دمى . اخذت تتداخل وتتكاثر وتتنافر بطريقة آلية . كانوا شاردين ومع ذلك فقد دبت فيهم حياة رهيبة ..

وهبطت على فضيل راحة نفسية خفية واقتنع لحظة انه يستطيع اذا ما اراد . ان يسير مغمض العينين فى حركة آلية وسط هذه الجموع الكاذبة وترك نفسه للتيار يحمله . ومر باشكال غير واضحة وواجهات صماء ومرايا ضخمة وكانه لا يحتاج الى ان يفكر او يرى ..

وكانت نعيمة لا تزال تتعقبه . من بعد .. ظلال واضواء منكسرة ، ثم ظلال وانفجارات وكرات من نار . تجول وتدور . وكلما اقترب من (فندق البريد) ازدادت الجماهير والمدينة كثافة . وخضع فضيل لقواها المتعددة . تجذبه وتدفعه .. وتسلل فضيل اليها وكانه جسم غريب .. وعانى من مقاومات غامضة معقدة . ارادت ابعاده عن الطريق .. وسأل نفسه قائلا :

— « ترى هل تتمكن نعيمة من تعقبى ؟ »

وكات هذه الفكرة هى الدفة التى توجهه والنور الذى يقصده ... انه لايستطيع ان يلتفت الى الوراء .. يجب ان تظل انظاره ثابتة امامه .. وثبتت خواطره حول هذه الفكرة

وخطر بباله ان يلقى نظرة الى ساعته لاداعى للاستعجال او الالتفات .. فبمجرد ان فارق نعيمة أخذت المدينة المفترسة تطوقه . وهوى فى الفراغ المتعطش المتربص لكل انسان اعزل . وتقلب فيه .

بحر معتم من البشر فى كل خطوة

يخدوعا . تطلع وجوه الناس كالاقنعة يجرفها تيار لا يقهر . وكان المستحيل التقاط تعبيراتها او تبادل النظرات معها كانت اقنعة متداخلة فى تكرار لا يتبدل تحجرت وعيونها مفتوحة كانت الوجوه غرقى فى الشارع .. وحدث نفسه قائلا اية رحلة هذه التى اقدمت عليها ؟ .. وكانت وجوه النســـاء تتجلى من وقت لوقت من هذا البحر المتلاطم وتبقى على السطح فترة أطول . وجوه نســـاء جميــلات ذات ملامح صارمة ، اخذت تراقب فضيل فى اصرار .. ثم انتهى بهـــا الامر الى الزوال كالاخريات ، كل الاخريات واحتفظ فضيل لحظة بهذه الرؤية العابرة . من اين اتت هـــــذه الوجوه القاسية أو الرقيقة ذات العيون البراقة الجامدة التى لاتتجاوب مع شيء . الى اين تتجه ومن اى منبع اتت . وهيجت فيه هذه الوجوه جرحا ينزف دما دون ان ينفتح ..

كانت نعيمة لا تزال تتعقبه ..

وكانت عربات الترام المضـــاءة من الداخل تمزق المدينة بصريرها الحاد . وتوافدت العـــربات فى حركة متزايدة ومتقطعة . وخرجت من الليل دون توقف دافعة كل شيء امامها . والمارة ملتصقون بواجهات المحلات فوق الارصفة المزدحمة ولم يتلق فضـــــيل من هؤلاء الرجال والنساء سوى انطباعات مشـــــوهة لرؤوس لاعيون ولا ملامح لها ، كتلك الرؤوس التى نراها فى الاحلام . ودفع المارة على عجـــــل فخففوا مشقته . وحرروا جسده من جهد المشي ، فاخذ يفكر فى دقة ووضوح .

وقال لنفسه : حتى النهاية . سنذهب حتى النهـــاية .. حتى آخر جذوة من النار المتأججة فى نفوسنا .

وتوقف ، لقد وصل الى المكان المعين وانتظر .

لم ينتظر طويلا ، فقد لحقت به نعيمة كانت تنتظر بعيدا . وفتحت الحقيبة . وخطت خطوة . واصطدمت بالشـــاب وكأنها لا تراه . ودست فى يده السلاح واحس فضيل ببرودته فى يده . وطواه فى الحال فى جيب سترته الايسر ، من الداخل ، على قلبه . واستدارت نعيمة فى حركة آلية وواصلت سيرها وكان جسدها كله يراقب الناس من حولها . لا احد يقتفى أثرها . وتوقفت فجـــأة وكأنها تذكرت شيئا . وعادت من حيث اتت تراقب المارة بطرف عينها . وكان قلبها يضرب ضربات قوية . يجب ان تظل هادئة طبيعية . مســـــيطرة على نفسها . وتحرك فى اتجاهها . وتعرف عليها وسط الزحام . واخـــذت تردد : « يجب الا اراه . وجوده لايعنى اكثر من وجـــود اى انســــــان آخـــر فى الشـــارع ... » . ثم واجه كل منهمـــا الآخر فى لحظات . يجب الا تخطئه.. خطوة ثم خطوتان . ثم ثلاث خطوات وارتبكت فلم تعرف من اين تمـــر على يمينه ام على يساره . وهو ايضا ارتبك ولم يعرف .

ــ معذرة يا سيدى .

ــ معذرة .

ومرت بعد ان ســـــــلمته القنبلتين اليدويتين وعبرت الى الرصيف الآخر . وواصل هو ســـــيره . وجرت بسرعة . سلكت شارعا جانبيا . لتلتقى به فى هذه المـــرة لامن الخلف بل من الامام . وفى مكان يبعد عن الحـــانة التى تنتظر القنابل .

ودون وعى منه وبفعل تلقائى اخذ يعد خطواته . خطـــوة ، خطوتان .. ثلاث خطوات.وكأنه قذيفة طائرة ذات سرعة تجهل الزمن . وقال من اعماقه دون توقف .. خطـــــوة .. خطوتان « ثلاث » .. اربع . هنا لقد وصل . واحد . اثنان . ثلاثة .. وانتزع صمام القنبلة الأولى . وقذفها .. اربعة .. القنبلة الثانية .. انفجرت الاولى .. خمسة .. ســتة . وارتفعت اصوات المرايا المتناثرة صراخ . عويل . سبعة ضجيج . ارتج الشارع منضغط الهواء ثمانية . تسعة .. سباق .. سباق جنونى ، قذف بالناس فى كل اتجــاه ومضي يعد : عشرة .. احدىعشرة.. وابتلعت الناس مداخل المحلات والبيوت والممرات وقد اصبحت مخابىء من صنع العناية الالهية ..

وبقى الشارع خاليا .. خاليا تماما الى مسافة بعيدة .. توقفت الحيــــاة وتوقفت حركة المــــرور .. والحانة وســطها متأجج : دماء . ومرايا مهشمة وارتفعت صيحات استنجاد وصرخات احتضار . ولكن سرعان ما صمتت هذه الاصوات . وهوى على الدائرة المندثرة صمت عنيف .

ومن خلال صمت لا يفنى تأرجـــح الفضاء المرصع بآلاف الاضـــواء . من طرف الى الآخر . وكان قلب المدينة قد تهشم .

وانصرف فضيل وهو يترنح .

وبعد فترة . فترةطويلة جدا . دوى صوت عيار نارى اعزل . وقفة قصيرة ثم دوت اعيرة اخرى . وطرقت الليل طلقات اخرى من مدفع رشـــــاش . واخترقت الليل فى مكان ما مجموعة من الصفارات . واقترب من جميع الطرق صفير عربات الحرب .

وفى حركة ارتداد عنيفـــة . اخذت الجماهير تعود الى الحانة . وصـــوب بعض المتعصـــبين المخبولين مسدساتهم واطلقوا نيرانهـــا . وذقونهم مشدودة الى الامام . جماعات صاخبة . ونساء تبكى بانفعـــال شديد .. وقام بعض رجال الامن والجنود وجنـــود المظلات بتطويق جميعالمنافذ . ومن الامام ، ومن الخاف ، وفى كل الشـــوارع الجانبية ، صفارات عربات الجيـــب لا تكف عن العويل انهـــا تحمل نجدات وطوقهم الحصار وضـــاق . وتقبل الناس الأمر عن طيب خاطر .

بلغ فضيل الرصيف الاخر ضـــمن الجماهير الهــــاربة ، عاد الى الوراء وجرى لمسافة بضــــعة امتار . ثم دار حول ناصيةالشارع المجاور ذات الزاوية الحادة . ووصــــل الى مفترق طرق . واكتشف نعيمة على مســـافة قصيرة . وتنهد وتباطا ومشي مشيـــا طبيعيا . وتعقبها ونظراته مثبتة عليها . ونسي كل شيء .

بين حين وحين ، كان يشعر بضرورة بذل جهد لوضع قدم امام الآخر : وانتابه خمول عام . ولكنه لم يتـــألم . واثقل بدنه ضيق ســــخيف . واخذ يتقدم بصعوبة متزايدة . كان يجد مشقة فى تخليص نعلى حـــذائه من الارض التى يمشي عليها وكأنهـــا صارت قطنا . وتحول الجو الىجليد وفىنهاية الطريق بدا امامه لهيب مضيء يتراقص : انهـــا نعيمة .. الهواء من حولها متوهج .. فهـــل يجد فى نفسه القوة ليقـــترب منها ؟ امر لا بد منه .. لا بد من المشي . لا بد من المشي خطوة . ثم خطوة اخرى

من اى جهة عساه يلحق بها ! .. كانت تنتظره لا تتحرك .. ثم غيرت مكانها فى بطء وابتسمت فضلا عن ذلك .. كانت تقترب احيانا من سلم الزمان وتبتعد منه احيانا اخرى . وود لو استطاع ان يصيح بكل قواه :

— « يا نعيمة !! »

ولكنه عدل عن ذلك واندلعت النيران كأنها نهار جديد نشر بياضه حول المدينة المذهولة والليل المتواصل ، وتألق النهار القاتل دون أصداء . فى غير وضوح . وترنح فضيل . واستند الى جدار ومال الى الامام جاحظ العينين .. ثم توقف لاهثا . وتأمل نعيمة .. فرآها واقفة فى حديقة ملاء واسعة فى طرف الشارع وقد احاط بها اللهب .. وانتشرت النيران ..

وارتجف .. اراد مواصلة سيره والالحاق بها ايا كان الثمن . ورفضت ساقاه ان تحمله فى هذه المرة ..

فاغمض عينيه . وظل مغروسا فى مكانه يتمايل متحيرا . وقد نسي الوقت الذى يمر ثم حرك قدميه وحاول رفعهما وعاد يمشي فى اتجاه نعيمة واخذ جسده يذوب وينساب والظلال تفترسه فتخفف من وزنه . واخذت المسافة التى تفصل بينه وبين نعيمة تتضاءل .. وانشق الفضاء من تلقاء نفسه .. وفى واجهة محل قبعات متوهجة انتصبت دمية خشبية واحدة شبه عارية ..

واخذت الدمية الخشبية تراقب قدومه الى ما لا نهاية ... يا للخبل !! وادرك فضيل ما حدث له..لم يخف ولم يصرخ .

كان لا يتألم . انه لايهتم ولا يستطيع الاهتمام بغير هذا الضوء الذى يقسمه جزءين ..

كان لا يزال يستند الى نفس الحائط ويراقب الدمية الخشبية وخاف ان يخطو خطوة واحدة . فتسقط الدمية على وجهها .. خواطر .. خواطر لا آخر لها .. تسير على غير هدى .. فى بطء يدفع الى الهذيان وقد تحالفت وطوقته الخواطر .. وطوقته المدينة باسوار دائرية .. اهذا هو الموت ؟

وهمس فى اذنه صوت نعيمة قائلا :

— فضيل .. ماذا بك ؟

ووصلت الفتاة من خلفه ، لا من امامه « اهى النهاية » لم يرها وهى عائدة. وظن انه سيقع .. انه سيقع فى الحال .. ولم يقع .. واندهش :

— لقد اصبت .

ظن انه نطق بهذه الكلمات .

وكتمت نعيمة صرخة .

— ماذا بك ؟

وشهق فى صوت عال :

— لقد اصبت .. خذى وانصرفى .

— ماذا آخذ .

— السلاح..السلاح الذى احمله .

— لا !!

— خذى وانصرفى . ارجوك .

— لا !! اسمع !

— خذى .

وكتمت نعيمة اضطرابها . وتغلبت على الضعف الذى نهش ساقيها . ووقفت الى جانبه كتفا الى كتف .

وقالت متوسلة فى نفس واحد :

« اسمع . ضع ذراعك هنا على . (وامسكت) استند الى . امش معى .. نحن عاشقان ..

ومشي معها . وارخت المدينة اغلالها من حولهما بعد ان بدت لحظة وكانها تزيد احكام تطويقهما . وامتدت الشوارع هادئة فى شبه البراءة ..

وسارا فى بطء . وقد احاطها بذراعه واسندته هى عند خصره .. كان لايرى سببا للمشي ولا يعرف لهما غاية . لا شيء ولا احد فى اى مكان ينتظرهما. فالى أين مسيرهما ؟ ولكن ماأهمية ذلك؟ لقد عادت نعيمة ، ودعته للمشي وهو لا يحفل بشيء غير ذلك .

العشاق لايسرعون ابدا . كان المارة قليلين يدبون فى خفة ... وتصاعدت من خلفهما ضوضاء . يخترقها دوى طلقات نارية .. وواصلا سيرهما دون ان يهتما بشيء وكأن ذلك لا يعنيهما .

وفجأة ، سبقتهما سيارة حربية .. وانتشر الجنود . وافراد قوات الامن فى الشارع . وايقنت نعيمة ان التهديد يلاحقهما . فالى متى يستطيعان السير دون اثارة الظنون ؟

والتقيا بسيارة محملة بجنود المظلات . واخذ الجنود يتفكهون بهما..

ودارت نعيمة الى اليمين دون ان تغير الرصيف .. وتوقفت وقد انهكها مابذلته من جهد . واسندت فضيل الى واجهة منزل .. والتصقت به وداعبته . هكذا يمكنها ان تستريح قليلا على حين تنتظر ان تقلحركة العربات .

والآن اين نذهب ؟ .. فى اى اتجاه ؟

هى وحدها تعرف ذلك . هى وحدها ستخرجه وتخرج نفسها من هذا المازق. ومالت على فضيل تحدثه وتسأله فلم تهتد الى سؤال واحد . وايقنت الا جدوى من كل ذلك . كانت راسه مدلاة على صدره . ولا يسمح له اى صوت.. وخيل اليها انه فقد وعيه .

وبعد فترة بسحبته . وعبرت الطريق واستقبلتهماحارة معتمة تؤدى الى الميناء والى الامان اذا لازمهما الحظ . وامتلأت نعيمة اطمئنانا بلغ حد الفرح تقريبا . ويبدو ان فضيل عاد اليه وعيه واخذ يتأوه فى عمق ... عربات الجيب تجول فى اصرار عبر الشوارع المجاورة .. ان رجال البوليس يبحثون انهم لم يبحثوا بعد بالقدر الكافى .

وفى هذه اللحظة رات نعيمة دورية تقترب فى بطء وحذر . وارتمت هى وفضيل نحو باب مغلق واسندته الى احد مصراعيه عند ركن الباب . ودنت الدورية منهما وأمسكت الفتاة راس رفيقها بين يديها ، وجذبت وجهه نحو وجهها وهمست فى انفعال شديد :

ـــ قبلنى يا حبيبى .. قبلنى . انظر الى انظر !!!

ووضعت شفتيها على شفتى الفتى. ولكن شفتيه لم تشعرا بشيء . وضغطت عليهما ففتح عينيه قليلا وكأنه لم يتعرف عليها . ولكن ادركتها بعد لحظة اجابة خافتة ، جاءت من بعيد ، من شفتى الفتى وبلغ مسامعها شيء أشبه بالهمس ، شيء ارتبكت له واضطربت بينما كان الهمس يغوص فى صدرها .

وقالت لاهثة :

ـــ « انى لك !! »

وتنحنح احد جنود الدورية :

ـــ احم .. احم .. !!

وقلده الآخرون وفى صوت واحد :

ـــ احم .. احم !!

واحتكوا بهما ، ثم ذابوا فى الليل ولم يبق منهم فى النهاية سوى ظلال

[illegible] متعجب .. لم يسمعوا طرقات قلبها القوية ! واختفى فجاة كل شعور بالخوف وتلاشي . لقد زال كل خطر !!

وحاول ان يسكتهما صوت جاءهما من الطابق الثانى فى احد المنازل :

ـــ ايها العاشقان اهذا وقت مناسب للقبلات ؟ هذا امر مبالغ فيه . انصرفا من هنا !!

وانصرفا فى هدوء ..

مشيا بعض الوقت . كانت نعيمة لاتدرى أين تذهب . فقد كان من المستحيل التوجه الى المخبا المتفق عليه. واخذ جسد فضيل يتثاقل مع مرور كل لحظة . وبذلت مافى وسعها لتمنعه من السقوط . ان ساقيها ترتعشان . ولو استمر ذلك لانحنت ركبتاها .

وقالت فى صوت منخفض :

ـــ يافضيل .. الا تستطيع المشي ؟

ولم يجب بشيء .

ـــ لم لاتحاول ان تخطو قليلا .

وتنهد الفتى تنهيدة طويلة ..

واضطرت الى التوقف عن السير . كان يبدو لها انها تسحب جسدا منهك القوى . جسدا بدون حياة . فكيف تسير به ؟ هل هذا ممكن فى تلك الظروف ؟

وتدبرت الامر لحظة . وتمالكت نفسها وتغلبت على ضعفها وعادت الى المشي . وقررت من الآن الا تلاحظ تصرفاتها أو تراقبها . فالابواب كلها موصدة والنوافذ مغلقة .. وكانت انفاسها المتمردة ترتطم فى صدرها وتلهب رئتيها . وتقدمت وهى تراقب فى شراسة الشارع من حولها . وبلغت قمة منحدر يصل مباشرة الى الميناء . انه خال تماما . والمكان موحش . وكأنهما خارج العالم . ورطوبة الليل مشبعه برائحه السمك والقطران والمازوت القوية المنبعثة من البحر الخفى .. وفى أماكن متباعدة .. تخترق الظلام دون ان تضيئه مصابيح مرتفعةمغروسة على مسافات منتظمة.. كانت ترسم عبر الشارع طريقا وهميا. تتغامز فيه فتايل مشتعلة لا آخر لها .. وتاملت نعيمة الشرار الغارق فى ضباب البحر. وادركت مدى عزلتها الشاسعة.

كبتت يأسها ، ولم تتردد طويلا ، وقررت مواصلة السير قدما على امتداد المنحدر . فربما إكتشفت فى اسفل الطريق ، فى أعماق المخازن السوداء ركنا امينا تتوارى فيه فى انتظار الصباح .

واهتزت الارض فى هذه اللحظة وظهر من فوقهما قطار مصحوب بصفير لاينتهى وتلاشت كل هذه المناظر غير الواضحة بما تشمله من عمارات وقطع ارض مهجورة وارصفة وحواجز بحرية. وتسربت عربات القافلة واحدة واحدة. واختفى القطار في ممر معتم . ولم يبق منه سوى بريق تعرجات الخطوط الحديدية الغامضة .. وارتكزت على السور واسندت فضيل بيدها اليمنى واخذت تهبط المنحدر فى خطوات قصيرة .

لم تسر اكثر من عشرين مترا واذا بكشاف مسرع جاء يلتقى بهما واسقط اشعته عليهما وتسلطت فى سرعة مذهلة .. عين ضخمة مثبتة فى الهواء. وكانهاتقرا فى صفحة الغيب ..ضوءها متوحش يحترق فى شبه هذيان . ضوءا ابتلع المدينة كلها ، وابتلع الليل كله ..

وظنت نعيمة ان هناك من يصيح :

ـــ ابرزا البطاقة الشخصية !

ولكن لم يكن هناك عيون غير هذه العين ترشقهما بشعاعها المتحجر !!!

الملف الكبير

متولى

بقلم : راشد رستم

أراد (رافيك) ان يقضى عطلتـه فى أحد المشاتى الجبلية الهادئة استمتاعا بالهواء الجاف النقى ، وطلبا لنشاط المرتفعات ، وهربا من خمول المنخفضات وبعدا عن ضوضاء المشاتى الصاخبة وما فيها من متاعب الملاهى وتصنعات المجتمعات ·

اختار بلدة صغيرة فى جبال سويسرا ، لايرتادها الا القليل ولا يقصدها الا من ينشد الراحة والهدوء والاستجمام ، وقد ارشدته اليها آنسة سويسرية تعمل فى احدى المكتبات الكبيرة الشهيرة فى باريس حيث يقيم رافيك دارسا متفقها متثقفا ·

وهذه المكتبة تقع فى أول شارع البواكى الشهير ـ ريفولى ـ من ناحية ميدان (الكونكورد) أوسع ميادين العالم حيث تقوم فى وسطه مسلة فرعون المصرية بقامتها المديدة عدة الآلاف من السنين ، وهى تقف تجاه قوس النصر النابليونى بميدان الاتوال (النجمة) عند الطرف الآخر فى طريق (الشانزلزيه) أجمل وأطول شوارع المدن فى العالم ، والفرق بينهما فى المسافة بضعة أميال ·· واما الفرق فى الزمن فعدة الآلاف من الاجيال ·

وشارع البواكى هذا (ريفولى) من اشهر شوارع العالم ، واما تلك البواكى فهى التى تحنو على افخم وأغلى الحوانيت ذات الوجهات المملوءة بأنفس الحاجيات ، يتمتع بما هدتها من لا يستطيع شراءها! وهذه البواكى من جهة واحدة · أما الجهة الاخرى من الشارع الشديد الزحام فتوجد على امتداده الطويل حدائق (التويلرى) الجميلة ثم متحف (اللوفر) العظيم حتى تصل الى ميدان البلدية الواسع الفسيح · وهناك ترى عدة تماثيل لبعض الاسود من السباع فى وضع جميل ووقفة ذات هيبة وجلال · وهى بالحجم الطبيعى مما يزيدها حسنا وجمالا ·

عرف رافيك الآنسة سوزان من كثرة تردده على هذه المكتبة الامريكية الكبيرة ، طلبا للكتب ولان بها صالونا ملحقا بها تابعا لها · صغيرا ولكنه هادىء جميل التنسيق ، يتناول فيه الشاى من يريد من المترددين على المكتبة وممن هم على شاكلتهم ممن يريدون تصفح الكتب قبل شرائها · وهى فكرة تثقيفية طريفة كما انها تتيح التعارف بين الادباء والمثقفين من مختلف الشعوب اذ ان هذه المكتبة تبيع الكتب بجميع اللغات ·

والآنسة سوزان شابة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، داكنة الشعر ، بيضاء البشرة ناعمتها ، وهى بالرغم من انها سويسرية المانية فهى نحيفة ، ممشوقة القوام ، رشيقة الهندام ، حلوة القسمات ، عاطفية الشفتين ، هادئة العينين ، لطيفة أنيقة ، قليلة الكلام (مع انها تتكلم خمس لغات ! ..) بادية التفكير ، صحيحة التعبير ، فى نبرات صوتها الواضح وفى ملامح وجهها الصبوح دلالات حزن كمين ، وكآبة مستورة ، رغم اشراقاتها ودعاباتها وابتساماتها ، يزين هذا كله ما فى طبيعتها من دعة ورقة واحتشام ٠

هى كثيرة القراءة ، واسعة الاطلاع رغم ضياع اكثر وقتها فى المكتبة ٠

– وكيف ومتى اذن تقرئين ؟

– ان القراءة تريحنى وترضينى ٠

– ولكن من اين لك الوقت الذى يكفى للقراءة .. وللتسلية ؟

– ان القراءة هى تسليتى ٠

– القراءة تسليتك ؟!

– نعم انها تسليتى ٠

– وما هو اذن الذى ليس تسليتك ؟ !

– هو عملى ٠

– غريبة ! ٠

– لا غريبة ولا غرابة ٠ الامر بسيط ان عملى فى المكتبة هو مورد رزقى ، واما القراءة والاطلاع فهى حياتى وراحتى ومتعتى ٠

– (متأثرا فى دهشة ..) والرياضة والاستروائح والفسح و .. و .. والشباب ؟!

– المسألة مسألة مزاج ٠ على انى لا أحرم نفسى من ذلك ٠ وهنا فى فرنسا أماكن وبقاع ومناطق كثيرة جديرة بالزيارة وتمضية أوقات لطيفة ٠

– أين وكيف ؟

– يلوح لى انك حديث عهد بهذه البلاد ٠

– نعم ٠ انها بضعة شهور وبودى ان اعرف كل شىء عن باريس وعن معالم فرنسا ومشاتيها ومصايفها ٠ وقد سمعت عنها الكثير كما انى أحب الرحلات والاسفار والتنقلات ، ولكنى لا أجد الرفيق .. وهو أهم من الطريق ٠

– هذا حق ٠ ومع ذلك فقد تستطيع زيارة هذه المعالم والأماكن فى أوقاتها وستجد جماعات وجماعات من الزائرين والزائرات من جميع الجهات .. ان معالم فرنسا عظيمة وذات أهمية كبيرة ٠ وقد احتفظت الامة الفرنسية رغم ثورتها العصماء الهوجاء بهذه المعالم الثمينة كما عنيت الحكومات والبلديات على اختلاف نزعاتها عناية فائقة واعتبرتها من تراث الامة العريقة ذات التاريخ القديم ٠ كما ان لهم فيها مغانم كثيرة .. وهذا عين الصواب ٠

– عندنا بالكلية كثيرا ما أرى إعلانات من جماعة من الطلاب عن رحلات وزيارات يرأسها أستاذ أو شخص متخصص ٠ ولكنى لم أجرأ على الانضمام وان كنت أرغب فيه ٠ وذلك لانى أشعر ، مخطئا أو مصيبا ٠ بان الفرنسيين عامة يفضلون أنفسهم ولا يرحبون بالغريب بينهم .. غير انى رأيت أن بعضا ممن هم مثلى من الاغراب أجرأ منى يشجعوننى على الانضمام الى رحلات وزيارات تلك الجماعات .. فما رأيك ٠

– رأيى ان تنضم وان تذهب معهم حيث يذهبون ٠ وأن شئت ألا تفعل مثل ما يفعلون ٠ فلا تفعل واحتفظ بشخصيتك .. وانما كن معهم ٠

ـ وهـل قمت بهـذه الزيارات والرحلات ؟

ـ نعم ـ عن طريق شركات السياحة، وهى تتـكون عادة من جمـاعات من السائحين والسـائحات من مختلف الجنسيات ، يقـوم عليهم دليل متمرن متعلم مهذب يتكلم عدة لغات ٠

ـ سأفعل مثل ماتفعلين ٠٠ بلخذيني رفيقا لك عندما تذهبين ٠

ـ لا ٠ الافضل لك ذهابكمع زملائك طالما كان ذلك باشراف الـكلية ٠٠ ان المخالطة ضرورية للاغراب ٠ ولـكن لابد فيها منالتحفظ ، (اجتمع بغيرك واحتفظ بنفسك) انها القاعدة الذهبيـــة التى استرشدت بها فى اجتماعاتي وجولاتي بل فى جميع اطوار حياتي ، اتخذتهـا نبراسا وقد وضعـتها انا لنفسى وهى بالطبع لم تحرمنى أبدا من المشـاركة والاجتماع ٠ مع الاحتفاظ بما اعتقد ان الله خصنى من كريم الطباع ٠٠ وبمـا نشات عليها ٠

كانت المدموازيل سوزان تعطف على رافيك لانها تراه غريبا مثلها ، والغريب للغريب نسيب ـ هو من بلاد الشمال وهى من بلاد الجبال ٠٠ وهى ترى فى ميله الى الكتب عن الادب والاجتمـاع والفن دلالاتعلىأخلاقه الهادئة واتجاهاته الانسانية ٠ وقد استصدرت له اذنا من مدير المكتبة بالاستعارة (وهى مسـألة نادرة) وبذلك اذا أعجبه الكتاب اقتناه أو اكتفى بالاطلاع وله حق اعادته ٠ كما جعلت له خصما من ثمن الـكتاب الذى يشتريه ٠

وكثيرا ما كانت تصرح له فىمناسبات كثيرة بأنها جد سعيدة لتوفيقها الى العمل فى هذه المكتبة الكبيرة ٠ اذ أنها تحب الكتب حتى ان منظرها ليسبيها٠٠ فضلا عن أن معاشرة الـكتب ، هـؤلاء الاصدقاء الاوفياء ، تضـفى على المرء الصفات الرفيعة والميول الهادئة والآفاق الواسعة والآمال الكبيرة ٠

هكذا كانت صلات سوزان ورافيـك وأحاديثهما ، تعاطف وصداقة وتقدير ٠ تزداد بينهما مع الايام ، يشعرُ رافيـك بأنها تريحه وترتاح اليه ، فهى توصيه دائما عند ذهابه من عندها أن يعـــود اليها وألا يطيل الغياب عنها ، وهو من جهته اذا كانت له جولات اخرى بالمدينة فانه يعمل على ان يراها قبل ان يعـود الى بيته ٠٠

غير انه لما أراد يوما أن يدعوهـا الى سهرةفى الأوبرا أو لسماع الموسيقى فى احدى صالاتها الشهيرة وما الى ذلك من أنواع التسلية الراقية ذات الزمالة الرشيقة الفاضـلة ، اعتذرت ، فظن رافيك وهو المرهف الحس ، انها لاترضى عن ذلك وان كان غيرها يتسقط عليه فلم يكرر الدعـوة محافظة منـه على شعورها ٠ وهكذا كانت تمر الأيام دون أن يلتقيا خارج المكتبة أبدا ٠

وعندما حان وقت السفر الى المشـتى ذهب رافيك الى سوزان لتوديعها ٠

ـ أمسافر اذن أنت حقا ؟

ـ أكنت تشكين فى ذلك ؟ ٠

ـ لا ٠ ولكن ٠٠

ـ ولكن ماذا ؟!

ثم سكتت وسرحت ٠ وكأنها تريد ان تقول شيئا ولكنها لم تقل ، فقال هـو وجعل كانه لم يلحظ عليها شيئا ٠ قالـ ان له أصولافى الجبال فهو يحبها ويحب أهلها ويحب من يسكنها ويحبمن يحبها ٠٠ وان له تشوقا قديما الى سـويسرا اشهر بلاد الجبال ٠

فقضى زائيك أيامه سهلة هادئة فى رفقة الجبل ذى الجو النقى النظيف مع أسلم وسط للريف ٠ وتلك التيجان البيضاء من الثلج القائم الدائم على رؤوس القمم الشامخات ، وهذه الخضرة فى الحقول والوديان ، والجداول تنحدر من بين الصخور تجرى فى الغابات بين الاشجار وفى العراء ، لامعة دافقة ، بتموجاتها الصافيات المتلاحقات ، وكأنها الفتيات الكاعبات الناعمات اللاعبات المتسابقات ٠٠ من أين والى أين ؟ سبحان الخلاق ٠٠ وهو علام الغيوب ٠



وقد تراسل رافيك مع سوزان عدة رسائل رقيقة ملأى بالمشاعر الطيبة المتبادلة ، وقد لحظ انه لم يكن يسمع منها مثل ما تحمله رسائلها اليه من عذب الاحاديث المتنوعة ٠

وقد علل رافيك رسائل سوزان اليه بأن من الناس من يكتب بالحرف مالا يجرأ قوله باللسان ، كما أن منهم من يجهر بالسر مكتوبا دون التلميح عنه أو الهمس به منطوقا ٠٠ ثم اتاح لنفسه الظن الذى يرضيه ٠ ذلك بانه قد لايكون لسوزان من تكتب اليه ٠٠ حتى اذا جاءتها فرصة الكتابة الى رافيك جعلت تكتب وتكتب ٠٠ وكانها تبرر ذلك بأنها تكتب اليه « لانها تريد أن تؤنسه فى غربته لعلمها بانه وحيد فى عطلته ولا رفيق له فى جولته ٠٠ » كما تقول ٠

عاد رافيك الى باريس من مشتاه فاسرع لملاقاة سوزان فاذا بهما يبتهجان ابتهاجا وديا عاطفيا ولكن فى حدود المكتبة ٠٠ غير انه وجدها ضعيفة نحيفة فافهمته انها وعكة بسيطة ستزول قريبا ٠

بدأت الحياة والحركة تدب فى كل المجالات ، ونشط رافيك فى دراسته نشاطا كبيرا وخصص اغلب وقته للمذاكرة والدرس ولكن بعد قليل اخذ يستلم من مكتب البريد القريب من الكلية رسالة اسبوعية مكتوبة على الآلة الكاتبة موجهة اليه من « زميلة بالكلية » لا تضع اسمها ٠ وكل رسالة عبارة عن برنامج تفصيلى عما يجب ان يتبعه لكى يستفيد من ايام الاسبوع ثقافيا واجتماعيا ، خارج الكلية ـ مواعيد محاضرات ومسرحيات أوبرات ومعارض فنية ومتاحف وموسيقى وسيناماهات وما الى ذلك من مجالات النشاط الثقافى والاجتماعى فى مدينه النور العظيمه ٠ مع شرح لكل بند من البرنامج الاسبوعى بكل التفصيلات الدقيقة الصحيحة ٠٠ وقد ظن رافيك اول الامر ان هذا البرنامج عام لكل طالب بالكلية من باب الارشاد ٠وان عليه ان يدفع عنه اشتراكا ماليا ٠ ولكن تبين ان الامر ليس كذلك وعندئذ لجأ الى سوزان كعادته فأوصته بمتابعة هذه البرامج وألا يهتم لمصدرها ولا يعطى بالا لذلك بل عليه ان يستفيد منها ما استطاع الى الفائدة سبيلا وان ليس المهم معرفة من الذى وضعها بين يديه وانما المهم ان يستفيد منها وهى بين يديه ٠ غير انها كانت تسأله ان يعرض البرنامج عليها فقد يكون لها بعض ملاحظات عليها وفعلا رأت ان ببعضها بنودا ليست ذات أهمية فضلا عما فيها من ضياع وقته كما انه يمكن ارجاؤها الى فرصة اخرى ٠

وكان طبيعيا ان المعلومات التى فى تلك البرامج ماخوذة مماينشر عنها فى الجرائد ومن مختلف دور النشر ووكالات السياحة غير ان الغريب انها موضوعة وضعا خاصا يستفيد منه رافيك بالذات ٠٠ وهذا ما كان موضع حيرته ٠٠ ولذلك فانه رغم نصيحة سوزان ورغم قيامه بالتنفيذ شعر بأن الحيرة اشغلته فاتخذ خطة للبحث عن تلك « الزميلة » فجعل يتقرب الى زميلاته واحدة بعد أخرى بالوسائل اللطيفة المختلفة لعله يهتدى اليها « ويقبض » عليها ٠٠ غير انه لم يصل الى نتيجة ٠ اللهم الا انه تعارف واختلط واختلط وتعارف ٠٠ وكان له من هذه الحركة مكسب عظيم وخطوة اجتماعية طيبة الاثر وهى ماكانت تدعوه اليها سوزان ٠٠ وهنا ادرك حسن توجيهاتها اليه واخلاصها له ٠

استمرت شهور النشاط ثم قرب الصيف وجاء موعد الاجازات • فرجع رافيك الى سوزان يستشيرها • فاشارت عليه هذه المرة بالذهاب الى احد الشواطىء الشهيرة لكى يعلم عنها مايجب ان يعلم وما لم يكن يعلم • وهناك على الساحل الفرنسى الشهير (دوفيل) رأى غير ماكان يرى فى الجبـــال ولا ماكان يرى فى شواطىء بلاده ••وكما ان للجبال جمالها فان لها جلالها ••اما السواحل والبلاجات فلها مايتطلب البحر والعراء من التجرد والعرى ومن التشبه بالاسماك •

لم تطل اقامته لان الشواطىء لاتلائم صـحته ، وعاد مسرعا الى باريس •• الى المكتبة •• اين سوزان ؟ • انهـــا مريضة • تمضى اجازتها فى بلدتها عند جدتها ووحيدتهـا ، وهى بلدة غير التى كانت قد بعثته اليها فى الشتاء •

اقبل عليها شغوفا مشفقا ، فكانت المفاجأة •• وكانت الصدمة •

همت فى لهفة أن تلقاه قائمة فارتدت الى فراشها راقدة ، ولم تستطع الا أن تمد اليه بذراعيها تسليما ، وبالبسمات على شفتيها استبشارا ، وبالدموع تذرفها من مآقيها ترحيبا ••تستحيل بعد قليل لتكون نحيبا •

على انها هدأت وانتعشت واستراحت أياما ، حاول رافيك لها المستحيل طبـــا وعلاجا •• ولكن جاءت الفصل • ساعة الفراق بغير تلاق ••

ذهبت عنه وهى بين يديه كما يذهب النسيم العليل ، وبينمـا يبلل بدموع الاسى خديها ، يضع القبلة الوحيـــدة بينهما على شفتيها •

عاشت بعلتها تخفيهما بين جنبيها ، تفنى بالأولى وتحيى بالثانية ، وبينمـــا يمتلىء صدرها بالهوى ، يخرج منه مافيه من هواء •

فيا للقلوب من عجيب حب [illegible]

من اسرار القلوب •

قضى رافيك اياما بالجبل ، لا نائمـا ولا صاحيا ، هائما متجولا ، حتى اذا كان يوما حائما حول مرقدها كعادته دائما ، اذا به يشمله شعور غريب ، يغشـــاه فيعزله عن عالم الحس ، ومضة أو بعض ومضة ، يتلقى فيها نداء سريعا خفيـا ، يهتف به أن اخرج من القرية التى كنا فيها الى الدنيا التى نحن فيها •• اننـا نمضى ونفوت ولكننا لانفنى ولا نموت •

ليس من «فات» فاستراح بميت
انمـــا الميت ميت الأحيـــاء

وهؤلاء أصحاب الرســـالات ذهبوا باجســـامهم ولكنهم باقون بأرواحهم ، وها هى ذى تعاليمهم يعمل بها الملايين ، فالحياة مستمرة ولا تنقطع الا هيا كلها •

صحا من غفوته ، وعاد الى يقظتـــه ، واستعد لجديد خطوته ـ أليس هـــذا الصوت الهامس الخافت الهاتف بين جنبيه هو الايحاء الواعى الداعى الى التفكير والى العمل ؟ • أليس هو الرفيق للطريق ؟•

نعم • مهما أبعـــدت الايام عن المرء عميده ، فلن يضيع اذا أثبت هو على الايام وجوده •• ولا خـوف على النفس ما دام فيها أمل ولها ارادة •

تلك كانت تفكيرات رافيك وعزماته يناجى بها نفسه ويأخذ عليها عهدا حتى اذا حان وقت الخروج من القرية ، وجاءت ساعة العودة الى البلدة ، ذهب فى حنان الذكرى يودع الجدة •

حقيبة ملأى بشتى انواع التـذكارات والمذكرات ، أحب ما فيها وأعجب الملف الكبير ـ مســودات أصـول البرامج التثقيفية اياها ، التى كان اســبوعيا يتلقاها •

ممن يتلقاها ؟ لم يكن يدرى ولـكنه اليوم يدرى •• منها ! ••

من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم الدكتور محمد أحمد خلف الله

(١)

عشقت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وامرأة الوليد بن عبد الملك وضاح اليمن الشاعر المعروف ، وكان وضاح من أجمل رجالات العرب ،فكانت ترسل اليه فيدخل اليها ويقيم عندها ، فاذا خافت وارته فى صندوق عندها وأقفلت عليه .

وذات يوم أهدى للوليد بن عبدالملك جوهر له قيمة فأعجبه واستحسنه ، فدعا خادما له فبعث به معه الى أم البنين . وقال : قل لها ان هذا الجوهر أعجبنى فآثرتك به .

دخل الخادم عليها مفاجأة ووضاح عندها ، فادخلته الصندوق وهو يرى ، فادى اليها رسالة الوليد ودفع اليها الجوهر ثم قال :

يامولاتى هبينى حجرا منه .

فقالت : لا ياابن اللخناء ولا كرامة .

فرجع الى الوليد فاخبره .

فقال الوليد : كذبت ياابن اللخناء ، وأمر به فوجئت عنقه .

ثم لبس الوليد نعليه ودخل على أم البنين وهى جالسة فى ذلك البيت تمتشط ، وقد وصف له الخادم الصندوق الذى أدخلته فيه ، فجلس عليه ثم قال لها :

يا أم البنين ، ماأحب اليك هذا البيت من بيوتك ، فلم تختارينه ؟

فقالت : أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجى كلها فاتناولها منه كما أريد من قرب .

فقال لها : هبى لى صندوقا من هذه الصناديق .

قالت : كلها لك يا أمير المؤمنين .

قال : ما أريد كلها وانما أريد واحدا منها .

قالت له : خذ أيها شئت .

قال : هذا الذى جلست عليه .

قالت : خذ غيره فان لى فيه أشياء أحتاج اليها .

قال : ما أريد غيره .

قالت خذه يا أمير المؤمنين .

فدعا بالخدم وأمرهم بحمله ، فحمله حتى انتهى به الى مجلسه فوضعه فيه •
ثم دعا عبيدا له فحفروا بئرا فى المجلس عميقة ، فنحى البساط وحفرت الى الماء •

ثم دعا بالصندوق فقال : ياهذا انه بلغنا شيء ان كان حقا فقد كفناك ودفناك ، ودفنا ذكرك ، وقطعنا أثرك الى آخر الدهر ، وان كان باطلا فانا دفنا الخشب ، وما أهون ذلك •

ثم قذف به فى البئر وهيل عليه التراب ،وسويت الأرض ، ورد البساط الى حاله وجلس الوليد عليه •

ثم ما رئى بعد ذلك اليوم لوضاح اليمن أثر فى الدنيا الى هذا اليوم •

وما رأت أم البنين لذلك أثرا فى وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما •

***

(٢)

قدم ابن جامع قدمة له من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السمت ،كثير الصلاة ، قد أخذ السجود جبهته • وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، ويلبس لباس الفقهاء ، ويركب حمارا مريسيا فى زى أهل الحجاز •

فبينما هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الاذن عليه فوقف على ماكان يقف الناس عليه فى القديم حتى يأذن لهم أو يصرفهم – أقبل أبو يوسف القاضى باصحابه أهل القلانس ، فلما هجم على الباب نظر الى رجل يقف الى جانبه ويحادثه ، فوقعت عينيه على ابن جامع فرأى سمته وحلاوة عينيه ، فجاء فوقف الى جانبه ثم قال له :

امتع الله بك ، توسمت فيك الحجازية والقرشية •

قال : أصبت •

قال : فمن أى قريش أنت ؟

قال : من بنى سهم •

قال : فاى الحرمين منزلك ؟

قال : مكة •

قال : ومن لقيت من فقهائهم ؟

قال : سل عمن شئت •

ففاتحه الفقه والحديث فوجد عنده ما أحب فاعجب به •

ونظر الناس اليهما فقالوا : هذا القاضى قد أقبل على المغنى وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع •

فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه •

ثم قالوا : لا ، لعله لا يعود الى مواقفته بعد اليوم ، فلم نغمه •

فلما كان الاذان الثانى ليحيى بن خالد غدا عليه الناس وغدا عليه أبو يوسف، فنظر يطلب ابن جامع فرآه ، فذهب فوقف الى جانبه فحادثه طويلا كما فعل فى المرة الاولى •

فلما انصرف قال له بعض أصحابه : أيها القاضى ، أتعرف هذا الذى تواقف وتحادث ؟

قال : نعم ، رجل من قريش من أهل مكة من الفقهاء •

قالوا : هذا ابن جامع المغنى •

قال : انا لله •

قالوا : ان الناس قد شهروك بمواقفته وأنكروا ذلك من فعلك •

فلما كان الاذن الثاني جاء أبو يوسف ونظر اليه فتنكبه ·

وعرف ابن جامع أنه قد أنذر به ، فجاء فوقف فسلم عليه ، فرد السلام عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذى كان يلقاه به ثم انحرف عنه ·

فدنا منه ابن جامع — وعرف الناس القصة — وكان ابن جامع جهيرا فرفع صوته ثم قال :

يا أبا يوسف ، مالك تنحرف عني ؟ أى شيء أنكرت ؟ قالوا لك : انى ابن جامع المغنى فكرهت موافقتى لك ·

أسألك عن مسألة ثم اصنع ماشئت ·

ومال النـــاس فاقبلـوا نحوهمـا يستمعون ·

فقال : يا أبا يوسف ، لو ان أعرابيا جلفا وقف بين يديك فانشــدك بجفاء وغلظة من لسانه وقال :

يادارمية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالف الأمد

أكنت ترى بذلك بأسا ؟

قال : لا ، قد روى عن النبى صــلى الله عليه وسلم فى الشعر قول ، وروى فى الحديث ·

قال ابن جامع : فان قلت أنا هكذا ، ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه · ثم قال : يا أبا يوسف ، أرأيتني زدت فيه أو نقصت منه ؟

قال : يا أبا يوسف ، أنت صـاحب فتيا ، ما زدته على أن حسنته بألفاظى فحسن فى السماع ووصل الى القلب ·

ثم تنحى عنه ابن جامع ·

***

(٣)

كان عمر بن أبى ربيعة جالسا بمنى فى فناء مضربه وغلمانه حوله اذ أقبلت امرأة برزة عليها أثر النعمة ، فرد عليها عمر السلام ،

فقالت له : أنت عمر بن أبى‌ربيعة ؟

فقال لها : أنا هو ، فما حاجتك ؟

قالت له : حياك الله وقربك ، هل لك فى محادثة أحسن الناس وجها ، وأتمهم خلقا ، وأكملهم أدبا ، وأشرفهم حسبا ؟

قال : ما أحب الى ذلك ·

قالت : على شرط

قال : قولى

قالت : تمكنني من عينيك فاشدهما وأقودك حتى اذا توسطت الموضع الذى أريد حللت الشد ثم افعل ذلك بك عند اخراجك حتى أنتهى بك الى مضربك ·

قال : شأنك ·

ففعلت ذلك به ·

قال عمر : فلما انتهت بى الى المضرب الذى ارادت كشفت عن وجهى فاذا أنا بامرأة على كرسى لم أر مثلها قط جمالا وكمالا ، فسلمت وجلست ٠

فقالت : أأنت عمر بن أبى ربيعة ؟

قلت : أنا عمر

قالت : أنت الفاضح للحرائر ؟

قلت : الست القائل : وأنشدت شعرا ٠٠ ثم قالت قم فاخرج عنى ، ثم قامت من مجلسها ٠

وجاءت المرأة فشدت عينى ثم أخرجتنى حتى انتهت بى الى مضربى وانصرفت وتركتنى ، فحللت عينى وقد دخلنى من الكآبة والحزن ما الله به أعلم، وبت ليلتى ، فلما أصبحت اذا أنا بها ٠

فقالت : هل لك فى العود ؟

قلت ! شأنك ٠

ففعلت بى مثل فعلها بالأمس حتى انتهت بى الى الموضع ، فلما دخلت اذا بتلك الفتاة على كرسى

فقالت : ايه يا فضاح الحرائر ٠

قلت : بماذا ؟ جعلنى الله فداءك

قالت : بقولك ٠٠٠٠ ثم قالت قم فاخرج عنى ، فقمت فخرجت ،ثم رددت٠

فقالت : لولا وشك الرحيل ، وخوف الفوت ، ومحبتى لمناجاتك والاستكثار من محادثتك ، لأقصيتك ، هات الآن كلمنى وحدثنى وأنشدنى ٠ فكلمت آداب الناس وأعلمهم بكل شىء ، ثم نهضت وأبطأت العجوز وخلا الى البيت فأخذت أنظر ، فاذا أنا ٠ باناء صغير فيه خلوق ، فأدخلت يدى فيه ثمخبأتها فى ردنى ـ كمى ـ وجاءت تلك العجوز فشدت عينى ونهضت بى الى مضربى ، فدعوت غلمانى فقلت :

أيكم يقفنى على باب مضرب عليه خلوق كأنه أثر كف فهو حر وله خمسمائة درهم ٠

فلم ألبث أن جاء بعضهم فقال : قم ، فنهضت معه فاذا أنا بالكف طرية واذا المضرب مضرب فاطمة ثبت عبد الملك بن مروان ، فأخذت فى أهبة الرحيل ، فلما نفرت نفرت معهـــا فبصرت فى طريقها بقبقاب ومضرب وهيئة جميلة ، فسألت عن ذلك فقيل لها : هـذا عمر بن أبى ربيعة ، فساءهـــا أمره وقالت للعجوز التى كانت ترسلها اليه :

قولى له نشـــدتك الله والرحم أن تصحبنى ، ويحك ، ما شأنك وما الذى تريد ؟ انصرف ولا تفضحنى وتشيط بدمك ٠

سارت العجوز اليه وأدت اليهماقالت نها فاطمة ٠ فقال :

لست بمنصرف أوتوجه اليه بقميصها الذى يلى جلدها ٠

فاخبرتها ففعلت ووجهت اليه بقميص من ثيابها ، فزاده ذلك شغفا ، ولم يزل يتبعهم لا يخالطهم حتى اذا صاروا على أميال من دمشق انصرف ٠

تطور القصة الاسبانية

بقلم : خيري حماد

قليلون منا هم الذين يعرفون ان القصة بلغت شأوا بعيدا في الأدب الاسباني ، وأن هذا الشأو الذي بلغته لم يقتصر على الارض الاسبانية وحدها ، بل تعداها الى العالم الكبير الذي يتحدث بالاسبانية ، والذي تمثله هذه الجمهوريات الكثيرة العدد فيما يسمى بامريكا اللاتينية ، أي في الامريكيتين الوسطى والجنوبية • ولعل السبب في هذا الجهل من جانبنا ، هو ان عدد من يعرف الاسبانية منا قليل للغاية ، واننا نعتمد في معرفتنا بما لاسبانيا من ادب وثقافة على الترجمات الكثيرة التي نجدها في اللغات التي نعرفها كالانجليزية او الفرنسية • لكن الحقيقة التي يجب ان نعرفها ، وان تكون واضحة لكل من يشغف بالاداب العالمية ، هي ان القصة الاسبانية بلغت منزلة رفيعة ، وان هذه القصة الهدية ، بمثلها عدد من خيرة القصصيين الذين زودوا القصة العالمية بروائع تعتبر من خير ما ظهر في الآداب الغربية في القرون الاخيرة •

ومن أبرز هؤلاء القصصيين الاسباني رامون ديل فاليه ـ انيكلان المتوفى في عام ١٩٣٦ ، وقد اشتهر بقصة « شقيقتي انطونيا » ، والارجنتيني لويس بورجيس الذي توفي منذ عامين وصاحب القصة المشهورة « المعجزة الخفية » ، والجواتيمالي كارلوس ويلد اوسبيفيا ، صاحب قصة « شرف البيت » ، والاورجوائي هوارشيو كويروجا صاحب قصة « الوطن » ، والكوبي لينو نوفاس ، كالفو ، صاحب مجموعة « القمر » القصصية ، والمكسيكي الشاب ارنورو سوتو الابارس صاحب القصة المشهورة « رقم ١٣ » وغيرهم كثر ، من اروع القصصيين على الصعيد العالمي •

وهناك حقيقة واقعة ، يعترف بها مؤرخو اسبانيا ونقادها • وهي ان الادب الاسباني يستمد جذوره من الحضارة العربية ، يوم كانت مزدهرة في غرناطة وقرطبة وطليطلة • فلقد نقل العرب الى الحضارة العالمية عن طريق الاندلس في العصور الوسطى • يوم كانت شمس الحضارة العربية تسطع على العالم المعروف باسره ، بينما تغط اوروبا في سبات الجهل والظلمات ، حضارتهم العربية الاصيلة ، بالاضافة الى الحضارات العالمية القديمة ، التي كان لهم شرف حفظها وتهذيبها وصقلها ونقلها من الاغريق والفرس والهند والصين ، لتكون من الحضارة العربية ، أسس الحضارة العالمية الراهنة وقواعدها • ولم يقتصر مانقله العرب على الفلسفة والعلم ،

وانما نقلوا ايضا ، اروع القصص الفني من امثال قصص كليلة ودمنة ، والسندباد ، والف ليلة وليلة ، مما كان له ابلغ الاثر فى النهضة القصصية الحديثة فى العالم ، اذ تجلى واضحا فى مجموعات قصصية كثيرة ظهرت فى مختلف اللغات الاوروبية وبينها الاسبانية بالطبع ٠

ولقد كان الفونس المسمى بالملك الحكيم ، فى قشتاله ، هو اول من عمل على اقتباس حضارة العرب وثقافتهم ، فقد حشد فى بلاطه ، العلماء والمفكرين ، ينقلون الى اللغة القشتالية ، الكنوز العلمية والادبية من العربية ٠ وكان هذا الملك هو الذى امر بترجمة قصص كليلة ودمنة « فى عام ١٢٦١ » ميلادية ٠ ولم يمض عامان حتى كان شقيقه دون فريدريك يأمر بترجمة قصص السندباد ايضا ، ليتبعها بمجموعات قصصية كثيرة اخرى ٠

وفى مطلع القرن الرابع عشر ، ظهر اول قصصى اسـبانى ، ابتكر القصة الاسبانية الجديدة وخرج بها الى حيز الوجود ، وهو الدون خوان مانيــويل ٠ فقد عكف هذا الفنان على القصص القديمة التى قرأها أو سمع بها ، وراح يعيد كتابتها بطريقته المبتكرة ، التى مثلت المرحلة الريادية فى تاريخ القصة الاسبانية ، اذ ان مجموعته « الكونت لوكانور » كانت المثل الذى احتذاه الكثيرون من القصـصين الاسبان طيلة القرون التالية ٠ وبالرغم من ان مادة قصصه قديمة ، الا انه احالها الى خلق جديد ، فلم تعد نتاج تلك العقول المجهولة التى لايعرف صاحبها أوخالقها ، وانما باتت الصور الفنية التى يرسمها فنان يجد فى تراث الماضى مادته التى يستمد منها قصصه التى تجمع بين العبر والدروس والحكم ، والتى يستشف القــارىء وراءها ٠ تعمقا فى فهم الطبيعة الانسانية ٠ وقد ذاع امر هذا الكتاب ، وسرعان ما انتقل الى اللغات الاوروبية الاخرى ، ويقال ان شكسبير استمد مسرحيته الساخرة « ترويض الناشر » من احدى قصص مانويل ، وعنوانهــا « الرجل الذى تزوج امرأة سيئة الخلق » ٠

وبانتهاء عصر مانويل ، بزغ فجر عهد النهضة ، لا فى اسبانيا وحدها بل وفى القارة الاوروبية كلها ٠ وكانت القصة القصيرة ، قد تطورت على الصعيد العالمى ، من سرد الاقاصيص القديمة ، الى التعبير عن رؤى الكاتب وخيــالاته ٠ فنحن نرى الآن موضوعا تتضمنه القصة ، يتناوله الكاتب باسلوبه الفريد ، وقدرته على تجديد الرؤى السابقة ، واضفاء ثوب قشيب عليها من الاحساس بالجمال ٠

ولان مثل بوكاشيو فى مجموعة قصصه الخالدة « ديكاميرون » هذه النهضـة فى ايطاليا ، ومثلها شـوسر فى مجموعته « قصص كانتربرى » فى انجلترا ، فان ميجويل دى سيرفانتيس ، صاحب القصة المشهورة « دون كيشوت » ، هو الذى مثل عصر النهضة فى اسبانيا ، بقصته هذه وبمجموعة من القصص الصـغيرة التى تعتبر المولد الحقيقى للقصة الاسبانية القصيرة ، ضمنها كتابة « روايات نموذجية » ٠ وقد ادرج سيرفانتيس فى هــذه المجموعة التى نشرت لأول مرة فى عـام ١٦١٣ ، اثنتى عشرة قصة متفرقة ، لاعلاقة للواحدة منها بالاخرى ، وتتناول مواضع شتى ، تعرض

بصورة جلية عبقرية كاتبها القصصية التي جعلته في مصاف ادباء العالم المشهورين. ولا يعني هذا على الاطلاق ، ان سيرفانتيس لم يفد من سابقيه ومعاصريه ، بل افاد منهم الكثير مقتبسا عنهم بعض صورهم ، وأسلوبهم المتميز بالمرونة والأناقة ، ولا ريب في ان عبقريته هذه هي التي دعته الى ان يزهو بنفسه في مقدمة مجموعته ، اذ يقول ... « انا اول من يضع القصص في لغة قشتاله ، اذ ان معظم القصص التي تطبع في الاسبانية مترجمة عن اللغات الاجنبية ، بينما هذه القصص هي من وضعي ، لم أسرقها من أحد ، ولم أقلد فيها أحدا فعبقريتي ، هي التي ابتكرتها ، وقلمي هو الذي طلع بها الى الحياة » .

وسرعان ما انتشرت هذه القصص وذاع أمرها . ولم تمض سنة ، على صدورها حتى كانت تترجم الى الفرنسية فالانجليزية والالمانية . وكان بعضها يتناول قصص اللصوص ، والبعض الآخر من طراز قصص النقد الاجتماعي ، بينما يتناول البعض الثالث الدراسات النفسية ، او المغامرات الخارقة للعادة ، او هذه النواحي مجتمعة الى بعضها .. وهي تجد المثل السامية التي يعمل الفن الاسباني على الوصول اليها ، والتي يحقق بعضها في معظم الحالات ، وهي شمولية الحياة بما فيها من تناقضات ، واضطراب وبشاعة وجمال ، ومزج بين الواقعية والمثالية . وقد احس كبار الكتاب الاسبانيين في مختلف عهودهم وعصورهم ، ان في ابناء مجتمعهم، المادة الدائمة التي يستطيعون ان يصوغوا فنهم منها ، وقد برز من هؤلاء الكتاب في القرنين السادس عشر والسابع عشر عدد من المشهورين من امثال تيرزو دي مولينا وسالاس باربا ديلو ، وماريا دي زاياس .

وظهر الاتجاه الرومانطيقي في القصة مع حلول القرن التاسع عشر ، وتمثل هذا الاتجاه في صور قصصية ، تتناول الاجواء وطرائق السلوك ، واوساط المجتمعات . أما الصورة الثانية لهذا الاتجاه ، فقد تمثلت في القصص التاريخية المحلية شعرا ونثرا . وبالرغم من أن هذا الطراز من القصص كان عاما في العالم في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، الا انه عاش في الادب الاسباني سواء ما كان منه في اسبانيا نفسها أو في أمريكا اللاتينية مدة أطول . فالصبغة المحلية ، هي شكل آخر من اشكال التكافل التفردية ، التي تعتبر سمة مميزة من سمات الشعب الاسباني، فلكل مدينة أو بلدة في اسبانيا ، أساطيرها الخاصة بها بل ولكل حي من الاحياء ، أو شارع من الشوارع قصصه وروايانه ، وهي المادة التي يستقي منها الكتاب مصادرهم ، ويصوغون منها فنا قصصيا رفيعا .

ويمثل ريكاردو بالما ، كاتب بيرو الاشهر في القرن التاسع عشر ، هذه المدرسة القصصية خير تمثيل . فهو في سلسلة قصصه التي اسماها « تراث بيرد » والتي نشرت في مستهل القرن العشرين ، يخلق عالما جديدا من ماضي بلاده وتاريخها . وهو في القصص التي يرويها يجعل من ليما ، عاصمة بيرد ، أو غيرها من المدن المحور الذي تدور حوله هذه القصص ، التي يسردها وكأنها وقعت بالامس ، وتكتسب بذلك قصص الماضي البعيد حيوية وجدة ونشاطا .

وادى حلول عصر الواقعية فى الادب الاسبانى فى نهاية القرن التاسع عشر ، الى اندفاعات حيوية ضخمة فى الصور الفنية • وينقسم هذا العصر الى فترتين ، اولاهما فترة الجيل الأول التى بلغت ذروتها حوالى عام ١٨٧٠ • وبالرغم من ان الرواية الطويلة كانت الصورة الغالبة على هذه الفترة ، الا ان بعض الادباء ، اكبوا على القصة القصيرة يمارسون كتابتها وفى مقدمتهم بيدرو أنطونيو دى الاركون ، الذى اشتهر بقصة التى ذاع صيتها وهى « القبعة ذات الزوايا الثلاث » • وقد طلع بيدرو على العالم بمجموعات ضخمة من الاساطير والقصص التاريخية ، والحكايات التى تصور الغموض والسحر والفزع ، مدللا بذلك على تأثره البالغ بالقصص الانجليزى المشهور اليكزاندر بو •

لكن القصة القصيرة لم تحقق امجادها وروائعها فى الادب الاسبانى الا فى الفترة الثانية ، التى شهدت مولد الجيل الجديد من الكتاب فى مستهل القرن العشرين • وقد ادى زيادة مجالات النشر للقصة القصيرة فى الصحف والمجلات ، الى وجود الحافز الكبير على التوسع فى انتاجها ، فظهرت جمهرة من كبار القصصيين فى مقدمتهم اميليا باردو رازان وبالاشيو فالديس وليوبولدو الاس وبلاسكو ايبانيز • وغيرهم كثر • وكان هؤلاء الكتاب هم انصار الطبيعة فى الادب الاسبانى وان كان من الواجب القول ، بأن هذا الاتجاه الوجودى الذى برز بصورة خاصة فى الادب الفرنسى ، لم يجد جذورا عميقة له فى الادب الاسبانى •

فالجمود ، والعزلة ، والملاحظة العلمية ، والترفع ، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة فى الادب ، لاتتفق مع المزاج الاسبانى • فالانسان الاسبانى لايفتقر الى البصيرة النافذة والاستشفاف البعيد فى صور الطبيعة ومرئياتها ، ولكنه دئما ، يمزج هذه الصور الجامدة ، بشىء من عواطفه الدافقة المتحركة • و لايرى الكتاب الاسبان فى الانسان حقيقة مطلقة ، او دمية لاحول لها ولا طول ، تتلاعب بها قوى الاقدار التى لاسيطرة لها عليها ، وانما يرون فيه فردا ، فيه جميع مظاهر الضعف والقوة ، وله هزائمه وانتصاراته • وحرية الارادة عند الاسبانى ، تأكيد جديد لفرديته ، وهى جزء لا يتجزأ من العقيدة التى تأصلت فى نفس كل أسبانى رغم الظروف الحياتية السيئة التى عاشها فى ظل الديكتاتوريات المتعاقبة •

وظهرت تباشير الثورة فى الحقبتين الاولين من القرن العشرين على الواقعية والطبيعية فى الادب ، فى كل مكان فى العالم • وانتقلت هذه الثورة الى القصة الاسبانية ، فظهر امثال اونامونو وباروجا وفاليه ـ انيكلان • وفى قصص هؤلاء الكثير مما يتفق مع اذواق عصرنا الحديث الذى نعيشه الآن • ولم يعد الاسلوب الادبى ، مجرد وسيلة يعرض فيها الكاتب طبيعته ، بالنسبة الى المكان الذى يعيش فيه ، والزمن الذى يحياه ، وانما بات ايضا الابتكار الذى يستهوى ذوق القارىء ويدعوه الى التجاوب معه • وقد تميزت قصص هذه الفترة ، بالطابع الذاتى الغنائى ، الذى يؤكد بصورة عاطفية ، شخصية الكاتب وقواعده الفنية • ولعل هذا الطابع

نفسه ، هو الذى يخلق التفاوت الكبير بين كاتب وآخر • ولم يعد موضوع القصة وحبكتها هما اللذان يستهويان القارىء فحسب ، وانما يستهويه ايضا اسلوب الكاتب ، وطريقته ، وتجاوبه مع احاسيسه وعواطفه ، ذلك التجاوب الذى يدفعه الى اختيار الموضوع الذى يفضل غيره من المواضيع فى الانسجام مع مزاجه • واتجاهه واحاسيسه •

فى امريكا اللاتينية

ولم تعد القصة الاسبانية ، ممثلة الآن فيما يكتبه الكتاب الاسبان وحدهم ، وانما انتقل الشطر الاكبر من تمثيلها الى الانتاج القصصى فى جمهوريات امريكا اللاتينية • ولا ريب فى ان الروائع التى صدرت عن الكتاب الامريكيين الاسبان فى هذه الفترة تعتبر من غوالى الدرر فى الادب الاسبانى فى مختلف عهوده وعصوره ، وفى هذا يقول جوزيه مارتى ، الكاتب الكوبى المشهور ••• « لقد أعطتنا اسبانيا لغة عظيمة رائعة • ولكن ليس فى وسعها ان تشكو أو ان تتذمر ، من اننا لم نكن جديرين بها •

وكان الاسبانيون الذين ارتحلوا الى العالم الجديد ، أبان العهد الاستعمارى ، وذريتهم • قد خلقوا فى مهاجرهم أدبا جديدا يتميز بالابتكار والاصالة ، بالرغم من الحقيقة الواقعة ، وهى انهم ساروا فى ادبهم هذا ، على خطى الادب الاسبانى نفسه ، متأثرين بصوره واتجاهاته ، نظرا لما يقوم بينهم وبين اسبانيا من ترابط واتصال ، يشمل الافاق السياسية ، والحياتية كلها ، وما كادت هذه البلاد تنعم باستقلالها ، لتغدو جمهوريات قائمة بنفسها ، حتى اخذ ادبها يعكس تأثيرات اخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك التى كانت تؤثر عليها فى الماضى ، والنابعة عن العلاقات بين اسبانيا ومستعمراتها عبر المحيط الأطلسى • لكن ظروف النضال السياسى والصراع فى سبيل التحرر • خلقت اتجاها خاصا فى الادب الامريكى الاسبانى تمثل فى الاقبال على الشعر والادب السياسى ، لانهما خير ما يصور احاسيس الصراع والنضال، واقتصر الانتاج فى مجال الرواية والمسرحية والقصة القصيرة على محاولات منعزلة ومتفرقة ، لم يكن لها شأنها الكبير ، فى بلورة القصة الاجتماعية الطابع التى تعكس احاسيس المجتمع ، وتصور اوضاعه ، ناقدة ، او ساخرة ، وداعية الى الاصلاح أو الثورة الاجتماعية •

وسرعان ما ظهرت مجموعة من الكتاب الموهوبين والممتازين فى وقت واحد تقريبا ، فى مختلف الدول الامريكية اللاتينية فى مستهل القرن العشرين ، خلقت ثورة جديدة وقوية فى ادب المهجر ، ووضعت اسس القصة والرواية العصريتين • وقد تميزت كتاباتهم • تماما ككتابات اقرانهم فى اسبانيا فى الفترة ذاتها ، بالميزة الذاتية الشعرية •• ، وكانوا يشتركون رغم ما بينهم من فروق وتباين ، فى اتجاه واحد ، وهو البحث عن انفسهم ، ومحاولة تفهمها • وكان الشغل الشاغل لمعظمهم

تحديد معنى امريكا التى ينتمون اليها ، وعهدوا الى خلفائهم بمتابعة هذه الرسالة التى اخذوها على عاتقهم • وكانت الروائع التى صدرت عنهم فى عالم الشعر وميدان المقال السياسى ، اكثر اصالة وابتكارا ، واقرب الى الخلود من ادبهم القصصى • ولكن لم تحل نهاية الحرب العالمية الأولى ، حتى طلع جيل جديد فى كتاب الرواية والقصة القصيرة ، زامن الجيل الذى شهدته الولايات المتحدة الامريكية فى الشمال • والذى خلق امثال فولكنر وهمينجواى ، وجعل من هذا الفن الأدبى ، بما فيه من احساس بالجمالية ، وشعور بواقع الحياة ، الطابع الغالب على الادب الاسبانى الامريكى • كما خلق فيه روائع تعتبر فى المرتبة الاولى بين القصة القصيرة المعاصرة • ولعل من الغريب ان يلاحظ المرء ، ان عصر ازدهار القصة والرواية فى الولايات المتحدة وامريكا اللاتينية والبرازيل ، قد زامن عهد انحطاطها الى حد كبير فى اوروبا الغربية •

ويبدو ان كتاب امريكا الاسبانية • قد اخذوا بنصيحة سارمينتو ، الاديب الشيلى الكبير ، قبل نحو من قرن من الزمن ، عندما خاطب اسلافهم ، محددا لهم الاسلوب الفنى الذى يجب عليهم ان يتبعوه قائلا ••• « القوا بنظرتكم الفاحصة المدققة على بلدكم وشعبكم • وادرسوا عاداتكم وطبائعكم ونظمكم ، تمعنوا فى المشاكل القائمة عندكم ، واكتبوا عن كل ذلك ، بعاطفة صادقة محبة ، صادرة من اعماق قلوبهم ، وعاكسة ما تحسون به ، وما يحدث لكم • وسيكون ما تكتبونه ، رائعا فى محتواه ، حتى ولو اخطأتم فى اسلوبكم ، لأنه زاخر بالعاطفة ، التى تغطى على كل عيب ، ولو كان الافتقار الى الدقة ••• وسيكون ما تنتجونه ، ادبكم ، سواء أكان حسنا ام سيئا •

وقد اتصل هؤلاء الكتاب المعاصرون بالعالم وعرفوه • وطاف بعضهم ارجاءه ، دارسا وباحثا ، ثم عادوا الى بلادهم يحملون نتاج تجاربهم ، وثمرة معارفهم ، وخلاصة اقتباساتهم من اداب الآخرين ، ليتطبعوا بذلك كله ، فى نظرتهم الى عالمهم ، الذى لايرونه من خارجه ، كما يراه الاديب الواقعى ، وانما يقرأونه فى قلوبهم ، ويجدونه فى قرارة نفوسهم • وهم يصطرعون مع حقائق الحياة فى عجرها وبجرها ، وحلوها ومرها ، باحثين عن اصالتهم • رابطين أنفسهم بمجتمعاتهم ، وبالارض التى يعيشون عليها ، والشعب الذى ينتمون اليه • وبكل مايواجهه هذا الشعب من أفراح وأتراح، وآلام وأمنيات •

ويشترك معظم الكتاب المعاصرين ، رغم مابينهم من فروق وتباينات ، فى خيط مشترك واحد ، يبدو واضحا فى جميع قصصهم ، وهو المثل الاعلى عند الاسبان للجمال ، نابعا من جماليتهم ، ومن انسانيتهم ، ومن نظراتهم الصافية الى الحياة ، ولعل هذه الظاهرة هى الصورة البارزة الغالبة على الأدب الاسبانى الحديث سواء فى بلاده الاصلية أو فى مهجره • مع البساطة فى المرثيات والحديث عنها حديثا بالغا عن النفس البشرية المرسلة على سجيتها •

ولعل القصة القصيرة التي نقلتها قبل بضعة أشهر الى العربية ، ونشرتها في هذه المجلة ، للكاتب الجواتيمالي ، كارلوس أوســــبينا ، تقيم الدليل على صحة ما اقول • ففي هذه القصة ••• وعنوانها « صرت ملاكا » ، يتحدث الكاتب عن رجل متشرد افاق ، احنت السنون والهموم ظهره • وعرضته متاعب الحياة لآلام العين فكادت تعميها ، وتقوده قدماه بعد سنوات طويلة من الفراق والشقاء • والعذاب ، دون ان يدرى الى البيت الذي تديره زوجته ، والذي تعيش فيه مع أولاها منه ومن غيره ، في خدمة سيده الاقطاعي • وكان زوجها قد هجرها قبل سنوات طويلة •

ويلتقي الرجل بزوجته بعد هذا الفراق الطويل ، فتعرفه لتوها ، وتساله ••• « متى خرجت من السجن ياخوان ••• » ••• وتبدو في الحوار الرائع الذي يدور بين الزوجين ، والذي يتناول الحياة في جواتيمالا ، بكل ما فيها من بساطة وفاقة ، صورة مشرقة من الفن الاسباني الرفيع ، الذي يصور الواقع تصويرا رائعـــا ، بكثير من العاطفة المشبوبة ، التي تتجســد في تلك النوبة من الاجهاش بالبكاء ، بعــد أن استعادت الذكريات ، ما كان بين الزوجين من حب ضائع •

واقام الرجل الكفيف البصر في المزرعة التي تعمل فيها زوجته ، واصبح موظفا فيها تحت اشرافها وادارتها • ولما كان من الطراز الذي يقوم بكل عمل ، ويتدخل في كل شيء • ويتقن كل مهنة ، فانه سرعان ما اصلح كل باب ، ووضــع كل قفل في موضعه ، وسمر لكل جواد حدوته ، ورمم كل شيء خرب ، واعتنى بكل زهرة مهملة •

وهكذا تحول هذا الرجل الذي عرف السرقة منذ صباه ، ومارس القتل والنهب وقطع الطرق في شبابه ، الى انسان وادع ، يحيا حياة هادئة ، ســـاخرا من الماضي الذي عاشه ، والذي نسيه الآن ، بعد أن طوت له زوجته صفحة الماضي ، وغفرت له ، وحفزته على العمل من اجل ابنته وولدها •

وانتصر الخير على الشر ، وتحول اللص القاتل الى رجل شريف ، لم يعد يسلب احدا ماله ، وانما يعمل ويكسب رزقه بعرق جبينه ، وان اتفق وزوجه على ان يقتنص من السيد الاقطاعي الذي يبتز منهما عرقهما وجهدهما ، حقهمـــا الذي لايعترف به ، عن طريق السرقة •

واصبح خوان بفضل جهده وسهره ، مدير المزرعة ، التي تحسن فيها العمـــل وما بعد ان ساد النظام فيها • وقد مكنته خبرته الســــابقة كلص وقاطع طريق ورئيس عصابة من ادارة العمل بحزم وسياسة مرءوسيه ، ومنعهم من السرقة والغش والخديعة ، وتحول خوفهم منه الى ولاء وحب وعباده ، لقوته ورجولته •

وننتقل بعد هذا الى صورة رائعة ، صورة الفتاة العاملة ، التي يتفجر جمالهـــا الريان ، وهي ابنته ، فيطمع فيه السيد الاقطاعي ، بوصفه ، السيد المتحكم فيها وفي أسرتها ، وتقض هذه الحقيقة على خوان مضجعه لا سيما وقد لا حظ ان زوجته تعمل وسيطا بين السيد وفتاتها ، طمعا في ماله •

وينفجر غضب اللص التائب . انه لايستطيع قبول هذه الضعة ، فيثور ، وينهال على زوجته يضربها ، ويدمى جسدها بلكماته وبركلاته ، ثم يخلفها وقد تورمت اجزاء جسدها .

وتتوالى الايام ، وهو يضربها فى كل يوم ، بينما تهدده هى بان السيد سيبردهم جميعا من المزرعة ، اذا لم يذعن لرغباته المشبوبة . ولكن خوان صامد فى موقفه لايتراجع ولا يلين اذ يرد عليها بقوله ... اذا كان الشرف يقوم على اشلاء مثل هذا العار فساعود الى الطريق اقطعها ، والى الناس اسلبهم ما يملكون ... ويمضى هذا الرجل ، اللص ، القاتل ، قائلا ... هذا هو الخطأ فى تعليم الناس معنى الشرف ، لقد سرقت ، هذه حقيقة ، وكنت وغدا ، وكاذبا ، ومنافقا ، وانا لاانكر ذلك ، فكل اثم ارتكبته فى الماضى يحز فى نفسى الألم . ولكننى لن أبيع فلذة كبدى. قولى عنى ما شئت ، فانا رجل شرير ، وسيىء ، ولكننى سأحافظ على شرفى . وقد تقولين انى بليد ، ولكننى سأظل على هذه البلاده . وقد أنتهى نهاية اسوأ من البداية التى كنت فيها ، وعليك ان تدركى اننى سأذبحك واذبح ابنتى وأذبح السيد ، قبل ان يلوث شرفى ... اننى لم امت بعد ....

وتعود زوجته الى ضميرها الغائب .... فتجهش بالبكاء ، وهى تقول .... لقد مات خوان الذى اعرفه ، بعد ان تحول الى قديس أو ملاك ... بورك فيك ياخوان .

قصة فى منتهى البساطة ، ومعانيها فى منتهى الشيوع ، ولكنها تصاغ بأسلوب رائع ، متخذة من الشرق هدفا وغاية تسعى اليه ....

هذا هو طراز الادب الاسبانى الحديث .... يصور الطبيعة ، ويصور تصارع العواطف البشرية ، ويسعى للوصول الى غاية ...

انه ادب سيتميز بالعواطف المشبوبة ، والفهم العميق للنفس الانسانية ، ورشاقة الاسلوب ... وهو يصل الى غاياته ، عن طريق الربط بين ما يشغل الانسان ومجالات اهتمامه ، وحبه للحياة ....

ولعل خير تعريف له هو ما قاله الناقد المعروف فرى لويز دى ليون ...... انه يمثل الجمال الحق ، الذى يقوم على ان يتصرف كل انسان وكل شىء ، وفق طبيعته وهواه .

ست بنات

بقلم : د. نجيب الكيلاني

لم يستطع الاستاذ سيد أن يطفىء في جسده وروحه نوازع الجنس والتفكير في الأنثى على الرغم من أنه قد جاوز الرابعة والخمسين من عمره، لقد خيل اليه بعد وفاة زوجته الحبيبة الصابرة والمهذبة أثناء ولادة متعسرة .. خيل اليه أن كل شيء قد انتهى ، وهل يعقل أن يتنكر لذكراها ، في هذا العمر المتقدم أو يفكر في الزواج مرة أخرى ؟ وهل يستطيع أن ينسى أن زوجته تركت له ست بنات .. أجل ست بنات دفعة واحدة ليس بينهن ذكر واحد ، تتراوح أعمارهن بين الثالثة ، والخامسة عشرة ، وتطلع (سيد) على الرغم منه للشرفة المقابلة لشرفته اثناء عودته من العمل .. ان الست (وداد) الأرملة ذات السبعة والثلاثين تتألق كعادتها كل يوم ، وتحاصره بنظراتها كانت صديقة المرحومة ولم يستطع سيد أن ينكر أنها كانت تفوق زوجته جمالا ونضارة ، ان طيف الست وداد لايفارق خياله وهو لم يتقدم به العمر كثيرا حتى الشعرات البيضاء التي تتناثر في رأسه قليلة العدد ، ان مظهره العام يوحي بانه كهل في الثالثة والاربعين .. كل معارفه يؤكدون ذلك كما تؤكد المرآة المثبتة في حجرة النوم واحساسه الذاتي يؤكد له أنه يستطيع أن يستمتع بالحياة ويقضي أوقات حلوة لكن آه من ذكرى المرحومة ، وآه من البنات الستة .. الخادمة هربت منهن، ولم تتحمل شغبهن وتدليلهن ، حتى شقيقته الأرمل هي الاخرى لم تستطع الحياة معهن أكثر من شهرين ، ثم فرت هاربة ، وهكذا بقين وحيدات الا من أبيهن، انه يقوم بعمل الاب والام والاخت الرشيدة والخادمة ، انه كل شيء بالنسبة لهن .

واختطف الاستاذ سيد نظرة الى شرفة الست وداد .. الحرارة تكاد تزهق الأرواح وهي في الشرفة كنسمة حلوة رخية والليل مقلق متعب ، ووجه وداد يبشر بالراحة والنعيم ، والوحدة قاتلة قاتمة ، ونظرات وداد كلها أنس وسمر وسلوى لكن ما أقسى ذكرى المرحومة ، وما أشق المسئولية ، مسئولية تحمل أعباء البنات الستة .

طاطا سيد رأسه ، وكز على أسنانه ، وحاول أن يتجاهل النداء الصارخ الذى ينبثق من عيني وداد ، وأن يكتم نوازع الاستجابة التي يرتجف لها جسده وقلبه وأسرع الخطى نحو مسكنه وهو يتمتم

— والله عال .. ياالله حسن الختام ، أناخذ زماننا وزمان غيرنا ؟ نحن في سن لايجوز علينا سوى الوقار واعداد العدة

لسنوات الاحالة على المعاش والتفكير فى الآخرة ، وفى مستقبل البنات طبعا ٠٠

وحاول جاهدا أن يبعد عن ذهنه طيف الست وداد وهو يدس المفتاح فى ثقبه المعهود٠٠ قابله البنات الستة دفعة واحدة ، وملأن أذنيه بالكلام الكثير المختلط والضجيج الذى لم يستطع أن يميز منه شيئا ، واستطاعت هذه المظاهرة والوجوه الصغيرة التى ترتفع اليه والابتسامات التى تشع فى قلبه الأمل والحب ٠٠٠

استطاعت أن تغرق أفكاره السانفة وأن تطغى على صورة الست وداد ، ثم ربت كتف تلك ، وقبل جبين هذه ، وسوى شعر الثالثة ، ومسح على وجه أختها ، ثم تطلع حواليه ، كانت الصالة مليئة بقصاصات ورق مختلف الألوان ، وببعض الاطباق الفارغة ، وبعدد من الاحذية والقباقيب المختلفة الاحجام ٠٠ وقطع الملابس والامشاط ، وبقايا خبز وطعام ٠

وغمغم فى شىء من الضيق :

ـ ماهذا ٠٠ لكأنكن تعشن فى حظيرة بهائم ٠

وتنهد سيد فى حسرة ثم قصدحجرته وخلع ملابسه وارتدى منامته ، وأحضر المكنسة واخذ يكنس ويمسح ، ويرتب الاشياء والعرق يسيل على جبينه الاسمر الشاحب ، ومن آن لآخر يتذكرالمرحومة وكيف انها كانت تكفيه مؤونة هذه المشقات ، وتستقبله لدى عودته من العمل باشة باسمة وتهيىء له سبل الراحة والاستقرار ، لم يكن يعلم ان عمل البيت ورعاية الاولاد مرهق لهذه الدرجة ٠ رحمها الله ، كانت فدائية من الطراز الاول ٠٠ مستحيل أن يجد مثيلة مستحيل حتى وداد نفسها ٠٠

آه ٠٠ عدنا مرة ثانية للست وداد ، لعنة الله عليها وعلى كل النساء ما عدا المرحومة ٠٠

وأخيرا جفف عرقه ، وغسل وجهه ويديه ، ثم هرول ناحية المطبخ لاعداد الطعام واستولى عليه الغيظ حينما وجد أن الأوانى جميعها لم تغسل بعد ، تنهد مرة ثانية وشمر عن ساعديه ٠٠ ولبس (مريلة) الشغل ٠

وهكذا لم يستطع الجلوس على المائدة الا بعد السادسة والنصف مساء ٠ ٠ كانت كل عضلةفى جسده تصرخ بالتعب والانهاك ، لكنه نظر الى البنات الجالسات حوله وهن يخطفن الطعام فى نهم نظرة كلها حنان واشفاق ٠٠ انهن بلا أم وهذا يكفى وحده ليجعلهن فى مأساة لايشعرن بحقيقتها ، وما كدن يشعرن بالشبع والرى حتى أخذن فى سرد مطالبهن واحدة وراء الاخرى ٠

ـ أريد مسطرة يابابا ٠

ـ القلم الحبر فقد منى

ـ أريد ممحاة وكراس

ـ قالت لى الأبله : انت ضعيفة فى اللغة العربية وفى حاجة الى درس خصوصى ٠

ـ الناظرة طلبت منا عشرة قروش

ـ مريلتى ممزقة من فوق الكتف

وهكذا ٠٠ وهكذا عشرات المطالب٠٠ والشكاوى التى لابد من البت فيها فورا وبدون تأجيل أو مناقشة ، وسيد فى هذا الجو رأسه يدور٠٠ ومطارق الصداع تدق بلا رحمة ، والرغبة فى النوم والراحة تحاول أن تغلق جفنيه ٠ ٠

رحمة الله عليها .. لم تكن تعرف أنها قد تموت بين يوم وليلة وكانت لها آمال كثيرة لو كانت تعلم لحاولت على الأقل أن تعطينى فترة تدريب . وان توجهنى ببعض النصائح والارشادات ، لكنها للاسف ماتت.. ماتت ومات الجنين والغريب أنه كان ذكرا .. لاول مرة كان ذكرا .. لطالما تشوقت اليه وحلمت بيوم مقدمه ،ووصت النذور والوعود ولكنه جاء أخيرا وميتا ، وأخذها معه .. انها ارادة الله .

توضأ وصلى بعد أن رفع المائدة ، ثم أخذ فى ترتيق أثوابهن وجواربهن .. وتلميع أحذيتهن .

وكانت صغراهن فى حاجة للمزيد من الرعاية ،انها فى حاجة دائمة للملابس نظيفة ، ولغسل ما يتسخ منها ، وهى دائما تصر على طلب الشيكولاته ، فاذا ما أحضرها لها طلبت الفاكهة ، وقبل ان تنتهى من تناولها تبكى من أجل المشروبات المثلجة وبعد أن تقذف بالزجاجة الفارغة تطلب فنجانا من الشاى الممزوج باللبن ..

أجل . .لابد.. والا فالبكاء والعويل والانزواء فى ركن .. لاشك أن الست وداد واقفة الآن فى شرفتها يفوح من أردافها العطر وتفتح صدرها الناهد لنسيم العليل الرطيب ، وتحلم بالرجل ولا شك انها تعرف ما أنا فيه من عذاب وتعب ، وقطعا هى الآن تضحك ملء شدقيها ، وتسخر منى ومن مأساتى ، وقد تتحامل على وتتهمنى بالرزانة السمجة ، بل الغباء الشديد ..

وجاءه صوت احداهن :

ـ بابا ..

ـ نعم .

الرئة .. همزه على ألف أم على نبرة؟

وكان هذا بداية لجولة تفتيشية على الكتب والكراسات ، وتأنيب المقصرة منهن ، والثناء على من نالت الدرجات العالية ، وتوضيح ما غمض ، ومساعدة من تحتاج الى المساعدة ، وهكذا حتى قاربت العاشرة مساء .

وخطا الاستاذ سيد نحو جهاز التلفزيون ، كان يريد أن ينسى تعبه وصداعه ، والصراعات التى ترهق روحه وجسده .

وصرخ سيد بعد أن فشل فى ادارة الجهاز : هل أتلفته واحدة منكن ؟

واختلطت الاصوات ..

ـ والله ما أنا .. نانى .. لا والله العظيم .. فيفى ، وحياتك .. يابابا نوال .. كذابة انها ثريا .

وصرخ سيد فى عنف :

ـ كفى .. كفى يااولاد المركوب .

وشهقت نانى وانهمرت دموع نوال على خدها ، وجرت ثريا صوب حجرة النوم لتحتضن الوسادة وتغرقها بالدموع .. أما صغراهن فقد ضربت الارض بقدمها وهتفت فى اصرار :

ـ لازم التلفزيون يشتغل .

وصاح سيد بأعلى صوته :

ـ هيا جميعا الى النوم .

استلقى على سريره واستمرت لحظات الهدوء المتاحة فى غفلة من الشياطين الصغار ، وعلى الرغم من انهداد قواه الا أنه بقى متيقظا .

كان يفكر فى الغد ، ومطالب البنات ومشاق عمله بالجمرك ، وهو موظف

هنا بالدرجة الثانية، وازدحام المواصلات وتوصيل الصغيرات للمدارس المختلفة .

ووقع بصره فجأة على صورة الزفاف كانت ثيابها بيضاء كاللبن الحليب .. وكانت صغيرة وخجولا .. عليها مسحة من جمال وادع رقيق .. رحمها الله . وكان وهو يقف بجوارها يتفجر حيوية وشبابا وأملا ..

وبعد سنوات كان كل شيء قد تغير ، هي قد غيبها التراب دون رحمة ، وهو غارق حتى أذنيه في هموم الدنيا . . ومشاكل الحياة .. ايهما أسعد هي في قبرها أم هو في مسكنه .. لا أحد يدرى ..

ولكن صورة الست وداد قد عادت الى ذهنه انها تفرض نفسها فرضا ، تدس أنفها على الرغم منه تأتي دون استئذان أو سابق انذار .

— بابا .. بابا .

— مالك يا عنايات ؟

— اريد أن أشرب .

— على عيني ياحبيبتي .

وغادر سريره وقطع أحلامه ، ومضى ليحضر لها كوب ماء ثم عاد .. انه ينوى أن يستغرق في النوم دفعة واحدة .. هذا أحسن حل ، وهو في نفس الوقت شيء ضروري وطبيعي حتى يستطيع أن يستعد للغد ..

وسمع ضـــجة منبعثة من الشرفة المقابلة . . الشبابيك والابواب تغلق أو تفتح لا يدرى .. وهي تسعل سعلة



منصبه ٠٠ انها دعوة غير مباشرة لكى يخرج اليها ٠٠

يخرج ؟ ٠٠ كيف ؟ لتذهب وداد الى الجحيم ٠٠ ان ساعة نوم تساوى عنده خمسين امرأة مثل وداد ٠

لكن لماذا لايستنشق نسيم الليل فى هذا الجو ويحظى بالفضاء الممتد دون حدود ، ولعله يخلصه من ضيقه وكربه٠

ـ بابا ٠٠ بابا ٠

ـ ياطول عذاب بابا ٠

ـ آه عندى مغص ٠٠

وانتزع نفسه وقصد الى الصيدلية الصغيرة ووضع فى نصف كوب ماء قطرات من زجاجة صغيرة ، ثم سقاها وعاد بعد أن أطفأ النور ٠٠ المأساة تتكرر٠٠ كل ليلة ٠٠ هذه تريدالذهاب الى دورة المياه وتخاف العفاريت، واخرى خائفة من الظلام ، وثالثة تشكو من البراغيث أو الباعوض ، والرابعة رأت حلما مفزعا ، فهبت من نومها مذعورة وأخذت تبكى والخامسة تشكو من أختها التى سحبت من فوقها الغطاء ، وتركتها للبرد ٠٠ وهكذا ينتهى الليل دائما دون أن تغفو عيناه ساعتين أو ثلاثة ٠

ـ يا أستاذ سيد ٠٠ يا أستاذ سيد٠

ووثب من سريره قاصدا الشرفة ٠٠ لكأنه يهرب الى الصوت الحنون الدافىء الذى ناداه ٠٠ انه يعيش يبذل الجهد والحنان دون أن تهطل على قلبه قطرات منه ٠٠ انه وحده يذوى ويحترق ٠ ٠ يذوب رويدا رويدا ٠

ـ من ينادى ؟

كان يعرف لكنه يتجاهل ٠

وغمغمت وداد بينها وبين نفسها : ـ

ـ يابن اللئيمة ٠٠ ثم قالت بصوت خفيض لكنه مسموع لديه :

ـ كم الساعة ؟

ـ مساء الخير ياست وداد ٠

ـ مساء النور ٠٠ ساعتى توقفت ٠

ـ الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ٠

ـ آه ٠٠ السهرة طالت ٠٠ تصبح على خير ٠٠

ثم قال بدون مناسبة ظاهرة :

ـ الاولاد عذبونى ٠٠ لم أنم حتى الآن ٠٠

قالت فى اشفاق مصطنع :

ـ مسكين مالك وما للعذاب دا

ـ وماذا أعمل ٠٠ لافائدة

ـ ابحث لك عن ست طيبة ترعاهن

ـ أتظنين أن هناك من تحتمل هذا الشقاء ٠٠ مستحيل

قالت فى نغمة ممطوطة :

ـ أولاد الحلال كثير

٠٠ ثم استطردت وهى تنسحب عازمة على اغلاق باب الشرفة

ـ تصبح على خير ٠٠

وعلى الرغم من الجهد الذى يبذله فى الصباح والمساء فقد استيقظ مبكرا فى اليوم التالى كانت ملامحه تشرق بغير قليل من البهجة والاستبشار وأسرع الى المطبخ وأعد طعام الفطور عندما تحلقت حوله الفتيات أخذ يصب الشاى ويقول:

ـ مارأيكن يابنات ؟؟ لقد قررت أن أحضر لكن « أبله وداد » انها مثل ماما تمام أهناك اعتراض ؟

وساد الهرج والمرج واختلطت الأصوات وهمست الكبرى يابابا ؟؟

ـ صحيح يا حبيبتى ٠٠ انها ستريحكن تماما ٠٠ أنتن فى حاجة الى قلب طيب مثل قلبها ٠٠

تطلعت اليه فى مكر ٠٠ كانت الابتسامة على شفتيها وفى عينيها أيضا وغمغمت فى خبث :

ـ الف مبروك يابابا

خطاب من فوق المشنقة

للكاتبة الألمانية
الزا ايشنجر

ترجمة : محمود ابراهيم الدسوقي

الكاتبة الألمانية الزا أيشنجر ما تزال على قيد الحياة وقد جاوزت زهرة العمر ولم تعرف بعد خريفه وقصة اليوم لاتمت الى الحرب بصلة مباشرة لكنها من أقوى الدلالات على أسلوبها الذى يحكى كما قال أحد النقاد عما للشيء وما عليه وعن الأمس واليوم وعن الممكن والمؤكد جدا معا فهو يجمع الأضداد فى شيء واحد • ليس فيه ما يتصل بالتاريخ ولا بعلم النفس وانما هو جماع تشبيهات تحيط بادق وأخص الماجريات فى حياة الفرد • وأول شرط فى رأى الناقد الذى أشرنا اليه لفهم الزه أيشنجر أن لا نرد فى الحال ما نقرأه لها الى ما ألفنا قراءته • وحسبنا وهى من عمد الأدب الألمانى الحديث أن نرضى رغبة القارىء العربى فى تذوق لون شعرى من ألوان هذا الأدب •

ومن قصصها القصيرة « المشدود الوثاق » و « الأمر المفضوض » و « المعلم الخاص » و « أطياف البحر » •

***

أغرب عنى ! ما معنى هذه العجلة ؟ كم تراك شانقا اليوم ؟ ألست آخرهم ؟ ثم ، ماذا يقوم بنفسك وأنت تسرع هذا الاسراع ؟ أتريد أن تنام ؟ أنا أيضا يا أخى ، أنا أيضا ، سينام كلانا ، ولن تغشى بعد ذلك أحلامى • انك تبدو وجلا ، ولكنت خليقا أن أفزع أنا ، وأن أستيقظ قبلك • أغرب عنى بحبلك !

وأنتم يا من تقفون تحت ! الى أية أركان تدفعكم ريح الصباح الرقيقة ؟ انه لا تكليف عليكم فى يوم تشتد فيه الريح ولا خروج • ألم أكن أنا أيضا لا أكلف

الا يوم تبعث بى أمى الى الخارج ؟ لكنى راض · وأنتم ؟ لا ؟

انكم تلازمون الظل أطول مما ينبغى وهناك فى الفناء تحت ألا يخيم الظلام ؟ فهلا صعدتم الى لتروا كيف تتعدد ألوان ثيابكم ، وكيف ينصع بياض قمصانكم ويتقد كالنـــار ؟ تعـــالوا الى ليزداد اضـــطرام خدودكم ، ولا تنتظروا حتى تأخذ الشمس ، وقد خنقهـــا العرق ، تتسلل الى أركانكم جميعا · انها هنـــا أكثر بكورا · هنا يكون ضحكها صادقا ، ووهجها ما يزال باردا · هنـــا تداعب الشمس الريح قبل أن تخنقها · هنـــا تكون الريح ما تزال أختا لها · وانى لأقول لكم : هنا تكون الشمس ماتزال تهب ، والهواء هو الذى يلتمع · ثم ان اليوم لآخر يوم أيضا ، وان الســـاعة كذلك لأول ساعة !

دعوا أطفالكم يصيحون واصـــعدوا الى ! لا تقفوا ساكنين هـــكذا تحت ! لا تحملقوا فى متلهفين هكذا ! · لقـــد أحرقت أفنيتكم وصوامعكم لكى يسمح لى بالوصول الى هذه الالواح · لقـــد لبثت ليالى كثيرة وحيدا ، وحيدا فى كل منها كما تكون الوحدة فى قاع البحر · وأنتم ؟ هل قتلتم ؟ كلا ؟ هل أضرمتم النار ؟ هل سرقتم ؟ لا شىء أصـــدق · اذن ففيم حق عليكم الموت اذا كان لا بد من موتـــكم ؟ انى أعرف لماذا يجب أن أموت ، فاصـــعدوا بالله الى ! مازلتم تأبون ؟ لـــكنى أقول لـــكم ان الألواح سوف تميد بكم اذا حدثتكم أنفســـكم بالرقص عليها ، وكل الحبـــال ســـوف ترتخى لحظة آن يفرغوا من فصل أجسامكم عن المشنقة · وفى غسق الليـــل تنعق الغربان بأحلامـــكم فوق كل الافنية · أفلا ترغبون ؟ ألا يحب أحدكم أن يعرف لماذا يموت ؟ هـــل أضرمتم النار قبل ميلادكم كى تولدوا للموت ؟ أتسلمون بأن أمهاتكم خففن عنكم النهاية من قبل وهن فى آلام الوضع ؟ انكم لا تحيرون جوابا · انكم تقفون تحت ساكنين كما لو كنتم قد شـــنقتم بالفعل ، كما لو كنتم فى الكثرة بحيث تتواصـــون فلا تسقط جثثكم هـــامدة من الموت · الا ما تحركتم ؟

أنسيتم اللبن ؟ ان أطفالكم يصرخون فانصرفوا الى منازلكم ، أو فقد يقع أن يضرم أحـــدهم نارا قبل أن يبلغ من العمر ما يستحق عليه الشنق · اذرفوا كل لهفة من أعينكم قبل أن تروعكم هذه الأعين · أما بكم من شوق الى الصمت الذى ينتظرنى ؟ هلا حاولتم أن تشبعوا من جوعكم ؟ عودوا الى منازلكم ! امضوا فى جر ظلالكم !

كم من العمر ما يزال باقيا لكم ؟ كم يوما ؟ كم ساعة ؟ كثير ، كثير ــ كم يبقى منها ؟

أريد أن أساعدكم · فهل لى أن أقرأ أكفكم ؟ هل لى أن أحصى الصـــلبان على جباهكم ؟ أيهـــا القتلة الذين لم تقتـــلوا قط ، ومضرمو النار الذين لم تحرقوا قـــط ، واللصـــوص الذين لا يجرؤون على السرقة ــ هدءوا : كم يبقى لك من العمـــر أنت ! يامن تقف تحت ، وأنت ! يا هـــذا الواقف عن يساره ، اياك أعنى · كم سنة تحيا فوق ما حييت ؟ لا تعلم ؟ فهل أنبئك أنا ؟ سنة · ثم هذا الذى الى اليمين ، كم ساعة ؟ ساعة ! والذى الى جانبى ، كم لحظة ؟ لحظة واحـــدة أقول لك · انكم لا تصدقوننى ، أقسم لكم بالأرض التى تنسحب من تحت قـــدمى ، وبالهـــواء الذى يكتنفه الضـــياء الى حد ألا تطمع

رئتاى المظلمتان فى استنشاقه طويلا ، وبالسماء التى تقع تحت قدمى بمجرد أن تميد الالواح ، ان أحدا منكم لن يعيش لنصف صيحة طائر أطول مما أعيش · ان أحدا منكم لن يعيش أطول مما كتب له لحظة أخرى ·

حاولوا بربكم وامضوا الى بيوتكم ! احتثوا أقدامكم ما استطعتم فستبقى كل خطوة هى آخر خطاكم ، وكل حفنة من الهواء هى آخر ما تتنفسون ، وكل مرة ترفعون فيها رؤوسكم المحمومة عن وسائدكم هى آخر مرة · احصوا ، احصوا ، فلن يزيد العدد · افعلوا ما بدالكم فسيبقى كل شىء واحدا فى هذا الضوء الساطع الذى ينشره الوداع فى هذا الضوء الذى يكشفكم أول ما يكشفكم ويلزمكم حدودكم ، ثم يخلقكم دائما من جديد ·

أليست وليمة الجلاد قبل كل ليلة ما تتناولون كل مساء ؟ ألا ينهض الدليل على النهاية فى أولادكم ؟ من ثم تحبونهم : لأنكم محكوم عليكم مثلى · لأنه من ظلالكم وحدها تتكون الارض الثابتة ·

أين كنتم خلقاء أن تكونوا لو أنكم لم تعرفوا نهاية ؟ أين ؟ فى غير مكان ذلك أن نهايتكم هى التى أوجدتكم ـ كالحبل الملتف حول رقبتى ـ انتظر يا أخى ، انتظر بالله ! دعنى أكمل ، دعنى أشيد بالنهاية فى هذا البكور المشرف ! دعنى أحبك يا أخى ، يا صاحب الوجه المرتاع ، فالخوف هو الذى يحول ابتسامك الى احترام ، النور قبل كل وداع ·

ذلك انه قبل أن كنت ، كانت نهايتك يا أخى ، فهى التى أنمتك ، ورعتك ، وصانتك ، وغذتك ، هى التى أحبتك ، وجعلت من أكاذيبك حقائق ، وما تزال تجعلك احدى الحقائق · ما تزال تحبك وترعاك وتصونك ، ولو جفتك النهاية ما كنت ، لكنك هكذا تكون ، تكون لأنك تزول ، ولأنك كنت ، ومن ثم ستكون · ولأن النهاية لا نهاية لها أبدا ، كذلك أنت لانهاية لك · من ثم اشنق يا أخى كثيرين آخرين ، حك رقعا فوق نعال ممزقة أو انظم أبياتا من الشعر · كم كنت تصبح عبثا لو لم يكن كل شىء تفعل عبثا ؟ هل كانت الشمس تطلع اذا لم تكن تغيب ؟ دعنى أحبك يا أخى ، دعنى أحب نهايتى التى تبقينى فى قيد الحياة ·

وأنتم أيضا ، يا من أنتم هناك تحت ، انكم قبل أن تلتفتوا تكونون فى خبر كان · ان رأسى أسرع فهو يلتفت من ثم أسهل · لفوا الحبل حول رقابكم حتى تروا الحمام الابيض يطير ، والريح تتبدى · وحتى يضىء الورد الأحمر ، والورق الأخضر ، وحتى تبذروا الثمار كل مرة لمرة واحدة ، ولا تحصدوا مرة لكل مرة · دعونى أحصد الآن يا اخوانى ، دعونى أحصد السماء التى لا تكون أعلى الا فوق أفنية المشانق · ان الحمام يحلق بمجرد أن تهبط الغربان ، ويمضى الليل ويبقى لى الصباح الأبلج يبدو فى لمعانه كقطعة الذهب التى لا أريد بديلا منها ، ولاأريد عوضا عنها بيتا أو حقلا ؛ كما لا أريد بهذا البكور مساء ·

ان الوقت يسرع ، والشمس تتسلل من الصقالة الى أسفل · انها تنساب بينكم وتجعل نفسها فى متناولكم ، وتنحدر ، وتزداد فى انحدارها عمقا ، وتعلو وتهبط ، وتزداد علوا ، وكلما

ارتفعت ، بعدت على الدوام فى هبوطها فوقكم غورا ، حتى يتبين فى الظهيرة العالية أول ما يتبين أن هبوطها وحده ينتزعها من التراب ثانية ، وأنها يجب أن تهبط الآن لتبلغ السماء فوق ظلالها من جديد . لكنى لا أنتظر هذا الوقت الطويل ، فلا ينبغى أن يحرقنى الضياء ولا أن أتفصد بعد الآن من جميع المسام عرقا . ادفعوا الألواح الآن من تحت قدمى وانصرفوا . فيم استمراركم فى وقوفكم وتمزيقكم شفتى بحملقتكم؟ لقد أضرمت النار فيما لم يكن لى ، وشدوت بأغنية لم تكن نابعة منى . من أجل ذلك انسونى ، أتسمعون ! لا أريد أن أبقى قيد ذاكرتكم ، فلن تدركنى ، ولن تبادر الى ، ولن تبعثنى . لا أريد أن أحيا فى ثغاء أحقادكم — كلا — ومع ذلك أريد أن أعيش ، فانسوا اذن ، ودعوا لحمى يهرأ فى عظامى كى تضىء ، فانى أريد أن أعيش !

أسرع ، وشد الحبل ، وزد وثاقه ، فلا أعود أصبو الى العرق أو أتوق الى الفزع فى الليل اذا انتصف ، ولاأطلب اختراق الباب كرة أخرى لأرافقكم ، كلا ، فأرضى هنا ! ان أنضر الحقول تنبت فى الوداع ، وأعمق الغابات تنجم فى خشب المشنقة .

صدقونى بربكم ! تعالوا الى ! ودعوا يا اخوانى واحدا يحبكم لن تستطيعوا بعد اليوم خديعته ، واحدا يجرؤ أن يرضاكم فى نومه كما أنتم . تعالوا ، تعالوا تحركوا أخيرا ! شقوا الطريق لأنفسكم بأنفسكم .

مكانا لرسول الملك ! مكانا لمبعوثه ! هدوءا ، لا تقلدونى ! مكانا ، مكانا — لمن ؟ ماذا تريد يا أخى ؟ أتريد أن تسخر منى بأنك تفعل ما أبغيه ؟ ماذا تجلب لى ؟ ماذا تمسك فى يديك الحاويتين ؟ تكلم ! بل لا تقل شيئا ! لا تحل ضحكى الى دموع ، ولا دموعى بعد ذلك الى ضحك ! دع نفسك يزهق الكلمة التى تريد أن تنطقها . انى أرى فى عينيك التائهتين ما تجلب لى . أليس حكمك هو العفو ؟ أقدر لى أن أعيش ؟ .

عد من حيث أتيت ! قل لمن أرسلك انى لا أريد أن يكون لى بالعفو شأن . فلم أعد أصدق خوف البلاد ، وضوء القمر ، وراحة البال . قل له انى لاأدع أحدا يتخذنى مضحكا أو يجعلنى أبنى له من الرمل البليل قصورا ، فقد بات الفيض الذى يغمر شطآنه أقوى منى . وفوق المد الذى يرسله هذا الفيض لا أذرع قرطما . قل له ان أرضه حيث تكون لو أن فيضه انحسر لحظة . قل له انه لأحب الى أن أتوجه الى النوم مفتوح العينين من أن أستيقظ مغمضهما . ولأخلق بى أن أقصد الى الملك الذى لا يتخذ مهرجا . ان الملائكة لا تضحك ، فاذهب اذن ولا تظل واقفا كمن يريد أن يكون مرآتى .

من أنت ؟ أتراك الحرمان الذى يولد اللهفة الحين بعد الحين ؟ انك لأفقر من أن تمنحنى مرة أخرى ما لم أطلب . لست أريد أن أكون اللهفة الصاعدة من الحرمان . لا ترفع كتفيك فى استخفاف هكذا . خير من ذلك أن تقول لجلادى ان يعجل بشنقى كى اختفى من هنا ، كى تستطيع أخيرا أن تخلو الى نفسك تحدثها . قل له — أين ذهب ؟ أين جلادى ؟

لقد انصرف جلادى . اختفى كاللص وسرق الحبل من عنقى ، نادوه ليرجع !

أن عليه أن يرد الحبل الى ، فلا يجوز أن يسلبنى السير الأحمر قبل أن يكون لى ، لا يجوز لأحد أن ينتزع من يدى مجرد فقر •

ابقوا ، ابقوا ، لاتتسللوا ! لاتدعونى وحدى الآن فى الحداد الذى أسبغ على فى صورة العفو ثم هو لا يرحمنى • لقد رددت لثانى مرة الى الرغبة التى لم تحدنى • ما تزال السماء لا تجدنى من الخفة بحيث أرضى أن أفقد الأرض التى تحت قدمى • لا مفر من أن أمضى فى مسيرى فوق الحجارة ، فوق هذه الأرض التى لا تشدنى اليها بالقدر الكافى لأن أخلد فيها الى الراحة فلا تدعنى لكواكب أخرى •

لقد جئت الى العالم مرة أخرى من يقول لى مرة أخرى ان القمر مصباح والسماء قبه ؟ من يعلمنى أنا الذى لا أعرف سوى البحر من حول الصخور جميعاً ، أن أركن الى الصخر فى البحر ؟

لا تدعونى وحدى الآن ! خذونى معكم ! ألم أقل والحية ما تزال ملتفة حول عنقى ان أعماركم ليست أطول من عمرى ؟ ألم أقل ان كل خطوة من خطاكم هى آخر خطاكم ؟ هكذا ستبقى خطاى اذا أنا صاحبتكم • هكذا لاينسخ العفو الحكم ولا يلغى الحكم العفو • هكذا لا يسمق الخشب بلا نفع • هكذا يلقى ظله فوقنا جميعا ويقتسم ضوء الأنوار حيث يستقر •

لا تهربوا منى ! لا يدرككم خوف من أن أضرم النار ثانية فى محاصيلكم ، فسيحيلها غيرى أيضا ضياء ورمادا • يبقى منها ؟

وانى لاحب ان اترقب هذا فى سكون.

أريد أن أبذر القرطم فى رمل المد ، وأحصد الصوامع المحرقة ، أريد أن ابنى قصورا • أريد أن أكون مضحكا للملك ، وأن أمرح فى حدائقه ، وأن ألوذ به • أريد أن أنشر الأشرعة فى الهواء الساكن ، وأدير المحرات فى كافة المستنقعات • أريد أن أنظر الغد الذى هو اليوم ، وليهجرنى أبنائى • أريد أن أرفع قبعتى حين تضج المدقات فى الأجراس ، ثم أمضى فى سبيلى كما لو كنت آيبا الى بيتى •

وسواء أكانت السماء هى القبة أم كانت النار التى تحرق القبة ، فانى أريد أن أحصد ما وعدت ، أن أحصد السماء •

الشخصيات الروائية



بقلم : محمد عبد الحليم عبد الله

الشخصية القصصية بالنسبة للروائى مستمدة من أعمق ذكرياته وأصدق تجاربه ويتم تكوينها فى جو نفسى متعادل · لا يشوبه الانفعال الحاد الذى يكون بمثابة الحرارة القاتلة بالنسبة للأحياء ولا الفتور الذى يتنافى مع طبيعة نفس الفنان · **فالشخصية القصصية اذن** بالنسبة للكاتب شىء « يحتضنه » فى **«جو نفسى» معين ··· صالح لبعث الحياة** ··· الحياة الجديدة القديمة المطابقة المخالفة **فى وقت واحد · من الدنيا التى يعيش فيها** فحياة **الشخصية القصصية** قديمة لأن **الكاتب أخذ أصلها** وهى جديدة أيضا لأنه أضاف على واقعها واقعا وعلى ملامحها ملامح · فهى اذن مطابقة ومخالفة ··· أصبحت واقعا أعلى من الواقع · أو واقعا أجمل من الواقع · أو واقعا مختصرا أشبه شىء بالعينة التى تغنى عن كل العينات · والنموذج الذى يلغى بقية النماذج · والحركة الخاطفة التى تغنى عن المشوار الطويل ·

وأكبر دليل على أن الشخصية القصصية أعلى قدرا فى نظر الانسان الانسان وكذلك الانسان الفنان هو مسارعة الرجل العادى الى اطلاق اسم أى شخصية فنية مشهورة على رجل آخر فى مناسبة من المناسبات ·

فعندما يطلق الشاب على زميل له لقب « روميو » أو يطلق أحدهم على الآخر لقب « ترتوف » أو « ريا وسكينة » أو غير ذلك · فمعنى هذا أن الكاتب استطاع أن ياخذ النموذج العادى من حياته ثم يحتضنه ثم « يفرخ » من جديد ويخرج نموذجا قديما جديدا مطابقا مخالفا قادرا ــ بما جمعه من صفات ــ على الغاء بقية النماذج التى هى من قبيلته لأنه صار عند القصصيين أو قراء القصة فى منزلة «التعريف» عند علماء المنطق ··· شيئا جامعا مانعا · جمع حقائق قبيلته كلها فهو اذن يمثلها ولا داعى للحشد · « دون كيشوت » نائب الحمقى والمندفعين الذين يعملون بلا طائل · و « روميو » الذى وهب نفسه للحب خالصا مخلصا بريئا مبرأ · و « راسبوتين » ذو الظاهر التقى والتدين الرسمى والفسق الحقيقى الأكيد ·

والشخصية القصصية لها علاقات بالروائى ظاهرة ودفينة أما العلاقات الظاهرة فيمكن ادراكها فى بعض أعمال الروائيين اذا ما طابقت أو قاربت سيرة أحد الأبطال

سيرة المؤلف أو كانا من مزاج نفسي واحد • ولكن هناك علاقات دفينة بين الروائيين وشخصياتهم لا يمكن أن تكون مثل الحالة السابقة الذكر بل هى أشبه بالابتكار العلمى • مقدرة وممارسة ومثابرة • تجعل الروائى يصل الى خلق شخصيات لايمكن أن تمت حياتها الى حياته ولا تجاربها الى تجاربه كانسان يعيش بل الى تجاربه كانسان يدرس • فكما أنه ليس من الممكن أن يكون اختراع المطبعة له علاقة بمزاج مخترعه أو سلوكه بل علاقته كلها بالملاحظة والدرس فان كثيرا من الشخصيات الروائية ليست ذات علاقة بميول المؤلف أو سلوكه والا فأين رأى شكسبير كل هذه العجائب وينطبق هذا الى حد أكبر على كتاب قصص المغامرات والقصص البوليسية مثل ديماس وأجاثا كريستى •

فبعض هذه الشخصيات يتحول الاحساس الفنى حيالها الى منطق علوم الرياضة فيرسمها المؤلف كما يرسم احدى (المعادلات) وتكون الشخصية فى هذه الحالة أقرب الى الابتكار العلمى وأبعد عن بنوتها للمؤلف من حيث سلوكه وتجربته كانسان عادى أولا وقبل كل شىء •

ويلاحظ أن (الأساطير) أكثر امتدادا على خط التاريخ الأدبى وأطول عمرا بل وأسبق من الشخصيات القصصية التى اشتهرت فى العالم • وذلك راجع الى أن الأسطورة بما تحويه من حوادث وشخصيات أقدر على خلب عدد أكبر من القلوب وسحر عدد أعظم من خيال الناس • لقدم الأسطورة وخروجها فى تكوينها عن اطار الواقع والمألوف ولاقتناع النفوس مقدما بالغاء كل هذه القوانين الطبيعية ثم لقدرتها اخيرا على تحويل الكبار الى أطفال مع مراعاة الرمز الساطع فى كل حلقة من حلقات الأسطورة • فأسطورة (سنديلا) و « بندورا » و « ست الحسن والجمال » و « بغلة العرش » و « ايزيس وأزوريس » تجعل الناس ــ على مختلف المستويات ــ يسارعون الى ذكر الشخصية الأسطورية • أما الشخصية الروائية فانها تاتى فى المرتبة الثانية من الشهرة •

لكن شخصية الاسطورة وشخصية الرواية يمران فى ظرف متشابه هو أن الزمن والناس يعاونان المؤلف أو ينوبان عنه فى تجسيد الشخصية ورفعها الى أعلى ووضعها على قاعدة مرتفعة أشبه بقاعدة تمثال يراه أعظم عدد من الناس • فقد قالوا ان شخصية « عطيل » لم تكن بعد مرور بضعة أعوام من خلقها على هذا القدر من الشهرة • فكما أن قارىء الرواية يضيف كثيرا من خيالاته واحساساته ومعارفه ومعلوماته للرواية فى اللحظات التى يقرؤها فيها فكذلك يعمل الناس كمجموع فانهم يعيدون مرة بعد مرة خلق احدى الشخصيات التى يصنعها روائى ما بنجاح (ربما كان عاديا فى زمنه) وتظل أيدى الناس تتلقف الشخصية من يد الى يد • وفى كل مرة يضاف شىء جديد الى الشخصية هو مزيد من شعور الناس بها • حتى يمر الوقت الكافى لتصبح الشخصية عالمية ربما فى قوة وشهرة شخصيات الأساطير •

ومن الادب العربى القديم اشتهرت شخصيات • لم تكن من خلق خيال مؤلف بل هى شخصيات وجدت • غير أن خيال الناس خدمها وان كانت حقيقية • فاذا

كانت شخصية « مادر » البخيل • و « حاتم » الكريم • و « أبو نواس » الماجن كلها شخصيات حقيقية فان شهرتها ـ فى رأيى ـ ليس فيما عملته فقط بل فيما عمله الناس منسوبا اليها • فكل نكتة أو « مقلب » أريد له الشهرة ينسب الى ابى نواس وكل نادرة بخل أو كرم أريد لهما الشهرة نسبا الى مادر وحاتم • وكأنما هناك شخصيات نصفها من خلق الله ونصفها الآخر من خلق الفنان الذى هو فى هذه الحالة « الناس واحساسهم » • الناس الذين نقلوا الاساطير عبر القرون •

وفى روايتنا العربية التى ولدت بعد الثلث الاول من هذا القرن شخصيات يمكن أن تكون مشهورة فى حدود الوطن العربى أولا ثم فى حدود العالم كله •

غير أننى أرى أن ذلك يحتاج الى مراحل :

أولا : المرحلة الزمنية • يعنى مرور وقت كاف لتحويل الشخصية فى رواية عربية ما الى شخصية تجريدية صرف •

ثانيا : تبدأ أولا مرحلة عامة كأن نقول هذا الرجل مثل شخصيات توفيق الحكيم أو تيمور أو نجيب محفوظ أو السباعى أو البدوى أو غيرهم •

ثالثا : بعد هذه المرحلة يبدأ الناس فى التركيز على شخصية معينة لكاتب أو عدة كتاب عرب حتى تشتهر •

رابعا : يأخذ الزمن فى المرور والشخصية فى الشهرة حتى تصبح تجريدية صرفا بحيث اذا قرأتها بعد شهرتها أحسست أنها اثنين • شخصية مشهورة وأخرى روائية تحمل اسمها لكنها أقل منها فتنة وسحرا وتألقا •



غضب

بقلم: ارسكين كالدويل
ترجمة: منيرة عبد الجواد دكروري

كانت مسز جارلى تجلس متصدرة مائدة الطعام تشرب القهوة وتقرأ الجرائد بعد تناول الافطار عندما سمعت صوت احد الاطباق يقع ويتحطم على ارضية المطبخ . كانت تجلس وحيدة فى الحجرة ، لقد تناول النزلاء الطعام وانصرفوا وكذلك غادر مستر جارلى المنزل .

وعندما جرت السيدة جارلى الى المطبخ ودفعت بالباب ونظرت الى الداخل ، كانت ليسى ، الطفلة الزنجية الصغيرة ، ترتعد فزعا فى احد الأركان خلف الموقد .

وقالت مسز جارلى .

— اذن فقد كسرت طبقا آخر من اطباقى ! هل فعلت ؟

واخذ غضبها يشتد ، وكلما طال وقوفها وتطلعها لليسى ، كلما ازداد غضبها واوشكت على الجنون .

— « وهكذا يصبح ما كسرته خلال هذا الشهر ياليسى طبقين ، وهذا كثير على ، اكثر مما استطيع السكوت عليه . »

اخذت الطفلة الزنجية ذات التسع سنوات تتحرك بوصة بوصة مبتعدة اكثر الى ركن الغرفة . ولم تكن تعرف مطلقا ما الذى يمكن ان تفعله بها مسز جارلى ثانية .

وصاحت فيها السيدة

— تعالى هنا الى وسط الغرفة ياليسى ، تعالى هذه اللحظة وانا اكلمك .

تقدمت الفتاة بضع خطوات وجسدها كله يرتعد وهى ترقب مسز جارلى ، وعندما وصلت الى منتصف الطريق الى وسط الغرفة ، جرت اليها مسز جارلى وصفعتها على جانبى وجهها ، ولقد جعلتها الصفعات تحس بدوار ولا تدرى اين هى او ماذا تفعل ، ولفت ذراعيها حول راسها لتتقى الصفعات . وصاحت فيها مسز جارلى

ـ ايتها الزنجية الصغيرة النتنة !..

وقبل ان تتمكن ليسي من الهروب الى الركن خلف الموقد ، اختطفت مسز جارلى المكنسة واخذت تضربها بها بكل قوتها على راسها وكتفيها وظهرها. وبدات الطفلة فى الصياح وارتمت على الارض وركلتها مسز جارلى وهى لاتزال ملقاة على الارض تنتحب وترتعدوصاحت فيها مسز جارلى وهى تضع المكنسة جانبا .

ـ الآن ، هيا انهضي من مكانك وابدئي فى تنظيف البيت ، اريد ان اجد كل غرفة من هذا المنزل نظيفة تلمع كالمرآه قبل الساعة الثانية عشرة .

وتركت المطبخ وذهبت الى مدخل البيت .

لقد شكت ليسي من العمل ، شكت من غسل الكثير من الاطباق وتنظيف العديد من حجرات المنزل . قالت انها تتعب اكثر من اللازم من تنظيفها كل يوم ، ولقد صفعتها مسز جارلى لكل كلمة تفوهت بها وقالت لزوجها :

ـ اذا هربت هذهالزنجية فسأجلدها حتى لايتبقى منها شيء .

فقال مستر جارلى

ـ لا يمكنك توقع الكثير منها ، انها ليست كبيرة بالقدر الكافى للقيام بأعمال شاقة كثيرة .

فقالت زوجته

ـ انك تتحدث كما لو كنت تدافع عنها ، انى أطعمها واكسيها وآويها ، واذا لم تقر بالفضل من نفسها فسأجعلها أنا تعترف به .

وهربت ليسي . هربت ليسي وعرفت مسز جارلى أنها هربت . ولقد توقعت أن يحدث هذا ، ولكنها عادت واعتقدت أنها قد اخافت الصبية بالقدر الذى يكفل بقاءها بالمنزل . لقد احضروا ليسي الى المدينة من الريف عندما كانت فى الرابعة من عمرها . وطوال السنوات الثلاث الماضية قامت بكل اعمال البيت .

وقال جارلى

ـ لقد حان الوقت لتدعيها ترحل . فان تستطيعى ان تحتفظى بها طويلا بعد ذلك دون أن تدفعى لها أجرا .

ـ ها انت ذا تعود ثانية للحديث نيابة عنها ، انى ادفع لها أجرها طعاما وفراشا وهذا كل ما يجب ان تنال . ولن ادفع لها سنتا بالاضافة الى ذلك .

هز جارلى راسه وهو لا يزال غير مقتنع . كان خائفا من شيء واحد ، أن تحدث بعض المتاعب اذا احتفظوا بها وقتا آخر ، فكل فرد فى المدينة يعرف انهم يستبقون ليسي لتقوم بالعمل ، وقد يفكر احد الاشخاص ان يسبب لهم بعض المتاعب . وزوجته تكلف الطفلة باعمال اقسي من أن يقوم بها شخص بالغ .

ـ حسنا ، اريد ان تعود ليسي ، اريد أن تحضرها لى ثانية ، أريدها ثانية حتى صباح غد ، قبل وقت الافطار .

نظر جارلى الى زوجته ولكنه لم يقل شيئا ، فهو يعتمد عليها فى معيشته ، فبدونها هى والنزل لما عرف ما الذى يمكن ان يقوم به ، انها تدير النزل وتدفع « الفواتير » وعندما تكلفه بعمل شيء لا يستطيع ان يقول انه لن يمكنه القيام به.ونهض وسار فى البيت متجها الى الشرفة الخلفية .

خلف المطبخ كانت توجد حجرة صغيرة ذات طول وعرض كافيين فقط لاحد شطرى سرير شق خصيصا لليسي . ولم يكن بالحجرة أشياء كثيرة ، فلا شيء سوى السرير . والآن لا شيء آخر ، حتى الثوبان او الثلاثة الذين

صنعتها زوجته لليسي من بعض ثيابها القديمة قد اختفت . لقد هربت ليسي ولا يوجد شيء يشير الى انها تنوى العودة . لقد اخذت كل ما تملك .

وعندمارای جارلی زوجته بعد نصف ساعة استوقفته فى الردهة وبدا فى وسطها وصاحت فيه .

ــ حسنا ! هل تتوقع ان تجدها مختبئة تحت احد المقاعد فى مكان ماقى المنزل ؟

فسألها

ــ واين يمكنني البحث عنها ! وانى لى ان اعرف آية طريق سلكت ؟

فقالت مسز جارلى

ــ وكيف اعرف ؟ لو انى اعرف لذهبت الى هناك وعثرت عليها بنفسي ، اعثر على ليسي واحضرها لى ثانية حتى وقت الافطار من صباح الغد اذا كنت تعرف ماهو صالحك ... واذا لم تفعل .. واذا كنت لا تعرف ..

اخذ جارلى قبعته وخرج من الباب الامامي ، وسار فى الطريق تجاه حى الزنوج فى المدينة ، كان هذا هو المكان الوحيد المحتمل ان تختبىء فيه ليسي مالم تكن قد ذهبت الى الريف .

وفى الحال ، وبمجرد ان عبر اول بيت زنجى فى الحى ، انتاب جارلى شعور بأن كل شخص فى الحى يراقبه من خلف الابواب والنوافذ وأركان الابنية . واستدار ملفتا راسه بسرعة ، وحاول ان يضبط احدا يتلصص عليه ، ولم يكن هناك احد فى اى مكان . وبدا المكان مهجورا تماما فقال لنفسه

ــ ما كان فى امكان ليسي ان تعرف احدا من هؤلاء الملونين . انها لم تترك البيت مطلقا ، ولم يحضر احد ابدا الى هناك لرؤيتها ، ولن اندهش اذا لم يعرف احد سواى انا وزوجتى ، انها لاتزال حية ــ لا ، ليس فى امكان ليسي أن تأتى الى هنا بين هؤلاء عندما تهرب .

واستأنف السير محاولا التفكير اين يمكنه البحث عنها . وقرر انه ما كان فى مقدورها الذهاب الى الريف لانها راسها اعمق واعمق تحت ذراعي وعلى كل فالمكان الآخر الوحيد بالنسبة لها لتختبىء فيه هو هذا الحى . واذا لم يجدها هنا ! ولكنه يعتقد انه سيجدها مختبئة خلف امراة زنجية قد تكون آوتها .

كان جارلى قد قرر تقريبا العودة الى البيت وان يخبر زوجته انه قد بحث فى كل بيت فى الحى دون أن يعثر على ليسي ، ولكنه عندما توقف وشرع فى العودة ، بدأ يفكر ثانية فيما ستقول زوجته وتفعل ، وربما تركب راسها وتطرده هو من البيت اذا عاد لها بدون ليسي .

وعندما استدار واستأنف السير فى احدى الحارات وقع نظره على احد البيوت صدفة فطرق بابه وانتظر . لم يكن هناك ادنى صوت فى اية مكان برغم وجود نار مشتعلة تحت اناء غسيل فى الفناء . خطا الى مدخل البيت ونظر الى الداخل . وفى ركن الغرفة كانت تجلس سيدة زنجية ضخمة تتارجح فى مقعدها الى الامام والى الخلف بلا مبالاة وعلى حجرها تجلس ليسي مختبئةفى ثنايا صدرها . كانت الصبية ملتصقة بالمراة ، مخفية ستكون اخوف من أن تقدم على ذاك . السيدة .

قال جارلى وهو يحملق فيهما .

ــ هالو ايتها العمة جراسي ؟

فسألته العمة جراسي بجفاء

ــ ما الذى تريده من هنا ؟

ــ كنت فقط أبحث

ــ فقط تبحث عن ماذا ؟

ـ حسن ! عن ليسي فيما اظن

ـ لن يفيدك هذا فى شيء ! ستضيع وقتك فقط بالحديث عن ذلك .

ـ الواقع انى لم اكن اعرف اين هى

ـ ولن يفيدك كذلك أن تعرف اين هى انك تستطيع ان تذهب وتخبر زوجتك تلك انها ستبقى حيث هى .

جلس جارلى على مقعد بجوار الباب وقد ضمت المراة الزنجية ليسي بشدة واخذت تهزها الى الامام والى الخلف. ولم تنظر ليسي اليه بتاتا وقال جارلى

ـ الحق ان زوجتى كانت قاسية بعض الشيء على ليسي فى السنوات الثلاث او الاربع الماضية ، اظن انها كانت اقسي قليلا مما يجب أن تكون .

فقالت العمة جراسي

ـ لن تعود الطفلة ثانية لانها ستبقى معى هنا منذ الآن . يجب أن تخجلوا من انفسكم ايها الناس البيض لمعاملتكم الملونين هكذا ، انت تعرف جيدا وتدرك تماما انه ليس من العدل جعل ليسي تخدمكم طوال الوقت دون ان تعطوها سوى قليل من الثياب البالية المصنوعة من ثياب زوجتك القديمة بعد ان تستغنى عنها وما يتبقى من فضلات فى المطبخ .

وتمنى جارلى الا تسرع العمة جراسي بعد ذلك فى الحديث عن الطريقة التى كانت زوجته تصفع بها ليسي وعن ضربها لها بالمكنسة ، وتمنى الا يعرف احد شيئا عن ذلك .

وقالت العمة جراسي

ـ عندما تعود الى البيت ، اخبر زوجتك انى اخذت ليسي وانى سأحتفظ بها ، قل لها ان تأتى الى هنا بنفسها وراءها اذا تجرأت ولكنى لا اعتقد انها ستجرؤ لانها تعرف ان ما سأقوله لها سيجعل اذنيها يحمران خجلا ..

نهض جارلى والقى نظرة اخرى على ليسي . لم يدرك ابدا انها صغيرة الى هذا الحد من قبل ، فسمع انها فى التاسعة من عمرها وانها لا تبدو اكبر من طفلة فى السادسة او السابعة من عمرها ، واتجه ناحية الباب ولم يقل كلمة واحدة .

وفى الحارة ، خارج المنزل ، استدار ثانية ناحية البيت . سيحين فى التو وقت العشاء ، ان الوجبات تقدم فى اوقات محددة ونظر الى ساعته ثم اسرع يقطع الشارع فغادر الحى . وفى الطريق الى البيت اخترق قطعة أرض فضاء حتى يتاكد انه سيصل الى البيت فى وقت مناسب قبل الطعام .

كانت زوجته تقف فى الشرفة الامامية فسألته عندما رأته

ـ حسن . هل وجدت ليسي ؟

فقال جارلى .

ـ ستعود قبل الافطار . لقد قلت لى ان هذا هو الوقت الذى يجب أن تعود خلاله .

الم تقولى ذلك .

ـ هذا هو ماقلته ، اذا لم تكن هنا حتى ذلك الوقت فيمكنك اذا أن تستعد لتقوم ببعض النشاط فى مكان آخر .

فقال وهو يسرع خلفها مخترقا الردهة الى حجرة الطعام حيث التف النزلاء حول المائدة

ـ سابذل اقصي جهدى

وانسل جارلى الى الحجرة وجلس على مقعده دون ان يلاحظه احد . لقد وصل فى الوقت المناسب ليلحق نصيبه من اول طبق يقدم على المائدة .

الضباب

رواية مسلسلة
بقلم
ثروت اباظة



- ٨ -

أشرقت الفرحة على بيت زين العابدين اشراقة لم يكن البيت يتوقعها ، بل كان سيد البيت ابعد الناس عن التفكير فى أن أمله هذا قد يوافيه التحقيق ٠ ومن أين وقد مرت بزواجه السنوات الطوال ومحاولات زوجته لاتقف على طول هــذه السنوات ٠ وما كانت اطاعته لهـــا فى الذهاب الى الطبيب الا اذعانا يائسا فما كان يحب ان يتعلق املها بشىء ويقصيها عنه ٠ ومن حيث لا يحتسب اشرق الامل وتحقق وانجبت زوجة له ابنة ٠ **نعم** ابنة ٠ وماغض من فرحته ان الوليد بنت

وليست ولدا • انما احس الفرحة كاملة لاينتقص منها شيء • حين حمل الفتاة واحس خفق قلبها بين يديه وسمع صراخها العريض احس ان الله قد وهب له حياة ثانية يمسكها بين يديه• بل انه احس انه يمسك الحياة كل الحياة بين يديه ، وحين سرى هذا المعنى فى كيانه وأحس به فى اعماقه يتملكه جميعا احس دموعا عجيبة تطفر الى عينيه كأنها فيض فرحة لم يقو جسمه الصغير على ضخامته ان يتسع لها واقسم بينه وبين نفسه ان يهيىء لهذه الفتاة من غدها خيرا ، وأقسم بينه وبين نفسه ان يكبح جماح شهواته حتى يبقى من المال مايرد الحاجة عن هذه الطفلة الصغيرة التى ماتزال تسعى فى الهواء على أربع نحو مستقبل جديد وكالعابد قد أتم طقوسه ، أعاد زين العابدين الوليدة الى امها ثم قبل الأم وقبل الوليدة وخرج من الحجرة ثم خرج من البيت ونظر حواليه ، ونظر الى السماء ودارت عيناه ودارتا فوجد الطيور على أعراف الشجر مستقرة الجلسة مطمئنة هادئة شأنها دائما كلما اتخذت من أعراف أشجاره مكانا لها • وفى هذه المرة لم يعجب للطيور مقيمة على أشجاره على رغم الاجنحة التى تتمتع بها ، بل عجب من نفسه كيف كان يريدها ان تظل سابحة فى السماء لاتراح الى عش مطمئنة ولا تستقر الى بيت آمن كاشجاره هذه • وانعم زين العابدين النظر فيما تخفيه اعراف الشجر عن العيون، وأنعم حتى اذا رأى عشين مخبأين بالأوراق انشرح صدره واحس بالسرور والفرح والاطمئنان تشيع فى نفسه جميعا •

أما فرحة بهية هانم بابنتها فقد كانت توشك أن تصبح جنونا يحتاج الى من يكبح جماحه ، وهى معذورة ، فلم يكن انجاب هذه البنية مجرد انها اصبحت اما وما هذا فى ذاته بقليل ، انما هى بهذه البنية الصغيرة ترد كيد الكائدات من اهل زوجها اللواتى كن يدعين انها عاقر لن ترى لنفسها اطفالا أبد الدهر وكن يسرفن فى الكيد فيغرين زوجها ان يتخذ لنفسه زوجة اخرى ، وان انجابها أيضا انقاذ لها من هذا الفراغ الذى كانت تعانيه فى ايامها الطوال بالقرية ، لقد اصبحت اما ، اصبحت تؤدى الوظيفة الكبرى فى الحياة ، انها تشارك الحياة فى تكوين الناس ، انها •• هى نفسها اصبحت حياة وتمد بالحياة روحا اخرى ، روحا تحيا وتنبض ولها قلب يخفق وعقل سيفكر ويدان ورجلان ، انها ام•• أم •• قد لاتعنى هذه الكلمة شيئا لسيدات كثيرات • اما لها هى •• هى التى سعت الى هذه الامومة بكل دقة من دقات قلبها على مدى السنوات الطوال التى تزوجت فيها ، وهى التى لم تترك سبيلا الى هذه الامومة الا سلكته •• امالها •• لها هى فكلمة أم القصيرة الحاسمة هذه تعنى لها كل شيء ، لم تعد تريد من الحياة شيئا آخر ـ لا •• لاتريد ولدا ، لا تريد الا ان يطيل الله عمر ابنتها هذه ، فانها هى التى منحتها هذا اللقب ، وقد كانت تقول ، ياطالما قالت انها على استعداد ان تتنازل عن احدى عينيها لتنال هذا اللقب ، وقد كانت جادة فيما تقول ولا احد يدرى ان كان منبع الجد فيما تقول ان احدا لن يطلب منها عينا ليعطيها وليدا أم لا ، ولكنها كانت جادة على اية حال ، فكيف بها وقد جاءها الوليد دون ان تتنازل عن عينها • لا ، انها لاتريد من هذه الحياة الا ان تبقى عليها لقبها «ام» دون زيادة وفى غمرة فرحتها امرت ان يشترى

خروف وثلاثة من الديكة الرومية ، وخمسة أزواج من الفراخ وعشرة أزواج من الحمام وان ترسل جميعها الى الدكتور نجيب محفوظ بالقاهرة • ولا يعنيها ما يصنعه الدكتور بهذه الهدية ولا كيف سيحافظ عليها انما كل مايعنيها ان ترسل اليه هذا الشكر من الاحياء • وقد ظلت تقول فى نفسها « لو استطعت ان ارسل له الدنيا جميعا لارسلتها وظللت مقصرة » •

ــ ٩ ــ

اتم حسنين تعليمه فى الكتاب وختم القرآن حفظا ، وقد كان يحب أن يترنم بما حفظ ، وكان يحلو للحاج والى ان يطلب اليه من حين الى آخر ان يرتل بعض اجزاء القرآن فكان الفتى يسارع الى الطاعة سعيدا غاية السعادة انه يستطيع ان يلبى طلبا لهذا الرجل • وكان فى قراءته خاشعا تدمع عيناه معا فى صمت وروحانية • كانت هذه الجلسات التى يجلس فيها حسنين مرتلا القرآن فى غير تجويد امام الحاج والى هى اجمل لحظات حياته ، كان يحس انه يستطيع ان يكون مفيدا ، وانه يستطيع ان يمتع هذا الرجل الذى يعوله فى غير ضيق به بل انه يوسع امامه افاق المستقبل فى اقبالة اب وفرحة كريم وكانت السن قد تقدمت بحسنين فاصبح يعرف تمام المعرفة موقفه من الحاج والى واصبح يشكر هذا الموقف فى نفسه اعمق الشكر واصدقه فهو دائما حائر بهذا الشكر •

ماذا بيدى ان افعل لأرد فضل هذا الرجل ، وماذا بيدى ان افعل لأرد فضل الحاجة ، ماذا فعلت لانال هذا الحنان منهما • سيد ابو عبد الكريم يعيش مع امه وابيه فهما يضربانه فى كل يوم ليترك الكتاب ويذهب الى الغيط ، الى اى مصير كنت القى لو اننى عشت مع جدى وجدتى ، فلاح يصبح بالطعام لجده ويمسى بالماشية يعود بها الى البيت •

وانظر الى نفسى الآن ، فتى يحيط به الاحترام ان مشى ، فهو لايمشى فردا انما يحمل كلام الله ولكن أأحمل كلام الله ولا أفهم معناه ، الا افهم معناه انا • هيه •• أأخادع نفسى ايضا لاذهبن من فورى الى الحاج سالم فخر الدين فآخذ عليه التفسير فقد درسه فى الازهر الشريف وليس فى البلد من يفقهنى فيه مثلما يستطيع هو ان يفعل • ولكن أأطول بى هذه الدراسة ومالى لا اذهب مباشرة الى الازهر الشريف • لقد ختمت القرآن ، وحسب الحاج والى ما انفقه على من طعام وملبس ومأوى حتى ختمت القرآن • اترانى اريد الذهاب الى الازهر لاخفف المؤونة عن كاهل الرجل الطيب ام انى ارين لنفسى انى عفيف وانا اتحرق شوقا للذهاب الى الازهر لألبس العمامة والجبة والقفطان • واروح فى البلد واعدو فلا والله الشيخ سالم يبالغ ما ابلغه من الفخامة والمهابة • والبنت هنية معى ، لتأتين صاغرة تقبل يدى وطرف أم عبد الحميد التى لم ترض ان تلعب جبتى • فأى مكانة فى العالم ارفع من مكانتى ، لتكونن الجبة خضراء فاقع لونها يسر الناظرين ، وليكونن القفطان زيتونيا •• ايشترى لى الحاج والى ما اطلب •• ايقبل اولا ان اذهب الى الازهر •• سأذهب فان حبى للحاج والى لن يجعلنى اغير مستقبلى كله من أجله • اننى على اتم استعداد ان اقدم له حياتى ، اما مستقبلى فهو لى وحدى مادام لايريد حياتى • مادمت سأعيش فانا

الذى ساصنع مستقبلى بيدى ولن يصنعه لى أحد . اراه منذ اليوم يتكلم عنى انى ساصير محاميا وعن محمد انه سيصير طبيبا ومحمد لايزال فى الخامسة يتلقى اول دروس الكتاب ولكن الحاج يرسم المستقبل لكلينا.. لن يكون هذا . لا.. لن يكون . الا يقولون ان الثورة قد نشبت فى مصر من اجل الحرية .. ما الحرية ان لم تكن حريتى فى اختيار طريق حياتى . وطريق حياتى هو الازهر فانى احب ان اسير لابسا الجبة والقفطان . الجبة الخضراء والقفطان الزيتونى اللون ويقبل الرجال .. والنساء .. نعم وخاصة النساء وعلى رأسهن هنية يدى وأرى نفسى عظيما فى القرية يحيط بى التوقير والاحترام من كل جانب .. بل انى أرى المشايخ فى البندر أيضا يحيط بهم .

وصحا حسين من خواطره واحلامه على صدمة عنيفة من حمار يحمل حملا عاليا من البرسيم ويسير خلفه طفل صغير لا يستطيع ان يرى الطريق فالطفل قصير وحمل البرسيم مرتفع شاهق فى الهواء . واغتاظ حسين وهو يرى نفسه مصدوما من حمار ولم يستطع ان يكتم غيظه فما أسرع مادار حول الحمار وامسك بالطفل .

ـ ولد .. أأنت الحمار أم هو .

ـ دعنى .. اترك ملابسى .

ـ اتترك الحمار يقودك يا ابن الحمار.

ـ لا شأن لك بى .

ـ كيف ؟ أتترك حمارك يصدم خلق الله وتقول لا شأن لك بى .. طيب والله لاذهب بك الى ابيك ابن من انت ؟

ـ دعنى .. اترك ملابسى .. لاشأن لك بى .

وتجمع حول حسين والطفل نفر من القرية وراحوا ينحون على حسين باللوم حينا او قد ينحو بعض منهم باللوم على الطفل . وفجأة تقدم الى ميدان المعركة رجل طويل القامة عريض الكتفين وأمسك بتلابيب حسين .

ـ ماذا يا ابن شحاته .. ألم تجد الا ابنى لتهينه ؟

ـ لقد ترك الحمار يصدمنى .

ـ وماله يا اخى .. اما عجيبه .. ألم يبق الا انت يامن تعيش عاله حتى تتعدى على طفل صغير .

والجمت الكلمة حسين فاطال النظر الى الرجل ولم يستطع ان يمنع عينه الاخرى ان ترسل دمعة ، ثم القى برأسه الى الارض واولى الجمع ظهره ومشى .

وصمت الرجل العريض المنكبين كقاتل ادرك بشاعة جريمته بعد أن ارتكبها ، ونظر حواليه فرأى فى عيون الناس جريمته مجسمة فى نظرات الم فما استطاع مكثا ، وخف خطاه وراء حسين .

ـ يا حسين .. يا حسين .

ولم يقف حسين ، فعاد الرجل ينادى .

ـ يا شيخ حسين .

واحس حسين حلاوة كلمة « شيخ » فتلكأ هونا وادركه الرجل .

ـ أزعلت منى ؟ .

وصمت حسين .

ـ حقك على.. هات راسك لابوسها.

ولم يدر حسين من امر نفسه الا ان دمعاته الصامتة أصبحت نشجيا عاليا وواصل الرجل كلامه :

ـ ان الله غفور رحيم ياشيخ حسين .. يارجل انت حامل كلام الله فاغفر لى .

وربت كتفه ثم احتواه فى حضنه

الواسع وتجمع الناس الذين شهدوا موقفهما الاول وراحوا يجاملون حسين ويرجونه الا يحمل على الرجل غلطة لسانه ، وتهافت النشيج من حسين واقترب من الصمت وقال الرجل العريض المنكبين :

ـ لا تذكر ماقلته للحاج والى فانه لو عرف ما قلت لم يعفنى من الزجر والتانيب ٠٠ اصفح عنى ياشيخ حسين واقسم بالله لا أعود لها أبدا ٠

ثم نادى بأعلى صوته على الطفل الذى كان يسير خلف الحمار فجاء فقال له :

ـ قبل يد الشيخ حسين ياولد واعتذر له ٠

وقال الطفل :

ـ يا آبا انا لم اره ٠

وزجره ابوه فى عنف ٠

ـ قبل يده قلت لك ٠

وتكلم حسين أخيرا مغمغما :

ـ استغفر الله ٠٠ لا لزوم لهذا ٠

وقال الرجل :

ـ اجعله يقبل يدك لينال بركتك ٠٠ انت حامل كتاب الله ومبروك ٠٠ اجعله يقبل يدك من اجل خاطرى ٠٠ اعطه يدك حتى اعرف انك صفحت عنى ٠

وامسك الطفل يد حسين فقبلها فى سرعة قبل ان ينتبه حسين ، وأحس حسين رضى فى نفسه وقال :

ـ استغفر الله العظيم ، يا سيدى انا متشكر على كل حال ٠٠ سلام عليكم ورد الجميع السلام فى همهمات وانصرف حسين وقد اصبحت رغبته فى ان يصبح شيخا أعمق فى نفسه وابعد غورا ٠

لم يذهب حسين الى الحاج والى وانما قصد الى الحاج سالم فخر الدين ، وهو رجل قطع من مراحل التعليم فى الازهر شوطا ليس بالبعيد وانما كان ما تعلمه كافيا لان يجعل منه مفتى القرية ، فاليه يقصد الناس ليفسر لهم ماغمض عليهم من شؤون دنياهم ودينهم ، وقد كانت الدنيا عندهم تختلط بالدين فى اغلب الامور ، وقد كان الحاج سالم ذكيا يفصل فى الامور بحدة ذكائه اكثر مما يفصل فيها بعلمه ، وكان جميل السمت ذو لحية مهيبة وضاح الجبين تتوسط جبهته تلك العلامة السمراء التى تختلف سمرتها بين الدكنه والخفة حسب كثرة صلاة صاحبها او قلة صلاته ٠٠ تلك العلامة التى تاخذ مكانها على جبهة المصلين جميعهم لاتفرق بين الصالح منهم والمرائى وكان الحاج سالم الى جانب مكانته الدينية ذا عمل آخر بالقرية فقد كانت الودائع جميعها تأخذ طريقها اليه فيحفظها لاصحابها حتى اذا احتاجوا اليها وتلمسوها عنده وجدوها كما اودعوها اياه بربطتها كما يحلو لهم ان يقولوا ٠

كان الشيخ يجلس منفردا حين دخل اليه حسين ٠

ـ السلام عليكم ياعم الحاج ٠

ـ وعليكم السلام يا ابنى ورحمة الله وبركاته اهلا وسهلا ٠

ـ انا حسين بن شحاته ابو اسماعيل ٠

ـ اهلا وسهلا ٠٠ رحم الله اباك ٠٠ كان رجلا طيبا ٠

ـ اريد أن أذهب الى الازهر ياعم الشيخ ٠

وتجهم وجه الشيخ قليلا ثم قال :

ـ وماذا بعد ذهابك الى الازهر ؟

ـ وماذا بعد ياعم الشيخ ؟

ـ اى ماذا تنوى ان تفعل ؟

ـ اريد ان احصل على شهادة العالمية ٠

ـ العالمية ؟!

وسكت الشيخ قليلا ٠ اذن فسيأتى

له منافس فى القرية · نعم ان امامه سنوات طوالا حتى ينال الشهادة وربما مت انا فى هذه الفترة ، ولكن ماذا يكون العمل لو اننى عشت ·· أياتى هذا الطفل وقد حصل على شهادة العالمية واصبح انا نسيا فى هذه البلد منسيا ·

ـ وماذا تنوى ان تفعل اذا اخذت العالمية ان شاء الله ؟

ـ اريد ·· اريد ·

وسكت فقد اصبح لايدرى مايقول·· فما كانت آماله واحلامه بصالحة ان تلقى على مسامع الشيخ الجليل ·· وقال الشيخ :

ـ اتنوى بعدها ان تقيم هنا معنا أم تأخذ طريقك فى القاهرة بعد ذلك ؟

وقال حسين مترددا :

ـ كل ما اريده الآن ان احصل على العالمية ·

ـ يا بنى انها شهادة صعبة ·

ـ اعرف ذلك ·

ـ وقد سقط الكثيرون وهم يحاولون الحصول عليها ·

ـ انا اريد ان افهم كلام الله الذى احفظه ولا افهمه واطلق الشيخ تنهيدة وقال :

ـ هل تصدق ان احدا قد فهم كلام الله كله ؟

ـ لابد انه مفهوم يا سيدنا ولكننى انا عاجز عن فهمه ·· فانت مثلا تفسره بكلام مفهوم واضح ·· وأنا أريد أن أفهمه كما تفهمه أنت ·

ـ يابنى فهمت شيئا وغابت عنى أشياء ·

ـ لا بأس ·· انما اريد ان افهمه ·

ـ ولماذا ؟

وسكت حسين قليلا ثم قال :

ـ لماذا اريد ان افهم كلام الله ؟

ـ نعم لماذا ·

ـ لاعرف دينى ·

ـ الا تعرفه ·· الحلال بين والحرام بين ·

ـ نعم ولكننى اريد ان افهمه جميعه وان أدرس دينى على الاساتذة الكبار فى الازهر·· لانى ·· لانى ·

ـ لانك تريد ان تشرحه لغيرك ·

ـ نعم ولانى أيضا ·

وسكت حسين لحظات حتى قال الشيخ :

ـ ولماذا أيضا ؟

ـ ولانى أجد حلاوة فى كلام الله لاادرى اسبابها ·

ـ لعلك اذا أصبحت وكلام الله حرفتك تفقد هذا الشعور بالحلاوة ·

ـ افقدت انت هذا الشعور يامولانا· وبهت الشيخ ثم مالبث ان قال ملهوفا وكأنه يدفع عن نفسه تهمة كفر والحاد ·

ـ لا ·· لا ابدا ··استغفر الله العظيم ·· استغفر الله العظيم ·· انه لا تغنى الدنيا عن الآخرة ·· لا ·· لاتغنى الدنيا عن الآخرة ·· ماذا تريدنى ان افعل لك يابنى ·

ـ اريد منك توصية لاصدقائك هناك ·

ـ اكتب لك ما تريد ان شاء الله ·

ـ بارك الله لنا فيك ياعم ·

ـ بارك الله خطاك يا ابنى ·· مع السلامة ·

ـ ١٠ ـ

كان حسين جالسا فى بهو البيت الى اخيه محمد ، وقد راح محمد يتلو السور القصار وحسين يستمع اليه ويصحح خطأه من حين الى آخر ، بينما كانت الحاجة بمبه تجلس الى الاريكة التى تحب الجلوس اليها وامامها معدات القهوة وقد

ارتاحت نفسها لمنظر الولدين تكاد تحس انهما ابناها ٠٠ نعم هما ابناى ٠٠ فاما الصغير فامه لم تره ولم يرها واما الكبير فانه ان ذكر امه فكما يذكر حلما بددته اليقظة ٠ هما ابناى وان لم الدهما ٠٠ وقد كان الصبى والفتى فى شغل عما تفكر فيه الحاجة فاما محمد فمشغول بهذه الصور القصار التى ان لم يحفظها انهالت عليه فى صبيحة اليوم التالى عصا الشيخ واما الفتى فباحلامه التى يريد ان يسلك اليها السبيل ويخشى ان يعوقه عنها رغبة الحاج العنيفة فى أن يعلمه تعليما مدنيا ٠٠ فقد سمعه يقول للحاجة انه يريده ان يقصد به الى المدرسة الابتدائية فى المدينة آملا ان يقبلوه فى السنة الثالثةوالا ففى السنة الثانية ٠ ولم يستطع أن يهاجم الشيخ فى آماله وهو يبنيها له فصبر ان تلوح فرصة اخرى فيكشف عن خوالج امله هو التى امتزجت بنفسه فهى تملأ عليه جوانب حياته جميعا ٠

وانتهى محمد من حفظ اللوح وخرج الى رفاق ملعبه وظل حسين مكانه وتطلع الى الحاجة يريد ان يقول ولايقول فلايجد ما يفعله الا ان يمسح تلك الدمعة التى تلازم عينه ورأته الحاجة وهو يزيل دمعته فأحست خالجة عطف نحوه ورأت على شفتيه الكلمات وأرادت أن تصمت حتى يبين ولكنها مالبثت ان اشفقت عليه فقالت :

ـ هيه يا حسين ٠٠ ماذا تريد ؟

واندهش حسين ولكنه انتهز الفرصة فقال :

ـ اريد ان اذهب الى الازهر الشريف يا ام الحاجة ٠

وقالت الحاجة بمبه :

ـ ونعم يا ابنى ٠٠ تذهب ان شاء الله ٠

ـ اخاف ان يرفض ابا الحاج ٠

ـ لماذا ؟

ـ انا اعرف انه يريدنى ان ٠٠

ودخل الحاج والى قبل ان يكمل حسين جملته فصمت حسين وقام يستقبل الحاج ورحبت الحاجة بزوجها الذى اتخذ مجلسه على الاريكة والتفتت الحاجة الى حسين ثم نظرت الى الحاج واحس الحاج ان بين الاثنين حديثا يريد ان يرقى الى مسامعه ٠ بل احس ان الحاجة تريد ان ترجوه فى شأن يهم حسين ، وقد كان يحب ان ترجوه الحاجة فى امور حسين حتى يشعر بالراحة وهو يجيب مطالبها ٠ ولكن الحاج والى تظاهر بأنه لم يفهم شيئا فاخرج سبحته وراح يساقط حباتها مسبحا فى تمتمة وترقب ٠

وقالت الحاجة :

ـ لنا عندك رجاء ياحاج ٠

ـ قوليه ياحاجة ٠

ـ حسين يريد ان يذهب الى الازهر ٠

وجمع الحاج سبحته فى حركة سريعة وقال :

ـ ماذا ؟

وقالت الحاجة :

ـ ولماذا لا ياحاج ؟

وتجاهل الحاج تساؤلها والتفت الى حسين ٠

ـ اهذا ما تريد ياحسين ؟

وأطرق حسين وهو يقول :

ـ ان شئت يا ابا الحاج ٠

ـ لماذا ؟

ـ اريد ان اتفقه فى القرآن ٠

ـ اهذا حقا ما تريد ٠

ـ نعم ٠

ـ ولكن ولكن ٠٠

وصمت الحاج والقى نظرة الى امامه وراح يفكر .. ايهما افضل لهذا الفتى من يعلم الغيب .. وأحس كان ضبابا كثيفا يتكون شيئا فشيئا امام عينيه المتطلعة الى المستقبل ولم يفق الحاج من سرحته الا على يد الحاجة وهى تربت ذراعه .

ـ وماذا فى ان يتعلم الفتى الدين ؟

ونظر الحاج الى حسين قائلا :

ـ اخشى ياحسين ان تكون قد اخترت الازهر لان التعليم فيه لا يكلف مالا .

ـ لا .. لا .. لا ابدا يا ابا الحاج .

ـ ان امنيتى ان تكون محاميا أو طبيبا .. فانى اعتقد ان مصر فى أشد الحاجة الى المحامين حتى يدافعوا عن حقوقها أو الاطباء حتى يشفوا المرضى بها وهم كثير .. اننى فعلا ارجو ان تكون واحدا من هذين .

وقال حسين وقد نكس رأسه :

ـ وانا لا اريد من الدنيا الا ان انفذ رغباتك جميعا ولكنى احس اننى لن اوفق الا فى الازهر الشريف .

وصمت الحاج والى قليلا مداعبا حبات مسبحته ثم قال :

ـ يا ابنى انا لا أحب ان املى عليك ما تفعل لكن مشيئة الله نافذة .. تستطيع ان تجهز نفسك لتذهب الى الازهر باذن الله واشرق وجه حسين وانبسطت اسارير الحاجة واكمل الحاج والى تسبيحه وان كان الضباب مايزال جاثما امام ناظريه .

ـ ١١ ـ

كان زين العابدين بك مسافرا الى القاهرة وقد انتهز الحاج والى الفرصة فرغب اليه ان يصحب حسين ، ويمهد له السبيل فى الاقامة بالقاهرة التى لم يرها الفتى قبل ذلك أبدا .

وهكذا هبط حسين القاهرة لاول مرة فى رفقة زين العابدين بك ولو لم يكن فى هذه الرفقة لعاد مرة اخرى طريقه الى القرية وقد استقر فى نفسه ان القاهرة جميعها ترتحل ، والا فما هذا الزحام وهذه الضجة ، وهؤلاء الناس، ومالهم جميعا ملهوفين متسارعين تتصادم أيديهم أو يتصادمون جميعا بعضهم ببعض كانهم مطالب الحياة المتعارضة المتضاربة . أهكذا المدينة . يعجل اهلها الى مقاصدهم فى هذه السرعة اللاهفة ، وهذا الجد الصارم ، مالهم يمر بعضهم ببعض ، أو يحتك بعضهم ببعض فلاتحية ولا سلام ولا حتى اعتذار .

مشدوه حسين مما يرى فهو ذاهل عما يحمله من اثاث ومؤونة ، يتولى عنه زين العابدين بك الانفاق على الحمالين ، وقد كان الاثاث قليلا غاية القلة وكانت المؤونة كثيرة غاية الكثرة فالاثاث سرير وصندوق كبير ، والمؤونة سلال متكاثرة انسكبت عليه من حنان الحاجة بمبة ومن شعور جده وجدته بما عليهما من واجب نحوه .

وفى غمرة الدهش والذهول وجد حسين نفسه مسوقا مع الموجات المسوقة وقد امسكت بذراعه يد زين العابدين لاتفلته واحس لحظة باليد ، وخيل اليه ـ وان كان لايدرى لماذا ـ ان يدا ماتمسك هؤلاء السائرين جميعا فهم قطيع سائر يلتمس المرعى أو يلتمس المأمن .

وخرج حسين الى ساحة المحطة الخارجية .. ان ثمةمتسعا كسعة الريف ولكن العربات الكارو والحنطور

والسيارات والناس تعدو على هذه السعة فهى زحام • ووجد نفسه فى عربة حنطور بجانب زين العابدين بك وكاد ان ينسى ما يحمله ولكنه نظر خلفه فوجد كل ما حملته اياه القرية قد وضع فى عربة حنطور اخرى فلم يملأ من فراغها الا قليلا •• نعم الا قليلا ، فما اقل ما حمل من القرية من اثاث وما أكثر ما حمل من القرية فى نفسه •

وراحت العربة تسعى بهما فى شوارع القاهرة ، الحصان يسير وقد وضعت حول عينيه من الجانبين قطعتان من الجلد حتى لا يبصر الا مايريد له قائده أن يبصر ، فهو يمشى بالعربة ولا يملك ان يبصر الا ماتتركه له قطعتا الجلد فالطريق امامه ليس الا بقية مما تترك له الغمامة وصاحبه مع ذلك لا يعفيه من الضرب فهو بسوطه من حين الى آخر ، ونظر حسين الى الحصان •• لقد عرف الحصان طريقه وان تكن غمامة حول عينيه ، وان يكن عرف صاحبه بسوطه الا انه عرف طريقه. ايستطيع هو ان يعرف طريقه •• اتراه يعرف طريقه ، انه تائه فى هذا الزحام وفى هذه الشوارع الواسعة وعى امسك بذراع زين العابدين ، وتمنى لو يبقى معه لا يتركه ، ولكن هيهات ، فانه ليعلم انه ما هو الا بعض الوقت حتى يتركه زين العابدين فردا يواجه هذه القاهرة جميعا بكل ما فيها من ناس وخيل وعربات وعلم •

البيوت الفخمة الضخمة يتضاءل بجانبها اكبر بيت فى القرية والمآذن الفارعة سامقة الى السماء فالاذان منها اذان من السماء دعوة الى الارض ان تشرئب الى الله ، هدى فى السبيل المعتم ، وضياء يبدد الظلمات ، وصفاء يدحر العتمة الكثيفة من الرغبات اللاهثة والمطالب المتزاحمة • والناس يمضون فى سبلهم لا يعرفون للمآن عينا ، ولا يعنيهم الا ما يقصدون اليه وحسين يزداد ذهولا على ذهول وزين العابدين يتفزز على مقعده فى العربة يريد ان ينتهى من هذه المهمة لينصرف الى قاهرته التى لايعرف غيرها هناك فى البار ومع النسوة التى يستبدل الواحدة منهن بالاخرى ضاربا بوعده لابنته وهى بعد وليدة عرض الافق والعربة يسعى بها الحصان والسوط يسوطه كلما جرى بضع خطوات فى أوقات تكاد تكون منتظمة ، فما فعل شيئا يساط من اجله وانما هى رغبة سائقه وحبه ان يسوط شيئا اى شىء دون ان تدعو لهذا حاجة من تلكؤ ، أو عصيان لامر •

وفجأة انتقلت العربة من الشوارع الفسيحة العريضة الى اخرى ضيقة مازالت تضيق حتى اصبحت العربة لاتسير الا بشق الانفس فهى تزحف زحفا وتنهال السياط على الحصان ويتدافع السباب الى المارة فما تجدى السياط ولا يفلح السباب ، والتفت السائق الى زين العابدين يسأله عما يريد من مناطق الدراسة ، وقال زين العابرين :

– اريد ان اجد بيتا للشيخ •

وتنبه حسين فجأة انه شيخ ، وانه يلبس العمامة والجبة الخضراء والقفطان الزيتونى ، لقد اذهلته القاهرة عن نفسه وعما يلبس وقال سائق العربة :

– اعرف بيتا هنا به حجرة خالية على سطح •• اتريد اكثر من حجرة يامولانا•

وابتهج حسين من كلمة مولانا وقبل ان يجيب كان زين العابدين يقول :

ـ واهل من عرفه ان امكن ٠٠ اين هى ؟

وقال السائق :

ـ نترك العربتين هنا ونذهب لنتفق ٠

ـ وقال زين العابدين :

ـ لماذا ٠٠ الا نستطيع ان نذهب بالعربة الى هناك ؟

ـ البيت فى زقاق ضيق ٠

وقال زين العابدين :

ـ وهل البيت بعيد ؟

ـ لا ٠٠ انه هنا على بعد خطوتين ٠

ونزل زين العابدين ولحق به حسين وتقدمهما السائق بعد ان اوصى زميله الآخر ان يولى العربة عينا يقظة ٠

ومشى الركب ، لم يكن البيت على بعد خطوتين ، لا ولا ثلاثة ولا عشرة لا ولا تصلح الخطوات وحدات لقياس المسافة التى يبعدها البيت عن المكان الذى تركوا فيه العربات ، لقد مشوا مايقرب من كيلو ونصف كيلو وتوقفوا ٠ وطلب اليهم السائق ان ينتظروا لحظات ريثما يلقى صاحب المنزل ٠ وصعد ثم نزل ٠٠ ان صاحب المنزل فى دكانه ٠٠ واين الدكان ٠٠ على بعد خطوتين أيضا ٠٠ وقال زين العابدين :

ـ ألا ترى الحجرة اولا ، حتى اذا اعجبتنا نتفق ٠

وصعد السائق ثم مالبث ان قال تفضلوا ٠٠ كان المنزل مكونا من ثلاثة طوابق ، ولكنها طوابق مرتفعة فدرجات السلم كثيرة ترتفع كل درجةعن زميلتها ارتفاعا مضنيا ،وهكذا راحزين العابدين بك ينتزع نفسه انتزاعا ليبلغ حجرة السطح ٠٠ حتى اذا بلغ الركب الطابق الاخير الذى لايعلوه الا السطح لاحظ زين العابدين كما لاحظ حسين ان الباب منفرج انفراجة هينة تسمح للعين ان تتلصص من الداخل الى الخارج ولاتسمح للعيون الاخرى ان تتسلل من الخارج الى الداخل ٠ التفت زين العابدين الى حسين والتفت حسين الى زين العابدين ولكن زين العابدين كان يلهث ان يقول شيئا اذا اراد ان يقول ، وكان حسين يفكر افكارا غير محددة ولا واضحة حول هذه الانفراجة التى طالعتهم من الباب الذى لا يعلوه الا السطح ٠

وقال السائق :

ـ لقد القت لى زوجة المعلم بالمفتاح من تحت الباب فانا لااعرف اين الغرفةواين الحمام ولكنى سأجدها على كل حال ٠

وتقدم بمفتاحه يعالج الابواب الثلاثة على السطح حتى اذا انصاع له احدها فتحه على مصراعيه وهو يقول :

ـ بسم الله ما شاء الله ٠٠ غرفة تشرح الصدر ٠٠ وهاهوذا الحمام امامها مباشرة ٠

ـ وقال زين العابدين مشيرا الى الباب الثالث :

ـ وما هذه ؟

ـ هذه ـ والله اعلم غرفة اصحاب البيت التى يغسلون بها غسيلهم بطبيعة الحال سيكون الغسيل فىالصباح ومولانا سيكون فى الازهر فلا شان له بهم ٠

كان التعب قد بلغ من زين العابدين مبلغا لايسمح له بالمناقشة فهو يسال حسين فى سرعة :

ـ اتعجبك الغرفة ياحسين ؟

ولم يجد حسين سببا فى الا تعجبه الغرفة فهو يقول :

ـ نعم ·

وبعد ساعة اخرى كان حسين مستلقيا على السرير فى غرفته وحيدا فى القاهرة على سطح اول بيت دخله غـــير بيوت قريته ، ودمعة عينه منسكبة لم يزد عليها الا دمعة ارسلتها عينه الاخرى احس انها نريحه وهى تأخذ سبيلها على خده وان كانت اسباب بكائه متخفية فى اعماق نفسه لايدرى حقائقها ولا اسبابها وفى هدوء مد يده الى صدره وتحسس الخطاب الكامن هناك حتى اذا تأكد من وجوده رفع يده الى عينيه يمسح عنهما الدموع ·· ان قريته لم تتركه وحيدا · فها هو ذا خطاب الحاج سالم فخر الدين الذى يوصى فيه رفيق دراســـته الشيخ صـــالح الاشمونى بحسين خيرا فى جيبه يؤنس وحدته ويجعله يؤمل انه واجد فى القاهرة انسانا قد يوليـــه بعض عطف أو بعض اهتمام وحسب الغريب فى غربته بعض عطف أو بعض اهتمام ·

ـ ١٢ ـ

احس الشيخ والى حين سافر حسين انه لم يحقق فيه الامل الذى كان ينشده من تعليمه وصبر نفسه انه على كل حال ليس ابنه ، وازداد عزما ان يعلم ابنـــه التعليم الذى كان يريده له وكأنما اراد ان يستعجل السنين فهو يفكر ان يدخل محمد منذ سنه هذه الباكرة الى المدارس الاميرية وهم ان يفعل ولكنه مالبث ان تذكر ان سنه لاتسمح بذلك فانتظر على كره منه عازما الا يبدأ العـــام الدراسى الجديد الا ومحمد تلميذ فى المدرســـة الاميرية ·

وكان محمد يذهب الى الكتاب فى انتظام وكان يخاف عصا الشـــيخ التى يتناول بها المهملين من لداته فهو حريص على ان يحفظ اللوح فيجيد حفظه الا انه بعد ان سافر حســـين وانفرد به اللوح اصبح الحفظ بالنسبة اليه عملية شاقة يبذل فيها ساعات طـــويلة كانت تحلو بفضل حسين ليلعب فيها الـــكحشة أو ما يحلو له ولرفاق ملعبه من العاب ·

فهو الآن لايفرغ من حفظ اللوح الا والشمس قد مالت للغروب فهو لايصيب من اللعب الا حظا يسيرا ولكنه مع ذلك لا يتخلى عن حفظ اللوح مهما يفقد من ساعات اللعب فلعب قليل مع تجنب لالام العصا خير من لعب كثير يعقبــــه هم كثير ·

وكان محمد يذهب فى بعض الاحيان الى بيت زين العابدين ليلعب هناك مع ابنته آمال وكان يصحبهمـــا فى الملعب اطفال آخرون من بينهم رشاد ابو عبد الباقى · وكان رشاد يلاحظ اهتمام آمال بمحمد ويحاول جهده ان يستثير اهتمامها به فقد كان يحس فيها شيئا مختلفا عن الفتيات الأخريات فملبسها غير ملبسهن وطريقة كلامها غير طريقتهن فهو يحس ان ثمة فارقا بينها وبين بنات القرية وان كان لايدرى سبب هذا الفارق ولا حقيقته وكان يرى فى ذهابهم اليهـــا دون ان تذهب هى يـــوما الى ملعبهم فى جرن القرية فضلا لها لا يمكن التغاضى عنه ·

ولم يكن يدرى السبب فى ان الصلة التى تصلها بمحمد اقوى من جميـــع الصلات الاخرى التى تصلها بأطفـــال القرية فما كان يعلم ان الحاجة بمبة كثيرا ماتزور بهية هانم مصطحبة معها محمد فى زياراتها ، فآمال معذورة ان تأنس الى

محمد فهو وحده الذى يكثر من زيارتها، ولكن رشاد لايهمه من هذه الاسباب جميعا الا ان محمد اقرب الى آمال منه وهو لا يقبل هذا • فهو يتحين الفرص لينال من محمد نيلا يصيب منزلته عند امال وقد واتته الفرصة من قريب •

كانوا يلعبون امام بيت زين العابدين حين جاءت الحاجة لتزور بهية هانم،وكان الليل قد اوشك ان يخيم على القرية فرأت الحاجة بمبه ان ينتهى لعب الاطفال ، فهى تنادى محمد وامال وتصعد بهما الى الطابق الاعلى • ويضيق رشاد بهذا ضيقا شديدا ، فان امه لاتكثر من زيارة بهية هانم كما تفعل الحاجة ، ولايستطيع هو ان يصعد وحده فما له من رفيق يجعل صعوده طبيعيا ولكنه يأبى ان ينصرف مع الاطفال الآخرين الذين انصرفوا فهو يمكث مراقبا لباب البيت منتظرا وان كان لايدرى لماذا ــ خروج الحاجة بمبه ومحمد وفى الطابق الاعلى يكون اجهاد اللعب قد اخذ من محمد مأخذه فما هى الا ان يريح جسمه الى الكرسى حتى يهاجم النوم عينيه فيستسلم له فى اذعان ودعة والحاجة بمبه مشغولة عنه بالحديث الى بهية هانم حتى اذا حان موعد الانصراف نظرت الى محمد فى كرسيه فوجدته فى نومته العميقة وتحاول ان توقظه ولكن بهية هانم تلح عليها ان تتركه يقضى الليل عندهم وتعدها انها ستوقظه فى الصباح ليذهب الى الكتاب وتشفق الحاجة بمبة على محمد وتتركه وتاخذ سبيلها الى الخارج •

وما تكاد تغادر باب زين العابدين حتى ينبت رشاد من ثنايا الظلام •

ــ اين محمد ياخالتى الحاجة ؟

ــ بسم الله الرحمن الرحيم ، ماذا تفعل هنا يارشاد ؟

ــ لا شىء •• كنت هنا •• اين محمد ؟

ــ نام فتركته عند الست حتى الصباح •

وفى الصباح ايقظت بهية هانم محمد وقدمت اليه افطارا كريما وتركته ينطلق الى الكتاب ، ومر محمد بمنزله فاخذ اللوح وتوجه الى الكتاب • وهناك كان رشاد قد دبر مؤامرته فقد لقيه الشيخ فى غضبة عنيفة •

ــ اين بت الليلة يامحمد ؟

ــ فى بيت زين العابدين بك •

ولم يزد فقد امر به الشيخ فأمسك غلامان بقدميه وانهال الشيخ عليهماضربا مبرحا •

وبينما كان الحاج والى يختم صلاة الضحى فوجىء بضجة على الباب فنظر من شباكه فوجد محمد على حمار يبكى بكاء مرا فخف اليه فوجدقدميه متورمتين لايستطيع ان يلمس بهما الارض واحتمل الشيخ ابنه وقلبه ينفطرلهفا عليه وما ان اودعه السرير حتى قصد الى الشيخ فى كتابه •

ــ لماذا هذا ياعم الشيخ عبد العظيم؟

ــ الم ترسل لى رشاد ان اضربه لانه بات ليلته خارج المنزل ؟

ــ لا •• لم افعل •• وان كنت فعلت اهكذا يضرب الاطفال •• لن يعود محمد الى الكتاب ثانية ياشيخ عبد العظيم • وخرج الحاج والى وقد ازداد اصراره ان يتوجه محمد منذ الآن الى التعليم المدرسى

فهو يقصد الى زين العابدين ويتفق معه على ان يشارك محمد آمال فى الدراسة المنزلية حتى يبدأ العام الدراسى الجديد فيذهب الى مدرسة البندر ٠

اما رشاد فلم يكفه ما وقع عليه من عقاب الشيخ الذى حرم مما كان يفيده من تعليم محمد بل زاد الطين بلة ان محمد اصبح رفيق آمال فى الدرس ايضا لا فى الملعب وحده ٠

- ١٣ -

اشترى الحاج والى عربة وحصانا حتى ييسر لمحمد ان يذهب الى المدرسة فى الصباح الباكر ، وقد كان يشفق على الطفل الصغير وهو يصحو معه فى الفجر ثم يخرج الى برد الشتاء القارس ليقطع ثمانية كيلو مترات الى المدرسة ٠ وكان الحاج والى كلما تساءل ٠٠اتساوى الحياة هذا الجهد نبتت امام عينيه تلك القطعة من الضباب جوابا على تساؤله فيزداد على حيرته حيرة ولا يملك الا ان يوقظ وليده فى فجر اليوم التالى فيصليان الفجر معا ثم ينفتل الطفل الى مدرسته لايدرى مايكابده ابوه من الم لخروجه هذا ومن تساؤل وحيرة ٠٠ الهذا كنت اتمنى لى ولدا ٠٠ الهذا ضحت امه بحياتها وضحت زوجتى بكرامتها ٠٠ انجىء بهم لنملأ حياتهم تعبا ونملأحياتنا شقاقا ٠

وماذا لقى محمد بعد من الحياة ، وماذا افعل حين يوغل فيها وتلقاه بوجهها هذا القاسى الجامد ٠٠ ويتصاعد الضباب امام عينيه فيغلق على نفسه منافذ التساؤل والحيرة ويلقى بنفسه الى دفاع الحياة ٠

عاد محمد فى يوم من المدرسة وهو يحس رعشة تهز جسمه جميعا فاسنانه تصطك فتصك جسمه كله كانها المطارق واطرافه ترتعش رعشة تهز كيانه فهو كنبات هش ضعيف انصبت عليه ريح عاتية توشك ان تقتلعه من الجذور ٠

وتلقته الحاجة بمبة باشفاق وراحت تضع عليه الاغطية وتحيطه بزجاجات الماء الساخن ولكن الرعشة لا تريم عنه فكانما هى فى مكان خبىء من جسمه لا يدرك مكانها الماء الساخن ولا يصل اليها دفء الغطاء ٠

واقبل الحاج والى من الخارج فوجد ابنه على حاله هذا فهو يسارع الى البندر ويجتلب الطبيب الذى يقرر ان الطفل قد اصيب بالتهاب رئوى حاد وحين يسأله الحاج والى :

- اخطر هذا المرض ؟

- كل الخطورة ٠

- وماذا نفعل ؟

- الاعمار بيد الله ٠

الاعمار ٠٠ وهل بلغت الحالة الى ذكر الاعمار ٠٠ الاعمار ٠٠ اكل ماكان ينتهى الى هذا ٠٠ آكانت الحاجة بمبه تخطب لى وكان موت صالحة المسكينة من اجل الالتهاب الرئوى ٠٠ اهو الذى يحصد ثمرة ماضحت به المرأتان الطيبتان ٠٠ امن اجل هذا يأتى الاطفال ٠٠ ولدى٠٠ ماذا ٠٠ ماذا انت فاعل بى ٠٠ اهذا املى بعد ان تحقق ٠٠ اكان قد تحقق من اجل الالتهاب الرئوى ٠٠ ايرضى الله بهذا ٠٠ نعم يرضى ٠٠ فما هذه الدنيا بالتى يجزى الله فيها المحسن خيرا والمسىء شرا

الم يمت ابراهيم بن محمد رسول الله٠٠ وحيده ٠٠ مات طفلا ٠٠ فلماذا لايموت محمد بن والى ، وما محمد بن والى ، فى حساب الدنيا ٠٠ مجرد روح صـــغيرة ولم تتفتح بعد للحيـــاة ، وما والى ٠٠ شقى من الاشقياء قطع عمره على امل ان يكون له طفل حتى اذا كان جاءه الالتهاب الرئوى ٠٠ وفى الآخرة يتولى الله ثوابه ولكنى بشر ٠٠ لقد صبر النبى عـــلى بلواه ٠٠ اترى أصبرانا ٠٠ يارب اننى اصغر من هذا الامتحـــان وانت تدرى انت تدرى اننى اوهى عظاما واقل صبرا من ان احتمل هذا الابتلاء ٠٠ يارب انك تقول المال والبنون ٠٠ وتقول لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين٠٠ فليكن ابتلاؤك فى المال ٠٠ كل المال ٠٠ اما البنون فما عندى من بنين الا محمد هذا فدعه لى ٠٠ فما انا بالذى يصبر لهذا البلاء ٠٠ انى اعلم وانك تعلم اننى اقل من هذا البلاء ٠٠ يارب ٠٠ يارب ٠

كان الدعاء والدواء والصبر هو كل ما يملك الحاج والى ٠ وكانت الحاجة بمبة هى التى تقوم بتمريض الطفل فى حنان واناة وامتثال تكاد لا تذكر الا انه ابنها فما عرفت لنفسها ابنـــا الا بالتبنى وما عرف هو اما الا هى ٠

وفى بطء شديد شفى محمد وعادت الابتسامة الى الحاج والى وعاد النوم الى الحاجة بمبة ٠٠ احس الحاج والى سعادة ٠٠ سعادة لم يعرف لها مثيلا فى حياته ما احلى ان يكون لى ابن يحيط به الخطر ثم ينجو ٠٠ كانما اصبح لى ولد جديد٠٠ انهم ليمدون قلوبنا بالســـعادة والجدة هؤلاء الاطفال ٠٠ لا ٠٠ لاشىء يعدل ان يشفى ابنى من مرض خطير ٠٠ لا ٠٠ لاشىء يعدل هذا فى الوجود ٠

وواجهت الحاج والى مشكلة اخرى٠٠ أيعود محمد الى المدرسة فيتعرض للبرد مرة اخرى وللمرض٠٠ وسرعان ماحسم المشكلة ٠٠ فماذا يصنع محمـــد ان لم يذهب الى المدرسة ٠

ومن جديد عاد الحاج والى يوقظ محمد فى الفجر فيصليانه جماعة ثم ينفتل محمد الى مدرسته ليواجه البرد الشديد والحر الشديد والعلم الثقيل ٠

ـ ١٤ ـ

كان زين العابدين جالســـا فى شرفة داره ينتظر عربته ان تعود من المحطـــة حاملة حماته وحماه الذى ابرق اليه انه قادم فى يومه هذا ٠

وكان زين العابدين سعيدا فى انتظاره هذا فقد تولت ثـــلاثة كلاب او كلبان وكلبه تسليته بتمثيلهم امامه قصـــة الثلاثى الخالد الزوج والزوجة والعشيق وقد اندمج ثلاثتهم فى ادوارهم اندماجا انساهم المتفرج الوحيد زين العابدين ٠

وقد اختـــــارت الكلبة دور المنتظر لا تجنح بعواطفها او تصرفاتها جنـــوحا ينبىء عن حقيقة مشاعرها بينمـــا راح الكلبان يعتركان ويتجه كل منهمـــا الى الكلبة كلما خيل اليه انه بلغ من عـــدوه ما يشتهيه له من هزيمة فما يلبث الآخر ان يلحق به فى منتصف الطريق يرده عن الكلبة ان يصل اليها ٠ ولم يكن زين العابدين يعلم اى الكلبين هـــو الزوج وايهما العشيق فانهم فى دنيـــا الحيوان يتقاربون فيختلطون ولكن زين العابدين رأى فى عينى احد الكلبين ذلة وانكسارا ورأى فى عينى الآخر توقحا وجرأة وكاد يعرف من هذه النظرات حقيقة كل منهما الا انه عاد فاختلط عليه الامر لايدرى

مدى ما اصابه من صدق النظرة وقوة الاستنتاج • واستطاع احد الكلبين ذو النظرة المتقحمة ان يصل الى الكلبة آخر الامر • واستقبلته العاهرة اســتقبالا حارا جعل الكلب الاخر الكسير النظرات مذهولا محجما عن محاولة كان قد بدأها ليرد الكلب المنتصر وكانما اصاب هــذا الترحيب من الكلبة كبرياءه فهو ينعم النظر حينا وتبدو عليه الوان من الحيرة والذلة والرغبة والزهد ، ثم يولى الكلبين والمتفرج ظهــــره وينصرف عن المسرح جميعا •

ولو كان للمسرح ستار لاسدل على الكلبين الآخرين فان الرواية كانت بلغت ما يجب عنده ان تتخفى شـخوصها بين الكواليس ولكن زين العابدين ظل يرنو الى الكلبين متشوقا الى القاهرة وصديقته الجديدة سنية شخلع حسيرا فى الــوقت نفسه لقلة المال معه ، اسيفا انه لم يعد يستطيع ان يبيع اكثر مما باع فقــد تضاءلت ارضه فاصبحت اربعــين فدانا وما يستطيع بعد ذلك ان يبيع منها شيئا ولا يستطيع كذلك ان يواجه ما تحتاجه سنية من مصاريف ولا هو مطيق ان يهجر سنية او البار فهو فى دوامة من الحــيرة يتخبط بين جدران من خوف الفقر وبين الرغبة العارمة فى بقاء محبوبته ومن قلة الارض لا تستطيع ان تكفل له ما يكفى رغباته ولا تستطيع ايضا ان تتضاءل اكثر مما تضاءلت • وقد كانت حــيرته هذه قديمة ليس للكلاب فيها شأن الا تذكيره بحقيقة تسيطر عليه اغلب الوقت وقد كان بقاؤه بالقرية اكثر ما يضيق به ولكنه لا يملك الا ان يبقى بها وان كان هو لايتولى زراعة الارض بنفسه بل يؤجرها الى الفــلاحين فاشرافه عـــلى المستاجرين اشراف على لايستغرق من وقته الا اقل وقته ثم هو يفرغ بعــد ذلك الى هذه الحيرة وهذا الضيق بالقرية وهذا الشوق اللاهف للقاهرة وســنية والبار •

افزع الكلبين العاشقين صوت العربة وهى تأخذ موقفها امام البيت، وانتبــه زين العابدين وهو يسـتقبل زواره فى حفاوة وتوقير ، فقد كان يعلم ان حماه وحماته لا يحبان شيئا فى الدنيا اكثر من ان يلاقيا التوقير اينما ذهبا • وتقدم زين العابدين من العربة وامسك بيــد حماته ، ينزلها منها • سيدة فى الخمسين من عمرها ولكنها تتخذ من المــلابس والحجاب ما يجعلها فى الستين فوشاح ابيض يحيط برأسها وخمار شفاف يدور حول اسفل وجهها الوردى اللون الذى مازال اثار نضرة تتخـايل فيــه وبين الوشاح على الرأس والخمار على الفم تطل عينان فيهما طيبة وفيهما ذكاء وفيهما حب سيطرة لاتجد مجالا ولا متنفسا • اما قوام الست ازدهار الناضورجى فكان معتدلا لايتهم بنحافة ولا يعاب بافراط سمنه • ونزلت ازدهار هانم وتبعها زوجها زكى بك الناضورجى و هو شارب يلقى منه كل رعاية وتكريم ، احمر الوجه قصير القامة اصلع الرأس حتى لايفلح الطربوش الاحمر الزاهى فى اخفاء صلعته جميعا انما تظل قطعة كبــيرة منها بادية من مؤخرة الطربوش حيث ينسدل الزر فى نظام واحكام • وكانما كانت هــــذه القطعة من الصلع تغـــافل الطربوش فتخــرج الى العيان دون ان يشــــعر بها •

وقبل زين العابدين يد حماته وانحنى وهو يسلم على حميه انحناءة لاتخطئهــا

العين وشـــاعت فى عينى ازدهار هانم علائم رضى وهومت ظلال ابتسامة عـلى شارب زكى بك واخذ الجميع ســبيلهم الى الطابق الاعلى ٠ وثمة استقبلتهم بهية فى ترحاب تحيط به كثير من القيـود فلا يبدو الا فى تقبيلها ليد ابيها ويد امها ووجنتها وان كانت فى دخيلة نفسها تريد ان تحتضن كلا منهما وتقبله قبلات كثيرة عارمة ، وكانما كانت آمال مطلعة على ما فى نفس امها فهى تهاجم جـدها وتتعلق برقبته ويقع طربوشه على الارض ويتخلج وهو فى وقفته حتى ليوشك هو أيضا ولكنه يتماسك وهو يغالب الضحك على فمه محاولا بكل جهده أن يجعل من ابتسامته كشرة فلا يفلح جهده ، وتتركه آمال الى جدتها فما هى الا ضمة واعتناق حتى ينتهك ستر السيدة الوقور فالخمار فى الارض والوشاح فى منتصف الرأس والسيدة غير غاضبة ولا عاتبة وكأنما كانت تشتهى هى ايضا هذا اللقاء من ابنتها فأجابت حفيدتها خوافى رغباتها وبهية تحاول ان ترد الابنة العابثة فلا تحفل بها وزين العابدين ينظر فرحان رأى طربوش زكى بك الناضورجى على الارض لاول مرة فى حياته ، فهو لم يره قبل اليوم الا منتصبا على رأس صاحبه لايميل ولا يحيد مثله مثل شارب زكى بك نفسه ٠ ثم ما هـو ذا اليـوم يرى الطربوش فى الارض والشارب مهوشا من اثر تقبيل آمال ، وتعربد فى نفس زين العابدين ضحكة لامبـاليه تذكره بالبار وسنية شخلع وهو يرى زكى بك ينحنى فى وقار الى الطربوش يلتقطه مختلسا النظر الى زين العابدين كانما كان يريده ان يلتقطه هو بدلا منـه أو كانما يريده — على الاقل — ان يبـدو وكأنه غير منتبه للطربوش الســـاقط وانحناء البك الكبير لاحضاره ٠

وتنتهى معركة الاستقبال ويجلس الجميع ويدور الحديث ولكن لايكاد فان زكى بك يقول فى امر حازم :

— زين العابدين بك ٠٠ انا سـآخذ ابنتى وحفيدتى معى الى مصر ٠

وتعجب زين العـــابدين وقال فى دهشة :

— نعم ٠٠ لماذا ٠٠ لماذا ياسـعادة البك ؟

— البنت كبرت ولابد لها ان تدخل المدرسة ٠

وصمت زين العابدين فان هـذا حق لاسبيل الى التغاضى عنه ، وهو لايريد لها ان تتعلم تعليما مشوها ، كما ان وجود ابنته فى القاهرة يجعل ذهابه اليهـا مقبولا امام نفسه على الاقل ولكن لماذا تذهب زوجته ٠٠ نعم ٠

— ولماذا تذهب بهية ؟

— لتمكث معها فترة حتى تتعود على المدرسة ٠

واطرق زين العابدين وقال زكى بك:

— زين العـــابدين بك ٠٠ هل انت مشغول هذه الايام هنا ؟

— انا ٠٠ لا ٠٠ ابدا ٠

— اذن تذهب انت ايضا معنا وتدخل ابنتك المدرسة وتتنزه فى ٠٠٠

وقطع زكى بك جملتــه وتنحنح ثم استطرد فى لهجة جادة صارمة كأنهـا لا تعنى شيئا على الاطلاق ٠

ـ اظن انك لا تمانع .. هيـــه .. لامانع .. هيه .

واطرق زين العابدين وكأنه يمتثل لامر لاسبيل الى التخلص منه .

ـ امرك ياسعادة البك .. لا مانع .. لامانع .

ـ ١٥ ـ

ثلاث سنوات مرت بحسين فى القاهرة .. ثلاث سنوات يذكرها وهو مستلق على سريره بجوار قطة تلوذ بيده الحانية عليها فى غرفته المنفردة مثله على سطح بيت ساقته اليه عجلة زين العابدين بك وابقاه فيه خوفه ان يواجه البحث عن بيت جديد ، فقد كان يخشى ان يلقى من القرية اكثر مما لقى ولحجرة عرفها لمدة يوم ثم اسبوع ثم شهر احب اليه من اخرى مهما تكن تفضلها لم يعرفها قط .. لا .. لايريد أن يوغل فى الاغتراب اكثر مما اغترب ، فهو يبقى فى الغرفة، باردة فى الشتاء حارة فى الصيف لكنه الفها والفته وقل ان يجد شيئا يألفه فى القاهرة الكبيرة الواسعة المترامية الاطراف ومع الايام التى اصبحت شهورا فسنين أصبحت هذه الحجرة على السـطح ملاذه ومأمنه هرع اليها هالعا من القاهرة فأمنت خوفه واقرت مضـطربه واستراح بين ضلوعه قلب مفزع شديد الوجيب عاصف الضربات . ليس ينسى يـوم فزع الى غرفته هذه فى ذلك اليوم المشئوم من ايامه الاولى فى القاهرة يوم نزل مزهـوا بجبته وقفطانه وحذائه اللامع يتبختر فى الشوارع يزين لنفسه ان يتفرج عـلى القاهرة معتقدا ان الاعين فيها جميعـا سوف ترمقه بالاجلال والاكبار . وسـار على غير هدى وراح يتلفت حواليه اينما سار محاولا ما وسعه الجهد ان يرى اثر قفطانه وعمامته الزاهية على من يمر بهم من الناس حذرا كل الحذر ان تنحدر هذه الدمعة التى لاتترك عينه فهو يمســح خده سواء لديه كانت الدمعة منحدرة أو كان مكانها جافا لا أثر للدمع فيه . وتعود اليه نظرته توهمه ان العيون تتبعه وان كان هو فى بعيد نفسه يعلم ان ماتلقيه اليه نظراته وهم لا يتصـل بسبب الى الحقيقة . فالناس منصرفون عنـــه الى ما يشغلهم من حديث أو عمل أو لهو ، ولكنه مع ذلك يحب ان يصدق اوهامه اكثر مما يحب ان يصدق الحقيقة التى يعلمها ، فهو وقور فى مشيته ، بطيئة خطواته قليلة حركاته الا تلك اليـــد يمسح بها من حين الى آخر دمعته الحقيقية أو الموهومة لا يدرى وانمـــا هى يده يرفعها بين الفينة والفينـــة لاتصيب الدمعة شيئا من وقاره أو اناقته .

وظل سائرا يتهدى به شـــارع الى حارة او حارة الى زقاق حتى انتهى به المطاف الى اصوات عالية أوضح مافيهـا ايمان مغلظة تتراوح بين ايمان الطـلاق والقسم بالله ثـلاثا ، وراح يقترب من الاصوات لان طريقه يحتم عليـــه ان يقترب منهـــا حتى أصبح فى مركز الدوامة .. من الصراخ المرتفع .

ـ وانت من ادراك بكلام الله .. يارجل دع العلم لاهله .

ـ اسم الله عليـــك انت يا عالم .. اكنت من رجال الازهر انا لم ارك فى يوم من الايام تلبس العمامة .. الا اذا كان ذلك قبل ان اعرفك .. اى قبل انَ تولد .

ـ يارجل .. يارجـــل اتق الله .. زوجتى طالق ياشيخ ان لم تكن هـــذه الآية من كلام الله .

ـ تعني انها من القرآن ٠
ـ في القرآن ٠
ـ زوجتي طالق ثلاثا ان كانت في القرآن او كانت تعرفه أو شافته رجلان على جانبي الطريق ٠٠ احدهما على باب وكان حوله رهط من الاصدقاء والآخر على المقهى في الجهة المقابلة يحيط به هو الآخر رهط من المعجبين ٠ وكلا الرجلين يريد ان يكون ذا علم ٠ وحسين يمر بينهما وتختطف اذنه هذا النقاش فيسير طريقه واثقا ان الجماعة ستنشغل بنقاشها عن قفطانه وعمامته ويعبرحسين المقهى والدكان ويوشك ان يبتعد ولكن الصراخ ينقطع بشكل مفاجيء فلا يسمع حسين الا كلمة واحدة :
ـ نسأله ٠
ويعقبها صوت يصبح اصواتا :
ـ يا استاذ ٠
ويمضي حسين سبيله ولكن الاصوات تتعالى : ٠
ـ يا سيدنا ٠٠ ياسي الشيخ
ويقف حسين ويتلفت وفي عينيه سؤال يريد ان يتأكد به انه هو المقصود وتتعالى الاصوات مرة اخرى :
ـ نعم انت ٠٠ تسمح لحظة ٠
ويتجه حسين الى الجمع ويبادره الرجل الجالس الى المقهى :
ـ نريدك في سؤال ٠
ويفرح حسين ٠ فقد واتته الفرصة مبكرة ان يصبح اهل افتاء فيجلس القرفصاء معتمدا قدميه دون ان يلامس جسمه الارض موليا وجهه الى اهل المقهى وظهره الى اهل الدكان وقال وقد تمكن من جلسته :
ـ نعم ٠
ـ هل في القرآن واذا الصحف تطايرت وانتشرت ؟

ويقول حسين في وقار وثقة :
ـ لا ٠٠ انما يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز « واذا الصحف نشرت ، واذا السماء ٠٠٠ »
ولا يكمل الآية وانما هي ركلة عنيفة في ظهره ترفعه الى اعلى قليلا ثم تهوى به على الارض منكفيا على وجهه عمامته نافرة عن رأسه وصوت يطن في اذنه :
ـ الم يبق الا العيال نسألهم في كلام الله ٠٠ وانت ماذا تفهم في كلام الله يا ابن الكلب ياصايع٠٠ قم ٠٠ قم خيبة الله عليك وعلى ابيك ٠
ويغرق الجانبان في الضحك لمنظر حسين وعمامته ، ويقفزحسين الى عمامته حيث هي وينفجر باكيا وينتهز مكانا خاليا وينفلت منه وقد علا بكاؤه تمـلأ نفسه الحسرة ويروح يعدو وقد احست نفسه الظلم مريرا خانقا يزيده الرعب مرارةوخنقا لايجدمتنفسا منه الا الدموع والنشيج ٠
وراح يعدو لايدري الى اين وانغلقت عليه المسالك فاصبح لايدري كيف يصل الى حجرته فيقف وينظر الى حاله وينظر الى الخلف حتى اذا استيقن انه غير متبوع راح يتحسس طريقه الى الحجرة حتى بلغها وحين دخلها وعاوده الامن وان لم تفارق نفسه المرارة ٠٠ احتضنته الغرفة ذلك اليوم ووجد فيها مأمنا ووجد فيها انيسا ٠٠ هي هذه القطة التي عرفها أول ما عرفها في ذلك اليوم وكأنما جاءته ليشكو اليها ماوقع له ولتشكو هي اليه الجوع والتسكع ، كان هو وحيدا بغرفته وكانت هي وحيدةبجوعها والتقى الاثنان وبدأت بينهما في ذلك اليوم صداقة ما تزال مشدودة الاواصر حتى يومه هذه لا ٠٠ لا ينسى حسين كيف كانت هذه الغرفة مأمنا له من الفزع وكيف صارت

لقطة انيسا له من الوحدة ٠٠ وليس ينساهما ايضا فيما وقع له بعد ذلك من ظلم ٠

كان ذلك بعد اقامته فى القـــاهرة ببضعة شهور وكان الازهر قد اتاح له بعض صداقات ٠ وكان اقرب الاصدقاء اليه فتى من القرية المجاورة لقريته سبقه الى القاهرة بسنة واستطاع ان يجد عنده ما يحب من حديث عن اماكن واشخاص يعرفها كلاهما هذا الحديث الذى يذيب الوحشة ويثير الحنين ويشعر الانســـان بدفء الحياة فى ظلال بلدته وعلى وديانها وحقولها وتحته النخيلات هناك وعـــلى ضـــفاف النهيرات ذلك الحديث الذى لا يجده حسين فى القاهرة الا حين يلم به عمه الحاج والى وقليلا مايفعل ثم هو لا يستطيع ان يفيض معـــه فى الحديث افاضة الصديق الى صديق ٠ وانما هى اسئلة يمنعها الاجلال ان تكثر ويعوقها الخجل ان تصل الى التفاصيل ٠ اما حين يتحدث حسين الى صـــديقه حمـــدى فالذكريات المشـــتركة ، والاماكن التى يعرفها كلاهما والاشخاص الذين تربطهم بهما صلات الملعب والكتاب ٠ فقد كان كتاب القريتين واحدا ٠ وهكذا توطدت الصداقة بين حسين وحمدى ، وأصبح حمدى مرشدا لحسين فى القاهرة ٠ وصار حسين يبتعد عن حى الدراسة مطمئنا الى خبرة حمدى ومعرفته بالطرق فهو يزور احياء القاهرة معتمدا فى السير عـــلى رجليه وفى معرفة الطريق على حمدى ٠ حتى كان يوم زارا فيه حديقة الحيوانات واتما زيارتها وارادا العودة وكان التعب اخذ منهما اخذا وبيلا ٠ فقد قضـــيا يومهما جميعه سائرين وقال حسين :

ـ تركب الترام ؟

ـ نركبه ٠٠ لكن اسمع ٠٠ اتريد ان تركب ام تريـــد ان اجعلك تتنزه نزهة أخرى ٠

ـ انا متعب ٠

ـ انها نزهة مريحة ٠

ـ كيف ٠

ـ نركب سلم الترام بدلا من الترام نفسه فنكسب مكسبين الاول اننا سنكون خارج الترام لنتفرج على الشـــوارع التى سنمر بها فرجة لانستطيعها من داخـــل الترام اما المكسب الثانى فهو اننـــا لن ندفع شيئا ٠

ـ لا بأس ٠

وكان حسين قد تعلم منذ حادثتـــه الاولى الا يخرج بعد الظهر بملابس الازهر فهو يلبس طاقية ومركوبا وجلبابا ٠ وكان حمدى يرتدى مثل هذه الملابس ايضا ٠ وبدأ الاثنان المغامرة ولكن لم يكادا ٠ فقد ركبا أول ماركبا تراما ذا ســـائق لا يحب هذه العادة من الفتيان فما كاد الاثنان يقفان على السلم حتى وجد حسين طاقيته تختطف عن رأسه وقبل ان ينظر الى من اختطفها كانت طاقية حمدى تلحق بطاقيته ونظرا فاذا الســـائق يضـــع الطاقيتين على المقبض الذى يمســـك به ليتحكم فى الترام وهو يقول :

ـ حتى لا تركبا مجـــانا مرة اخرى يا اولاد الكلب ٠

وراح حسين وحمدى يســـتعطفانه ولكن الرجل ظل صامتا وكانه فقد النطق حتى اذا بلغا انحناءة شـــديدة امال السائق الترام بعنف فاذا حسين وحمدى على الارض وقام كلاهما يجرى ولم يكن الترام فى سرعته الكاملة فهما يعودان بجانبه يستعطفان السائق ان يرد اليهما الطاقيتين ولا يجيب ويخشيان ان يثبا

مرة اخرى الى السلم ان يضربهما الرجل الصارم · وزاد الترام من سرعته وزاد الاثنان من سرعة عدوهمـا ، وينفلت المركوب من رجل حسين ويستقر علـى شريط الترام وتمر عليـه العجـلات الحديدية فاذا هو نصفين ويقف حسـين ويضطر حمدى للوقوف · كانت المصيبة واحدة فصارت مصيبتان والطاقية مهما تكن من الوبر غالية الا انها على اية حال ارخص من المركوب · ويمسك حسـين ببقايا المركوب بين يديه والترام يبتعد عنهما بالطاقيتين وينظر حسـين الى حمدى :

ـ ارأيت شـورتك ·· نتفرج ولا ندفع ·

ويضع حسين فردة المركوب تحت ابطه ويمسـك بالمركوب الآخر الممزق ويقطع الطريق حافيا حريصا ان يميل الى كل محل احذية يلاقيه كبيرا كان او صغيرا يسال الواقف به سؤالين :

ـ ايمكن اصلاح هذا ؟

ـ لا ·

ـ ايمكن ان تبيع لى فردة واحدة ؟

وقد يجيب المسئول بلا ساخرا او يجيب بطرده هو وصاحبه فى صـلف وكبرياء ·

ـ ويصل حسين الى غرفتـه ويقفل الباب ويرتمى على فراشـه ويبكى ·· وتثب القطة الى جانبه فيمد اليها يده بغير وعى ويمسح على ظهرها وتنحدر الدموع من عينيه ·

كانت الحجرة فى ذلك اليوم ملاذا له فى بؤسه وشقائه ·· فهو اذن لايريد ان يتركها فقد الفها والفته ·

والف أيضا أهل هذا البيت · فان زوجة صاحب البيت وهى شابة فى ريق العمر كثيرا ماتلقى اليه نظرات فيهـا عطف وفيها انتظار لشىء لم يكن حسين يدرى ماذا تنتظر ولكنه كان يحس ان هناك شيئا تنتظره هذه الفتاة ·· ولكن الايام فى مرورها البطىء جعلته يعرف ان هناك ما تنتظره امراة من رجـل وما ينتظره رجل من امرأة · وحين بلغ اليوم الذى يعرف فيه هذا الشىء كان يقول كلما تذكر الست مفيدة اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ·· اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ·

ـ ١٦ ـ

مر وقت طـويل على الحاج والى لم يزر الزقازيق فانتهز فرصة وجودبعض غلال عنده يريد ان يبيعها فاخذ ابنته لزيارة البندر وسأل الحاجة بمبـة ان كانت تريد شيئا فذكرت له ما تحتاج اليه ولم يكن ما تحتاج اليه كثيرا واخذ الحاج والى طريقه الى البندر راكبا عربته الحنطور التى كان قد طلب الى سائقهـا ان يعود اليه بعد ان يذهب بمحمد الى المدرسة ·

وفى الزقازيق لم يجد تاجر الغـلال الذى تعود ان يعـامله فراح يشترى ما طلبته الحاجة بمبة حتى اذا انتهى من الشراء مال الى المقهى التى يجلس اليها كلما الم بالبندر وفجأة تذكر انه منـذ زمن بعيد لم يزر محمد فى المدرسـة ليعرف كيف يسير فى الدروس· فانتهز الفرصة وقام الى المدرسة ·

وكانما كان الناظر ينتظره ·

ـ كنت ساكتب اليك الآن ·

ـ خيرا ·

ـ المدرسون يشكون من محمد ·

ـ لماذا ؟

ـ لا يريد ان يكتب فى الفصل ويهمل واجباته ·

وصمت الحاج والى قليلا ٠٠ اهكذا تنتهى آماله ٠٠ اهذا ماكان يصبو اليه، يربى طفلا ليس ابنه فيتجه من التعليم وجهة لم يكن يبتغيها ٠ وحين يريد ان ايربى طفلا ليس ابنه فيتجه من التعليم وجهة لم يكن يبتغيها . وحين يريد ان هم ثقيل كانما هو امام طبيب يعلنه بنهاية الحياة ٠

ـ ماذا افعل ؟

ـ اتراك لينا معه ٠

ـ لا ادرى ٠٠ فانا لا أدخر له مطلبا ٠

ـ لعلك لو استددت عليه بعض الشىء ٠

ـ بل اريد ان اشتد عليه كل الشدة ٠٠ انه ابنى الوحيد ياحضرة الناظر ٠

ـ اعرف ٠

ـ وليس لى امل فى الحياة الا ان يتعلم .

ـ اعرف ٠

ـ ماذا لو ضربته الآن امام اخوانه ٠

ـ عقاب شديد لا اريد ان تلجا اليه الا عند الضرورة القصوى ٠

ـ اذن ٠

ـ عقابا اهون من هذا ٠

ـ حسن ٠٠ سيسير محمد فى دراسته على احسن وجه ٠٠ وسأجىء اليك كل اسبوع لاتاكد من ذلك بنفسى ٠٠ واشكرك ياحضرة الناظر ٠

وخرج الحاج والى عائدا الى المقهى وانتظر حتى موعد خروج محمد ٠ وركب العربة وانتظر مع المنتظرين ٠ وخرج محمد ، وفوجىء بابيه فى العربة ٠

ـ سلام عليكم يا آبا ٠

ـ اركب ٠

وركب محمد وسارت العربة ولم ينبس الحاج والى بكلمة وظل محمد صامتا حائرا وقد داخل نفسه هلع لايدرى ماتاه فما هكذا عوده ابوه ٠ كان يتحرق شوقا ان يدرى ما يعتمل بنفس ابيه ولكن انى له هذا وهو لا يستطيع ان يفتح حديثا يغلق ابوه ابوابه ٠ وصار الطريق الذى يقطعه محمد مرتين كل يوم دون ان يحس طوله طويلا طويلا لا ينتهى ٠ فقد كان محمد يحادث السائق اثناء الركوب اما الآن فهو فى صمت مطبق لا يشغله الاصوت العجلات وحوافر الخيل والخوف الراعد الذى يملأ قلبه ٠ وأحس الحاج والى بالحيرة التى يعانيها ابنه ولكن اين هى مما يشغل قلبه من حزن والم ٠

ووقفت العربة امام البيت وقفز محمد يريد ان يبتعد عن نفس ابيه هذه الغاضبة ولكن اباه عاجله ٠

ـ انتظر ٠

وكأنما كانت الكلمة حبلا يمسك بالطفل الصغير فهو يقف مكانه متسمرا ويهبط الحاج والى من العربة ولا يقول الا كلمة واحدة ٠

ـ تعال ٠

ويدخل محمد وراء ابيه ويجد ان الحاجة بمبه فى بهو البيت فيلقى عليها الحاج والى تحية سريعة ويدخل الى الحجرة وهو يقول لمحمد :

ـ تعال ٠

وينظر محمد الى الحاجة وتنظر اليه وتقول :

ـ انت عملت حاجة ؟

وقبل ان يجيب محمد يعلو صوت الحاج والى مرة اخرى فى غضب :

ـ تعال ٠

ويدخل محمد الى الغرفة وتهم الحاجة ان تلحق به ولكن الحاج والى يردها فى شىء من اللين ٠

ـ انتظرى قليلا انت ياحاجة ٠

وترجع الحاجة الى مكانها من البهو ويغلق الحاج باب الغرفة بالمفتاح ٠

ـ لماذا لا تكتب فى الفصل ؟

ويصمت محمد ٠٠ لقد عرف الآن السر فى غضب ابيه ولكن لات حين معرفه ويصرخ ابوه فى وجهه :

ـ انطق ٠

ويرتعد محمد من هول الموقف ويعود ابوه يسأله :

ـ ولماذا تهمل فى واجباتك ؟

ولم ينتظر الحاج والى بل ان يده كانت اسرع من اجابة محمد وانهال على الطفل ضربا والطفل باهت امام ابيه تدور عيناه فى محجريهما ويحس شيئا ساخنا يبل فخذيه ثم تنفجر عيناه بالبكاء والاب يضرب حتى اصبح لايريد ان يقف ويصرخ ٠

ـ ماذا ٠٠ امجنون انت ٠٠ اليس لى الا ابن واحد ويريد ان يصبح ضائعا تافها ٠

ويضرب والفتى يحيط وجهه بذراعيه والاب يضرب لا يدرى اين مواقع ضربه، ويضرب والطفل يبكى حتى صرخ الطفل أخيرا بصوت علا على صوت ابيه :

ـ كفى يا ابا كفى ٠

وكأنما كانت كلمات الطفل القليلة يدا سلطت على قلب الحاج والى فاعتصرته اعتصارا ٠٠ كانت كلمات بسيطة قليلة ليس فيها اعتذار ولا طلب مغفرة ولكنها هزت كيانه كله حتى اوشكت الدموع تطفر من عينيه ٠٠ كفى يا ابا كفى ٠٠ لم يقل غيرها ، فماله قد زلزل زلزالا ، وماله قد كف يده وكأنما قبضت عليها يد اخرى قدت من حديد وتنبه الى طرق زوجته على الباب ففتح لها ولم تسأله وانما احاطت الطفل بحنانها واخذته وخرجت من الغرفة ٠

وظل الحاج والى وحيدا ٠٠ الهذا كنا نأتى بهم ٠٠ لعذابهم وعذابنا ٠٠ ومرة اخرى عاد الضباب يغشى ناظريه الا انه فى هذه المرة كان ضبابا اكثر كثافة من كل مرة ٠٠ واخرج الحاج والى مسبحته وراح يسبح ٠

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ٠٠ سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ٠

ـ ١٧ ـ

لم تكد بهية تستقر فى بيت ابيها حتى سارعت الى التليفون تطلب صديقة الطفولة نعيمة فقد طالت بينهما الغيبة فهى اليها مشوقة تريد ان تسمع من اخبارها الكثير الذى تجمع عبر هذه الفترة المتطاولة التى لم تزر فيها القاهرة ٠ وكأنما كانت نعيمة معها على موعد ، فان عامل التليفون لم يكد يدق لها جرس تليفونها حتى رفعت السماعة واتصل صوت الصديقتين ٠

وما كان التليفون الا وسيلة لتتم الزيارة فما ان انتهى الغداء حتى كانت نعيمة فى بيت زكى بك الناضورجى مصطحبة معها ابنتها ناهد ، اما الام فسيدة فى ريق العمر عدا السمن على جسمها فهو يترهل ولم تعد السنون على وجهها فهو ناضر ، ذات شعر اسود وثغر يحتفظ لنفسه من الحياة بابتسامة كثيرا ما تصبح ضحكة رنانة تصدر عن قلب يهفو الى السعادة تخلصت من كل تفكير أو هم،لها عينان يشقان طريقهما فى الحياة بشعاع من الهناءة المترعة والسعادة الغامرة ، فيهما تطلع الى ما يجتلب اليها السرور والمتعة وفيهما قدرة ان يتجنبا كل ما من شأنه ان يزيل الابتسامة عن الفم او السعادة عن القلب ٠

اما ابنتهـــا • فطفلة لم تزد عن عمر آمال الا انها اكثر منها حركة وحياة ، ورثت عن امها الشعر الاسود والابتسامة وقد يرد امها عما تصبو اليه بعضخجل أو حياء ، او قد يردها عمر ليس بالطفل اما الابنة فلاشيء يردها فهى تفعل ماتريد وقتما تريد حينما تريد •

جلست الامان وسرعان ما بدأ الحديث بطيئا وانيا اول الامر ولكنماهى الالحظات حتى تفجر الينبوع وتشـنـابك الحديث كأنه غابة من الكلمات المتدافعـــة حتى أصـبحت كل منهما وهى لا تدرى ان كانت صاحبتها تسمع أو لاتســــمع • وانما كل ماتعنيان به ان يتحادثا •

ولم تستطع ناهد ان تصبر طـــويلا علىحديث الامينفما اسرع ماتمتالصداقة بينها وبين آمال ، وما أسرع ما انسحبتا من الغرفة لتخلوا الى حديثهما همـــا ايضا •

ـ ماذا تعملين فى المدرسة ؟ •

تجيب آمال •

ـ انا لا اذهب الى المدرسة •

ـ ياه ، وماذا تعملين •

العب مع محمد امام بيتنا ـ هناك فى البلد •• هل عندكم بلد مثلنا •

لا •• ولكنى اذهب الى المدرسة ، وفى البيت نغنى ونرقص •

ـ انا اتعلم فى البيت ، وبعد الظهر العب الكرة •

ـ تأتى عندنا الست عطيـــــات •• المغنية المعروفة••مشهورة جدا اتعرفينها

لا •• انا اذهب الى الغيط ، واركب النورج •• هل عندكم نورج •

لا انا ارقص واغنىمثل الست عطيات اترقصين •

ـ انا •• ابدا •

ـ يا بخسارة •• ساعلمك الرقص •

ـ وأنا ساعلمك ركوب النـــورج ، واجعلك تضربين البقر الذى يجر النورج

ـ عندما ترقصين تصـــفق لك امك وابوك والزوار •

ـ عندنا اسماعيل ابو شعبان اخذنى لاتفرج عليه وهو يدير الطمبــــور •• اتعرفين الطمبور •

ـ الست عطيات احسن واحدة تدق الصاجات •

ـ كان اسماعيل ابو شـــعبان يلف

ـ كان اسماعيل ابو شـــعبان يلف الطمبور وهو عارى الســـاقين فيخرج الطمبور ماء •

ـ الماء عندنا فى الحنفية •

ـ وفى الصيف كنت اقف بجـــانب الغلة وهم يذرونها فى الهواء فتطير ثم يسقط الحب وحده والتبن وحده •

ـ نحن فى الصيف نصعد الى سطح البيت وتغنى الست عطيـــات وترقص وكنت ارقص معها • ويقول ابى اننى ارقص احسن منها ، ولكن امى تقول انها احسن من يمسك صاجات فى مصر •

وقالت الست بهية لصديقتهـــــا نعيمة :

ـ وناهد هل تذهب الى المدرسة ؟

ـ نعم •

ـ ما اسم مدرستها ؟

ـ والله لا ادرى •• ابوها هـــو الذى ادخلها •

ـ الا تعرفين مدرسة ابنتك ؟

ـ وانا مالى •

ـ كيف ؟

ـ يا اختى بلا هم •• وماذا ستعمل بالعلم •• مصيرها تتزوج •

احسن لهـــا ان تتعلم كيف ترضى زوجها •

وتضحك بهيةضحكة مجلجلة وتقول:

ـ وهل تعلمت هذا ؟

ـ ترقص على كيفك ٠

وتقول بهية وبقية الضحكة مازالت عالقة على شفتيها فى شكل ابتسامة :

ـ ولكنى أريد ان ادخل آمال المدرسة٠

ـ اسأل لك عبد السميع عن مدرسة ناهد ٠

ـ واخبرينى غدا بالتليفون ٠٠ قولى لى ٠٠ كيف حالك مع زوجك ٠٠ امازال مبسوطا من ضحكك ولهوك ٠

ـ الرجال اطفال ٠٠ الضحكة تجعلهم كالخراف يفعلون ماتشائين٠٠لا يؤخر لى طلبا ٠٠ طلبت منه ان يشترى جهاز ناهد من الآن فاشترى ٠

ـ وما الداعى ؟

ـ الا تعلمين انه كان متزوجا اخرى وله منها اولاد ، وانا ليس لى منه الا ناهد ٠٠ ان لم احصل على كل ما استطيع منه فى حياته ضعت بعده ٠

ـ انت لئيمة ولا يبين عليك ٠

ـ لا ياحبيبتى الضحك شىء والجد شىء ، جعلته يبيع ارضا لى وسجلها فى فى المحكمة ٠٠ لا ٠٠ كل انسان يجب ان يبحث عن مصلحته ٠

ـ وهو يطيع دائما ؟

ـ ضحكة هنا ورقصة هناك وليلة انس يتم ما اريد ، وانت ماذا تفعلين ؟

ـ انا زوجى ليس له الا امال ولا اعرف شيئا عن احواله الا انه رجل طيب ويفعل ما اريد ٠

ـ وهل يحب آمال ؟

ـ يعبدها ٠

ـ وهل تضحك عليه مثل ناهد ؟

ـ آمال ٠٠ ابدا ٠

ـ لا ٠٠ ناهد تعرف كيف تضحك على أبيها ، ان شافته وهو زعلان مكشر تهمس فى اذنى وتضع الحزام حول وسطها واطبل انا وترقص هى فاذا تكشير ابيها ضحك وانبساط ٠٠انتظرى حتى اجعلها ترقص لك ٠

ـ انتظرى انت حتى انادى زين العابدين وبابا ونينا ليتفرجوا عليها ٠

ـ وانا كيف اقابلهم ؟

وسكتت بهية لحظة فقالت نعيمة :

ـ اطبل لها انا من هنا وهى ترقص فى البهو ٠

وتجمعت العائلة وامرت الام ابنتها أن ترقص ولم تعترض الابنة او تدعى الخجل كانما هى راقصة محترفة تنتظر موعدها لتحيى الليلة ، وبدأ الرقص ، وراحت ناهد تتمايل فى انوثة محترفه وظهر العجب على وجه زين العابدين وقطب زكى بك بعض الشىء ، وارتسمت ضحكة طيبة على وجه ازدهار ، وفرحة ساذجة على وجه بهية ٠ وفجأة مالت ناهد برأسها الى الخلف حتى كادت رأسها ان تلامس الارض وفى غمرة الدهش صفق زين العابدين تصفيقا حارا فهو لم يتوقع ان يرى من الطفلة الصغيرة مايراه فى الكباريه ودون وعى تقدمت آمال الى المسرح وراحت تهز نفسها مثلما تفعل صديقتها الجديدة وقال زكى بك دون وعى :

ـ بنت ٠

ولكن البنت لم تسمع ، وخجل زكى بك ان يصر على منعها خشية ان يمس هذا احساس نعيمة صديقة ابنته واندمجت آمال فى الرقص مع ناهد وراح زين العابدين يصفق تصفيق الخبير محترف الكباريه وراحت امرأته وحماته تقلدانه فى تحرج ما لبث ان اصبح حماسة بينما تصاعد الدم الأحمر القانى الى وجه زكى بك فغمر وجهه وصعد الى رأسه حتى اصبحت القطعة الصلعاء التى تغافل الطربوش وتبرز للعيان من الخلف فى لون الطربوش ذاته.

منطقة الصفر ..
ويأس صامويل بيكيت من الأدب

بقلم : رمسيس عوض

لليأس من الأدب تقاليد وجذور فى تربة الفكر الفرنسى • وفى مقال بالغ القيمة كتبه الناقد « ناثان ا • سكوت » بعنوان « الرحلة حديثا الى منطقة الصفر ـ مثال بيكيت ويأسه من الأدب » ، نراه يقفو أثر فكرة اليأس من الأدب عبر تاريخ فرنسا الثقافى كما عبر عنها « جان كوكتو » بقوله ان « الأدب مستحيل ، وعلينا أن نخرج منه • ليس هناك جدوى من محاولة الخروج عن طريق انتاج المزيد من الأدب » • يقول « ناثان ا• سكوت » ان هذا اليأس من الأدب ينحدر من منتصف القرن التاسع عشر، فرواد اليأس من الأدب فى الأدب الفرنسى هم « بودلير » ، و « لوترمون » ، «ريمبو» • ومن بعدهم حمل ألوية اليأس من الأدب « مالارميه» و « فاليرى » ، والسيرياليون • كانت نظرة اليائسين الأوائل (« بودلير » ، و « لوترمون » ، و « ريمبو ») الى الأدب نظرتهم الى شىء نورانى يهبط فى قدسية من السماء ، وتحيط به هالة من الجلال ، كما كانت نظرتهم الى وظيفة الشاعر لا تختلف عن نظرتهم الى وظيفة الكاهن الذى يجلو أسرار الغيب ، ويهتك حجب المجهول • وبلغ تقديس هؤلاء الأدباء لوظيفة الشاعر الحد الذى جعلهم ينظرون الى قرض الشعر على انه عملية خلق ربوبية تتجدد على أيدى الشعراء ، كأن الله لم يقم بأية عملية خلق على الاطلاق من قبل ، أو كأن عملية خلق الله الأولى للخليقة بحاجة الى أن تتكرر على أيدى الشعراء ، فعملية الخلق تتناسخ مع مولد كل قصيدة عصماء •

❊ ❊ ❊

ويستطرد « ناثان • أ • سكوت » قائلا ان هذه النظرة ، فى اجلال واكبار الى وظيفة الشعر ، التى بدأت تلوح فى سماء الادب الفرنسى فى منتصف القرن التاسع عشر ظلت مستمرة على أيدى « مالارمية » و «فاليرى» ثم السورياليين من بعدهما من أمثال « أندريه بريتون » و « لويس أراجون » الذين أصبح رائدهم جميعا هو تجاوز المحدود الى آفاق اللا محدود ، وتجاوز الطبيعة الى مافوق الطبيعة • ولا شك أن مايقوله « فاليرى » عن وظيفة الشعر يلقى ضوءا كاشفا على طبيعة هذه النظرة التى تنهض على تقديس الادب : « ليس الشعر سوى محاولة ـ عن طريق اللغة الواضحة ـ لتمثيل أو استعادة تلك الأشياء أو ذلك الشىء الذى تسعى العبرات والزفرات والتربيت والقبلات والآهات الخ ••• الى التعبير عنه بطريقة غامضة • وأصبح الشعر

وفي يومنا الراهن نرى روح اليأس من « لعبة الأدب » تشيع بين كثير من الأدباء الفرنسيين المعاصرين • وقد بدأت روح العداء للأدب تتجلى بشكل ظاهر ملحوظ فى نهاية الحرب العالمية الثانية • ويحمل ألوية هـذا العداء للأدب « كلود مورياك » فى ميدان النقد • و « الان روب ـ جريليه » و « ناتالى ساورت » فى ميدان الرواية ، و « ايوجين يونسكو » و « آرثر آداموف » فى ميدان المسرح • ولم تقف أسباب كراهية هؤلاء الأدباء للأدب عند اللغة الكسيحة العاجزة ، ولكنها امتدت الى مضمون الأدب ذاته • وبهذا تخلقت اتجاهات أدبية غريبة اصطلح المشتغلون بالأدب على تسميتها ب « ضد الدراما » و « ضد الرواية » ، وهى اتجاهات تنهض أساسا على مقت الأدب والقنوط منه • حتى دولة « أبولو » نفسها لم تسلم من أثر هذه التيارات اليائسة فيها • ففى كتابه الغريب « المسرح وشبيهه » نجد « أنتونين أرتو » ، واضع نظريات اليأس الأدبى المعـاصر ومشرعه ، يصر على واجب الشـاعر قبل كل شيء وفوق كل شيء هو تكريس أشعاره للتعبير عن خواء الأدب وعبثه •

ويلفت « ناتان٠٠سكوت » نظرنا الى حقيقة بالغة الأهمية ، وفحواها أنه بالرغم من أن اليأس الفرنسى المعاصر من الأدب يستمد جذوره من يأس الأدباء الفرنسيين فى منتصف القرن التاسع عشر ، فان أسباب اليأس المعاصر تغاير كل المغايرة أسباب اليأس القديم • فسبب اليأس عند « ريمبو » ، و « مالارميه » أنهما كانا يسعيان الى استخدام الشعر كقنطرة يعبران عليها من عالمنا السفلى المحدود الى عالم سرمدى لا محدود ، أبدى السنا • فلما استعصت عليهما اللغة انهارت هذه القنطرة وتطرق الى قلبيهما ألم عميم ، فى حين أن أسباب اليأس فى جيل « يونيسكو » و « روب ـ جريليه » تقوم على أن هذا الجيل أيقن أن الله قد مات الى الأبد ، وأنه لاسبيل الى بعثه حيا • وبمعنى آخر ، لم يعد الأدباء المعاصرون ساخطين على الأدب لأنهم لا يستطيعون عن طريقه التعبير عن جذوة النار البروميثيوسية التى تستعر فى وجدانهم ، فيأس الجيل المعاصر فى فرنسا من الأدب ان هو الا جزء لايتجزأ من يأسه العام من الحياة التى غدت فى نظره عبثا ، ومن يأسه من الوجود الذى بات فى رأيه لاينطوى على أى معنى • وقد جعل اليأس المعاصر من الحياة كاتب الرواية فى يومنا هـذا ينظر الى الرواية التقليدية بما تتضمنه من نظام يتجلى فى صورة شخصيات روائية واضحة المعالم أو حبكة منطقية تتسلسل فيها الأحداث نظرته الى أبشع زيف يمكن لانسان أن تقترفه فى وجه الحقيقة • فهذا النظام الروائى المصطنع لايمكن استساغته الا فى عالم يحكمه المنطق ، فى حين أن العالم الذى نعيش فيه تعيث فيه الفوضى ويخلو من كل أثر للنظام • وهذا ماحدا بالأدباء اليائسين فى فرنسا المعاصرة الى نبذ أساليب السرد الروائى التقليدية ، والى رفض استخدام النثر القريب من الواقع ، لأن هذه الأشياء جميعا تحمل فى طياتها أبشع تزييف للحقيقة والواقع ، ولأنها تفرض على العالم نوعا من النظام هو عاطل منه فى حقيقة الأمر • ويقول « ناتان٠٠سكوت » انه عندما يقف اليائسون المعاصرون من الأدب وجها لوجه أمام العبث الذى ينطوى

عليه الكون والوجود ، فانهم لا يجـدون مناصـا من أن يفعلو ما فعله « ألان روب ـ جريليه » ، وهو « الالتصاق بالصفر » على حد تعبير برنارد دور »

* * *

لاشك اننا لاحظنا من هـذه المقدمة الطويلة ان « نائان٠١٠ سكوت » ينظر الى أدب صامويل بيكيت على أنه جزء من التراث الفرنسى ٠ وهو يقول فى هذا الصـدد انه لمن أكثر الامور غرابة أن يجد اليأس فى فرنسا المعاصرة أخطر تعبير عنه على يدى صامويل بيكيت الايرلندى الاصل الذى عاش فى فرنسا جانبا كبيرا من عمره ، والذى يكتب باللغة الفرنسية ثم يقوم بنفسه بترجمة مايكتب الى الانجليزية ، لغته الأصلية ويرى « نائان٠١٠ سكوت » أن بيكيت الذى كتب « ميرفى » عام ١٩٣٨ لايختلف فى جوهره عن بيكيت الذى كتب ثلاثيته المعروفة (« مولوى » ـ « مالون يموت » ـ « الذى لايمكن تسميته » ٠) بعد الحرب العالمية الثانية ٠ ويتنـاول « نائان٠١٠ سكوت » شخصيات بيكيت المسرحية والروائية بالتحليل فيقول انها شخصيات تتناوب العجز والشيخوخة كوات فى الرواية التى تحمل هذا الاسم ، وأشخاص مسرحية « نهـاية اللعبة » ٠ ويغريني تحليل « نائان٠١٠ سـكوت » لشخصيات بيـكيت المسرحية والروائية بنقله الى اللغة العربية ، فهو تحليل دقيق يلقى ضوءا على طبيعة أدب هذا الايرلندى اليائس من الأدب ٠ يقول « نائان ٠١٠ سكوت » :

« ويخلق « بيـكيت » فى رواياته ومسرحيـاته ، من أولهـا الى آخرها ، عالما يستحيل فيه يأس الانسان يأسا مطلقا ، كما تستحيل هزيمته فيه هزيمة مطلقة ، لدرجة انه يكاد يكون من المحـال تصوير هـذا اليـأس وتلك الهزيمة ٠ وهو عالم ـ حسب وضعه ـ يعيش فيه الفرد فى تلك « المناطق الوعرة الشائكة ٠٠ المحفوفة بالمخاطر والأليمة ٠٠ حيث يحل ألم الوجود محل البرم بالحياة ٠ وهو عالم يقوم على الانمحاق التام والفقر المدقع ٠ أبطاله طاعنون فى السن ـ نصف عميان تنبعث منهم روائح عفنة كريهة ، عرج متحطمة أجسادهم ، طريحو الفراش يسيرون على عكاكيز ٠ تتدهور حالتهم أحيـانا فنراهم يزحفون على سـطح الارض ٠ وهم ليسوا كسحـاء فحسب ، يفرطون بلا انقطاع ويتبولون على أنفسهم ، بل هم فقراء كذلك ليس لهم مأوى يحتمون به ، تكاد الأسمال القـديمة البـالية على أجسادهم لا تغطى عريهم ٠ ويستقر بهم المقام تحت شجرة ضامرة يابسة ، أو فى العلب الملقاة فى صـناديق القمامة ، أو فى مسـتشفيات الأمراض العقلية ، أو على فلاة باردة مهجورة تظللها سماء جوفاء خاوية لا تدخل فى القلب العزاء ٠ وهم عجزة وجهلة لا يستـيقنون من هوايتهم أو من المكان الذى يجدون أنفسهم فيه ٠ كما أنهم عاجزون عن الاستمساك باللحظة الراهنة فى أية علاقة لها بالماضى منسجمة ومتناسقة ٠ وهم يعيشـون فى وحشة لا تربطهم بالعالم الخارجى رابطة ٠ وحتى عندمـا يتعثرون فوق زميل لهم

عاجز يعترض سبيلهم – وهم فى قفارهم وبراريهم – بعد أن تكون أسباب الوصل والتفاهم بينهم وبين الآخرين قد انفصمت ، فان ما يتفوهون به من الفاظ ويتلعثمون به من كلمات لا يستطيع أن يكون أداة للوصل والتفاهم • وهكذا نجد أن الصورة الغالبة التى يعطيها لنا « ميرفى » ، و « وات » ، و « مولوى » ، و « مالون » ، و « فلاديمير » ، و « ماستراجون » هى صورة للانمحاق والخواء والفقر المدقع ، كما أنها صورة للاحباط والخسران • »

ولكن يعطينا « ناتان • أ • سكوت » فكرة عامة عما يعنيه بمنطقة الصفر فى أدب صامويل بيكيت مسرحا كان أم رواية ، يسوق الينا هذا الناقد « الفصل التمثيلى بلا كلمات » أو (البانتوميم) الذى أضافه بيكيت فى ختام الطبعة الأمريكية لمسرحيته « لعبة النهاية » • ففى هذا الفصل التمثيلى نرى انسانا وقد اعتلى خشبة المسرح التى توصف بأنها صحراء ، من الضياء يغشى سناها الأبصار • ويترامى الى أسماع هذا الانسان صفير يجيء اليه من جناحى المسرح من وقت الى آخر • ثم نراه يتلفت تارة الى اليمين وتارة الى اليسار • وكلما هم هذا الانسان باتباع مصدر ما يترامى الى سمعه من صفير ، نرى أن قوة تدفع به الى الخلف حتى لا يغادر خشبة المسرح ولكن هذا لا يحول بينه وبين النهوض عقب كل دفعة ، نافضا عن ثيابه الغبار • ويستغرق هذا الانسان بعض الوقت فى التفكير فى تعقب الصفير الذى يصل الى مسامعه من جناحى المسرح من جديد • ولكنه يغير فكره فى نهاية الأمر فيتجاهل الصفير الذى يخفق فى تعقبه • ولا تنتهى المسألة الى هذا الحد ، فنحن نرى أشياء مختلفة تتدلى من أعلى المسرح ، تصاحبها غمرة من الصفير المنبعث من كل اتجاه ، وتلوح هذه الأشياء أمام عينى هذا الانسان الذى يسعى عبثا الى الامساك بها • وتنتزع هذه الأشياء من أمامه ، وتختفى عن أنظاره تماما فيعجز عن اللحاق بها • وأخيرا يتجاهل هذا الانسان – بعد جهد جهيد عابث – هذه الأشياء التى تتدلى أمام عينيه والتى لا يستطيع الامساك بها ، كما تجاهل الصفير الذى فشل فى تعقبه من قبل • ويكتفى هذا الشخص بأن يرقد بكل بساطة على جنبه متجها شطر المكان المخصص لجلوس النظارة دون أن يبدى حراكا ، وهو ينظر الى يديه • هذه هى حالة الصفر التى يريد صامويل بيكيت للانسان أن يصل اليها • وتجد هذه الحالة الصفرية تعبيرا دقيقا لها فى رحلة « موران » الذى يتعقب «مولوى» فى رواية بيكيت المعروفة بهذا الاسم • ففى هذه الرحلة نجد أن رجل « موران » بدأت تتخشب بفعل الشلل ، فهو عاجز عن تحريكها وبدلا من أن يتعقب « موران » أثر « مولوى » ، كما كان المفروض عليه أن يفعل ، نجده يحط رحاله فى مكان لا يبرحه ، وهو يستعذب هذا الشلل الموضعى الخالى من الألم ، كما لو كان ما يشتهيه قد تحقق ، فهو عاجز حرفيا عن الاتيان بأية حركة • و « موران » لا يستعذب الشلل وحده ، بل انه يستعذب أيضا أن يصاب بالصمم والعمى • أكثر من هذا انه يحب لذاكرته أن تنتهى الى نفس هذا المصير ، وان كان لا يحب لها ان تصاب بالشلل الكامل • والسبب فى هذا أنه يريد لمخه أن يحتفظ بقدر من الوعى

يسمح له بالاستمتاع برضاب حالة الصفر هذه · ويصف « ناثان ١٠ · سكوت » السعادة التى تغمر كل من يدخل منطقة الصفر ، فيقول ان أبطال صامويل بيكيت عنــدما يلجون هــذه المنطقة ، يتمتعون رغم يأسهم المطبق فيها ، بقدر من الحيوية يمكنهم من الاتيان بحركة جافة وضعيفة تنم عن الاستهزاء والسخرية ، الأمر الذى يدل على أنه فى اسـتطاعتهم أن يبتهجوا بالعدم ويفرحوا به ، رغم كل ما يلحق بهم من تشويه ، أو يصيبهم من عجز ·

يرى « ناثان ١٠ · سكوت » أن ثلاثية بيكيت الروائية : « مولوى » ، « مالون يموت » ، و « الذى لا يمكن تسميته » تنطوى بوضوح على نفاد صبره من الأدب عامة ومن فن القصة بالذات ، وهو أمر لم يكن بمثل هذه الدرجة من الوضوح عندما كتب بيكيت رواياته الأولى · ويتبلور موقف بيكيت العدائى من الأدب فى أجلى صورة فى ثالث رواية فى الثلاثية ، وهى « الذى لا يمكن تسميته » ، ففيها نجد أن فن القصة لا يعدو أن يكون ، على حد تعبير « ناثان ١٠ · سكوت » مجرد صياغة أوركسترالية مبهمة للصمت النهائى · ويضيف « ناثان ١٠ · سكوت » قائلا اننا نسمع صـــدى العدمية الوجودية المعاصرة يتردد فى لغة واخيلة جميع أجزاء الثلاثية · ويرى هذا الناقد انه يمكن تسمية الثلاثية بهذا العنوان الشامل : « صورة الفنان فى عــالم يتهافت » · فهذا ما يسعى بيكيت الى تصويره عن طريق شخصياته « مولوى » ، و « موران » ، و « مالون » ، و « الذى لا يمكن تســميته » · ويتحدث « ناثان ١٠ · سكوت » عن انشغال شــخصيات الثلاثية بالكتابة فيقول انهم جميعا منكبون على تحويل ما يجيش بهم من هياج واضطراب لا سبيل الى معالجته الى الفاظ · «فمولوى» يدون رحلته فى حجرة أمه ، و « موران » يكتب تقريرا يتضمن سردا لرحلتــه التى قام بها بحثا عن « مولوى » · ويرى « ناثان ١٠ · ســكوت » فى « موران » مثــالا للفنان عند بيكيت ـ ذلك الفنان الذى يحيل الهياج والاضطراب الى ألفاظ · وعندما تتهافت أطراف العالم وتخور ، نجد أنه يتعين على الفنـــان « مولوى ـ موران » أن يوجه نظره شطر حجرة أمه · ويقرر « ناثان ١٠ · سكوت » أن تفسير البرفيسور « كيرن » لدلالة « الأم » تفسير صحيح · فالأم هنا ترمز الى الأصل الذى ينبع منه وجود الانسان ·

« ويشير « ناثان ١٠ · سكوت » الى اجابة « كلوف » التى يرد بها على سؤال « هام » فى مسرحية « لعبة النهاية » عندما يستفسر منه « هــام » اذا كان يرى أى شىء فى الأفق ، ويجيب « كلوف » باقتضاب شديد انه لا يرى شيئا غير « الصفر » ويستطرد « ناثان ٠ أ · سكوت » قائلا ان الفنان فى أدب بيكيت عندما لا يرى فى مواجهته شيئا غير « الصـــفر » ـ ينحسر مقتربا من « أمهــات الوجود » ، أى أنه ينحسر مقتربا من أصول الحياة وجذورها ·

وينتقل « ناثان ١٠ · سكوت » الى تصوير « الصمت » الذى يعبر عنه أدب صامويل بيكيت · فيقول اننا نلاحظ فى « الذى لا يمكن تســـميته » ـ وهى آخر روايات الثلاثية ـ ان العالم الذى يعيش فيه خيـــال البطل ، يختلف بعض الشىء

من العوالم التى يعيش فيها أبطال روايتى « مولوى » و « مالون يموت » من حيث أنه عالم حبيس فى ذاته تمامـــا ٠٠٠ عالم انفصمت كل الوشائج التى يمكن أن تربطه بالخارج ٠ « فالذى لا يمكن تسميته » لا يملك أن يصمت ، فهو يجد نفسه مضطرا الى الكلام أبدا ٠ وتتدفق الكلمات من قلم « الذى لا يمكن تسميته » تملأ الصفحات تلو الصفحات تروى قصة « الصـــمت » ، « صمت العالم الداخلى والخارجى على حد سواء ٠ ويعبر صامويل بيكيت عن حالة « الصمت » هذه فى رواية « الذى لا يمكن تسميته » بقوله :

٠٠ (ذلك) الصـــمت ، الملء بالغمغمات ، والصيحات النائية ، والصـــمت المعتاد المنصرف فى الانصات ، المنصرف فى الانتظار ، فى إنتظار الصوت ، وتنخفض الصـــيحات كشأن كل الصـــيحات ٠٠٠ أى أنهـــا تتوقف ، وتتوقف الغمغمات وتستسلم ، ويبدأ الصوت من جديد ، يبدأ محاولته من جديد ٠ اسرع الآن قبل ألا يتبقى شىء ، لا صـــوت يتبقى ، لا شىء يتبقى غير قلب الغمغمات ، والصيحـات النائية ٠ اسرع الآن وحـاول مرة أخرى بالكلمات التى تبقت ، تحاول ماذا ؟ لست أدرى ٠ لقد نسيت وليس لهذا أهمية ٠ فأنا لم أكن أدرى أبدا ٠٠٠ أنهـا تحملنى الى قصتى ، الكلمات التى تتبقى ، قصتى القديمة التى نسيتها ٠ بعيدا عن هذا المكان ، عبر الجلبة وعبر الباب ٠٠٠ حيث الولوج فى الصمت ٠ »

ويستشهد « ناثان ٠ ا ٠ سكوت » بمـــا يقوله « مودياك » عن الصمت ٠ يقول « مودياك » نحن نسقط هنا ٠٠٠ فى الصمت المطلق ٠ ونحن نجد أن صامويل بيكيت ـ وهـــو عـــدو نموذجى للأدب ـ يفتح عن طريق خلق أدب ينفى ســـائر الآداب ويدمر نفسه فيما يخلقه من مأساة ، بابا فى أنفســـنا كان من الجائز أن يظل موصدا أمامنا حتى بعد جويس وكافكا ٠٠٠ ولا يســـتطيع الانسان ، على أية حال ، أن ينكر أثر هذا الأدب غير العـــادى ، ولا أجرؤ أن أقول فى اثـــراء الحياة ، فهو أدب يصور الوعى بالفقر المدقع الذى يخلقه صامويل بيكيت ٠ هذا الفقر هو مصـــدر ثرائنا الوحيد ، وهو فقر ساحر خلاب لا ينضب له معين » ٠

ويؤيد « ناثان ٠ ا ٠ سكوت » ما يذهب اليه « هيوكينر » من أن ثلاثية بيكيت الروائية تنظر الى الفنان على أنه المصدر الوحيـــد للمعرفة الذى يمكن الوثوق به فى عالم تدب فيه الفوضى ، وينتفى من أرجائه كل أثر للنظام ٠ وفى هذا الصدد يقول « ناثان ٠ ا ٠ سكوت » ان جميع أعمال بيكيت الروائية والمسرحية على حد ســـواء مفعمة بالعدمية الصرفة ، وأنها تصور دواما منطقة الصفر أو العدم ٠ ويتوسل بيكيت الى هذا التصوير باستخدام أبشع الصور وأقذع الاستعارات ٠ ويرى « ناثان ٠ ا ٠ سكوت » فى قول « استراجون » فى مسرحية « فى انتظار جودو » : « لا شىء يحدث ، لا أحد يجىء ، ولا أحد يذهب ٠ انه لشىء فظيع ، تعبيرا يبلور مايسعى أدب بيكيت كله للتعبير عنه ٠ ويدحض « ناثان ٠ ا ٠ سكوت » أى تفســـير لأدب بيكيت ينهض

ماري بوستجيت

تأليف : روديارد كيبلنج

ترجمة : السيد حامد زعلوك

روديارد كيبلنج (١٨٦٥ـ١٩٣٦) شاعر وروائي وقصاص انجليزي . ولد بالهند ورسم لها صورة واضحة في كتاباته واشعاره ، كان أول انجليزي يحوز جائزة نوبل في الادب سنة ١٩٠٧ .

عندما تركت مس ماري بوستجيت خدمة الليدي ماكوزلاند ، كتبت لها الليدي شهادة تزكية تقول فيها انها على درجة كاملة من الوعي ، منظمة ، حلوة المعشر ، تتصرف كما تتصرف السيدات . انني في غاية الأسى لافتراقي عنها ، وسأظل دائما مهتمة بأمر سعادتها ونجاحها .

والحقتها مس فولر بخدمتها بناء على هذه التزكية ، ولدهشتها وهي التي خبرت صحبة الوصيفات والمرافقات .. وجدت هذه الصفات فيها فعلا . كانت مس فولر في ذلك الوقت أقرب الى الستين منها الى الخمسين ، ولكنها رغم حاجتها الى من يعنى بها ، لم تكن ترهق من يقومون على رعايتها من أمرهم عسرا . بل على العكس ، تجلس اليهم وتقص عليهم تاريخ حياتها بطريقة مثيرة عندما تهيجها الذكريات . كان أبوها موظفا صغيرا في احدى المحاكم ، أيام ذلك المعرض العظيم الذي أقيم في سنة ١٨٥١ ، وأثبت وقتئذ أن المدينة قد استكملت كل مقوماتها . وعلى أية حال ، فان جانبا من حكايات مس فولر لم يكن يصلح لصغار السن من الشباب . ولم تكن ماري صغيرة السن ، ورغم أن حديثها كان من ذلك النوع الذي لا لون له ، تماما مثل عينيها أو مثل شعرها ، فلم تكن تشعر بأي رد فعل أو اندهاش . كانت تستمع بكليتها لكل حكاية من هذه الحكايات في غير احجام ، ثم تقول في النهاية « ياله من شيء مثير » . أو تقول : « ياللفظاعة » حسب الاحوال ، وبعد هذا لا تشير اليها مرة أخرى من قريب أو بعيد ، فقد كانت تفخر بأن لها عقلا مدربا ، لا يجهد نفسه فيمعن التفكير في مثل هذه الاشياء وكانت الى جانب هذا معينا من الخبرة لا ينضب في الحسابات المنزلية ، وكان هذا سببا في أن تجار القرية ، بسجلات حساباتهم الاسبوعية لم يكونوا يحبونها ، وفيما عدا هؤلاء لم يكن لها أي أعداء ، ولم تكن تثير أي شعور بالغيرة حتى بين أكثر الناس سذاجة ، كما أن أحدا لا يرجع اليها قولة سوء أو غيبة أو نميمة لأحد . كانت تستطيع أن تعد مائدة الطعام في بيت راعي الابروشية أو في بيت الطبيب بعد نصف ساعة من اخطارها بالامر ،

وكانت تعتبر عمة محبوبة لكثير جدا من الاطفال الصغار فى شوارع القرية ، ممن كان آباؤهم يســـارعون الى رفض ما يسمونه (وصاية) تفرض على أبنائهم، وكانت تحضر اجتماعات لجنـة التمريض بالقرية نيابة عن مس فولر عندما تعجزها آلام التهاب المفاصل · وظلت مدة ستة أشهر تحضر هذه الاجتماعات التى كانت تعقد بصفة دورية مرة كل أسبوعين . وخرجت من هذه الاجتماعات وقد اكتسبت احتراما يتساوى فى مقداره عند جميع العضوات ·

وحين رمى القدر بين يدى مس فولر بابنة أخت يتيمة . تبلغ الحادية عشرة من العمر ، قامت مارى بوستجيت بنصيبها فى تعليم الفتاة طبقا لنظام التعليم فى المدارس الخاصة والعامة· وكانت تراجع قوائم الثياب ، وتحلل محتويات الفواتير التى تحمل مبالغ اجمـــالية ، وتكتب الخطابات الى نظار المدارس الخاصة والعامة وربات البيوت ، ورئيسات الممرضات ، والممرضات ، والاطباء ، ثم تكتئب او تفرح عند قراءة التقارير الدورية ، وكان ويندهام فولر الشاب ، يكافئها فى أثناء أجازاته فيناديها باسم « عمود البوابة » أو « العمود » أو « فتـــلة الدوبارة » ، ويلطمها بين كتفيهـــا النحيلتين ، أو يطاردها حول الحديقة وهى تجرى أمامه لاهثة ، وفمها الواسع مفتوح ، وأنفها الكبير مرفوع فى الهواء ، فوق رقبـــة متصلبة أشبه ما تكون برقبة الجمل ·· بعد هـــذا كان يملأ البيت بالضجيج والمجادلات والخطب الطويلة الرنانة عن حاجاته الشخصية، وما يحب وما لايحب والقيود التى تضعنها (أيتها النساء) ، فتبكى مارى من شدة ما لقيت من تعب جسمانى او تدمع عيناها من شـــدة الضحك اذا حلا له أن يتخذ جانب المرح وفى المـــواقف الحرجـــة التى كانت تتضاعف كلما زاد نموه ، كانت سفيرته والناطقة باسمه عند مس فولر التى لم تكن تحمل كبير عطف أو تفهم لمشكلات الشباب ، وكانت صوتا دائما فى جانبه فى الاجتماعات التى تعقد للنظر فى أمر مستقبله ، وكانت القائمة على شـــئون طعامه ، والمسئولة مسئولية مباشرة عن ترتيب ثيابه وأحذيته التى يبعثرها فى غير نظام ، كانت هدفا لمعابثاته وخادما ذلولا رهن اشارته ·

وعندما قر قراره على دراسة القانون والعمل بالمحاماة ، والتحق بأحد المكاتب الكبرى فى لندن .وتغيرت تحيته لها من (هاللو ، ياعمود البوابة) الى (صباح الخير يافتلة الدوبارة) ، اشتعلت نيران حرب ضروس ، تختلف عن كل الحروب التى تستطيع مارى أن تذكرها ، حرب لم تتاذب وتظل بعيـــدة عن انجلترا ، وتقتصر أحداثهـــا على مجرد النشر فى الصحف ، وانما اعتدت على أرواح أناس كانوا بين من تعرفهـــم · وكما كانت تقول لمس فولر ، كانت حربا « مكدرة للغـــاية» · لقـــد اختطفت ابن راعى الأبرشية الذى كان يعمل فى التجارة مع أخيـــه الاكبر ، واختطفت ابن أخت الكولونيل فى ليـــلة بدء موسم غرس الفاكهة فى كندا ، واختطفت ابن مسز جرانت ، الذى كان ، كما صرحت أمه ، يكرس حياته للخدمة الدينية ، كمـــا اختطفت ، قبل الأوان بكثير ، « وين فولر » الذى بعث اليهـــم ببطاقة من بطاقات البريد يعلن فيهـــا أنه التحق بالقوات الجوية ، وانه يحتاج الى (بلوفر) من الصوف السميك ·

[illegible]
بهذه القوات ، وأن يحصل على (البلوفر) وعلى هذا اشترت ماری الصوف وجاءت ..ابر من المقاس المناسب . بينما راحت مسز فولر تقول لمن يعملون فی مؤسستها الصغيرة ـ وكانا بستانيين ورجلا غريب الاطوار .وذهب البستانيان ، وبقى (تشيب) وهو الرجل الغريب الاطوار ، ورقى الى مرتبة السكنى فی كوخ البستانی . أما الطباخة التی بدأت تحتقر نفسها لبقائها أسيرة حياة الترف والبذخ ، فقد تركت البيت هی الاخرى، بعد مشهد جرى مع مسز فولر، واخذت معها الخادمة . وأعلنت مس فولر نبأ تعيين نيللی ، ابنة « تشيب » التی تبلغ السابعة عشرة ، فی الوظيفة الخالية ، ونبأ رفع مسز « تشيب » الى درجة طباخة ، على أن تقوم بأعمال النظافة بين حين وحين ، وسارت أمور هذه المؤسسة رخاء بعد هذا النقص الكبير فی عدد الموظفين .

وطلب « وين » زيادة فی المصروف الذی يحصل عليه . فقالت مسز فولر ، وكانت دائما تواجه الحقائق فی شجاعة: « يجب أن يحصل على هذه الزيادة . فمن المحتمل ألا يعيش ليسحب هذا المبلغ لمدة طويلة . واذا كانت ثلاثمائة تجعله سعيدا ».

وكان « وين » سعيدا ، وحضر الى البيت ، فی بذلته العسكرية التی أقفلت أزرارها باحكام ليعبر عن امتنانه واعترافه بالجميل .لم يكن مركز تدريبه يبعد عنهم بأكثر من ثلاثين ميلا . وكان حديثه حديثا فنيا معقدا للغاية حتى لقد اضطر الى الاستعانة ببعض الرسوم البيانية لمختلف أنواع المكنات لكی

[illegible]
هذه الرسوم البيانية .

وقال لها وهو يعطيها الرسم : « يحسن بك أن تدرسيه . يا عمود البوابة . سوف ترين كثيرا من هذه المكنات فی وقت ليس ببعيد ». ودرست الرسم ، لكن عندما عاد «وين» مرة ثانية ليزهو بنفسه ويتعاظم بين النساء من أهل قريته ، ووجه اليها بعض الأسئلة سقطت سقوطا ذريعا فی الامتحان ، فبدأ يوبخها كما كان يفعل فی الأيام الماضية.

قال فی صوته الجديد الذی يصطبغ بالصبغة العسكرية : « انك تشبهين الآدميين لا أقل ولا أكثر » . لا بد أنه كان لك مخ فی يوم ما من أيام حياتك الماضية . فماذا فعلت به ؟ أين تحتفظين به ان أية نعجة لا بد أن تعرف أكثر مما تعرفين ، يا عمود البوابة . انك تثيرين الرثاء . انك أقل نفعا من صفيحة فارغة ، أيتها البقرة الكسيحة الذاهلة » .

فقالت مسز فولر من مكانها فوق الكرسی ذی العجلات : « أظن أن هذه هی الطريقة التی يخاطبك بها رؤساؤك من الضباط ممن تعلو رتبهم على رتبتك » .

فأجاب «وين» : « ولكن عمود البوابة لا تمانع . أليس كذلك ، يا فتلة الدوبارة ؟ » .

فغمغمت هی تقول : « ماذا ؟ هل كان وين يقول شيئا ؟ سأكون على علم تام بهذا الرسم عند حضورك فی المرة المقبلة » . ثم زوت ما بين حاجبيها الباهتين وانكبت مرة أخرى عددا آخر من الرسوم الهندسية لتصميم بعض المناطيد والطائرات .

وبعد بضعة أسابيع ، أصبحت أنباء المعارك البرية والبحرية التى تقرؤها لمسز فولر بعد تناول الفطور ، تمر بها بطيئة مثل الأنفاس المتكاسلة • كان قلبها واهتمامها هناك فى الهواء مع « وين » ، الذى كان قد أتم فترة التدريب على « الدوران » (وان كانت لا تعرف معنى هذه الكلمة) ، وأنه ذهب فى سيارة أجرة نزل منها الى طائرة أصبحت ملكا خاصا له بطريقة او بأخرى • وفى صباح أحد الايام دارت بضع دورات حول مداخن بيتهم، ثم هبطت فى قطعة الأرض الفضاء التى يملكها «فيج» ، خارج بوابة الحديقة ، ودخل « وين » الى البيت يصيح فى طلب الطعام • وسحب هو وهى الكرسى ذا العجلات الذى تجلس فيه مسز فولر، كما كانا يفعلان مرارا ، على طول الممشى الذى مهدته الأقدام فى قطعة الأرض الفضاء ، حتى تلقى نظرة على طائرته ذات السطحين • ولاحظت مارى أن « رائحتها كانت كريهة جدا » •

وقال وين : « يا عمود البوابة ، أعتقد أنك تفكرين بأنفك • وأعرف أنك لا تفكرين بعقلك • والآن ، ماطراز هذه الطائرة ؟ » •

فقالت مارى : « سأذهب وأحضر الرسم » •

فصاح فيها قائلا : « أنت انسانة ميئوس منها • أنت لا تملكين المقدرة التى يملكها فار أبيض صغير » • ثم راح يشرح لها عمل مختلف الأجهزة والعدادات ، وآلات اسقاط القنابل من الطائرة الى أن حل الوقت الذى يركب فيه الطائرة مرة أخرى ويمتطى صهوة السحب المحملة بالأمطار من جديد •

وقالتمارى والطائرة الكريهة الرائحة تلمع وهى تشق الهواء مصعدة فى السماء • آه • انتظروا حتى تبدأ قواتنا الجوية العمل • وين يقول أن الطيران أكثر أمانا من البقاء فى داخل الخنادق•

فقالت مسز فولر : ترى ما الذى سيحدث وقتئذ • أخبرى تشيب بأن يأتى الى هنا ليسحب الكرسى الى البيت مرة أخرى •

فقالت مارى : ان الطريق كله منحدر ويمكننى أن أسحب الكرسى وحدى اذا جذبت أنت «الفرامل» ثم أسندت جسدها النحيل الى القضيب الذى يدفع منه الكرسى ، وبدأتا تنحدران عائدتين الى البيت •

وقالت مسز فولر التى تدثرت بطائفة كبيرة من الثياب، والآن احترسى حتى لايدفأ جسمك وتصابى بالبرد •

فقالت مارى: « لاشىء يجعلنى أعرق» ثم فردت ظهرها عندما أدخلت الكرسى الى دهليز البيت • كان الجهد الذى بذلته قد بعث بشىء من الاحمرار الى خديها ،وفكت الريح خصلة من خصلات شعرها راحت تتراقص فوق جبينها ، ورمقتها مسز فولر بنظراتها •

وسألتها على حين غرة : ما الذى تفكرين فيه دائما ، يامارى ؟

ـ أوه ، يقول وين انه يريد ثلاثة جوارب أخرى من الصوف ، تكون ثقيلة بقدر ما نستطيع •

ـ نعم • ولكننى أقصد الاشياء التى تفكر فيها النساء • هانتذى قد جاوزت الاربعين من العمر •

فقالت مارى فى صدق : الرابعة والاربعين •

ـ حسنا •

ـ حسنا ؟ وتركت مارى كتفها لمسز فولر تستند اليه كالعادة •

ـ هاقد مضى عليك معى حتى الآن عشر سنوات كاملة ·

فقالت مارى : دعينى أر · كان «وين» فى الحادية عشرة من عمره عندما جاء الى هنا · وهاهو ذا قد بلغ العشرين الآن· ولقد جئت قبله بسنتين · فيكون قد مضى على وجودى هنا احدى عشرة سنة ·

ـ احدى عشرة سنة ولم يحدث أن أخبرتنى بشىء ذى قيمة على الاطلاق طوال هذه السنين · واذا رجعت الى الايام الماضية، بدا لى أننى أنا التى قمت بكل الكلام ·

ـ أخشى أننى لست محدثة ممتازة وكما يقول «وين» فانى لست واسعة الادراك · دعينى أخلع عنك قبعتك ·

وتحركت مسز فولر فى توتر ، وطرقت بلاط أرض الردهة بطرف عصاها المغطى بالمطاط ·

مارى ، ألست أى شىء آخر سوى مرافقة؟ هل كان يمكن اطلاقا أن تكونى أى شىء آخر سوى مرافقة ·

علقت مارى القبعة فى مكانها من الشماعة ، وقالت بعد تفكير : لا · لا أتخيل أن باستطاعتى أن أكون · · ولكن ليست لى القدرة على التخيل ، للأسف ·

وجاءت لمسز فولر بكوب الدواء الذى تتناوله فى الساعة الحادية عشرة ·

كانوا فى ذلك الوقت فى شهر ديسمبر الرطب ، وفيه يسقط المطر بمعدل ست بوصات ، ولا تغادر النساء البيوت الا نادرا · وزارتهم مركبة وين الطائرة مرات كثيرة ، وظلت مارى صباحين متتاليين (وكان قدأبلغها ببطاقة بريد) تسمع أزيز محركات طائرته مع الفجر · وفى المرة الثانية جرت الى النافذة، وراحت تحملق فى السماء التى يتحول سوادها رويدا رويدا الى بياض يبشر بصبح جديد · ومرت الطائرة من فوق رأسها على ارتفاع كبير وكأنهانقطة فرفعت نحوها ذراعيها الناحلين ·

وفى الساعة السادسة من مساء اليوم ذاتهجاءتهم اشارة رسميةداخل مظروف حكومى تفيد بأن الملازم ثان «و·فولر» قد قتل فى أثناء طيرانه فى رحلة تجريبية ، وان الوفاة كانت سريعة ·· وقرأت الاشارة ثم حملتها الى مسز فولر ·

وقالت مسز فولر بعد أن علمت بالنبأ : لم أتوقع أبدا شيئا غير ذلك · لكن يحزننى أن يحدث هذا قبل أن يقوم بأية عملية ·

كانت الغرفة تدور بمارى بوستجيت كما تدور الدوامة ، ولكنها وجدتنفسها تقف ثابتة تماما فى وسط الغرفة ·

وقالت : نعم ، مما يثير الرثاء أنه لم يمت فى احدى العمليات بعد أن يكون قد قتل أى انسان ·

واستطردت مسز فولر تقول : كانت الوفاة سريعة ، وهذا يخفف قليلا من وقع المصاب ·

فقالت مارى ، وهى تستشهد بكلام «وين» : ولكن «وين» يقول ان صدمة الخوف من السقوط تقتل الانسان فى الحال ، مهما حدث لخزانات البنزين ·

كان الهدوء قد بدأ يخيم على الغرفة ، وسمعت مس فولر تقول بصبر نافد : ولكن لماذا لانستطيع أن نبكى يامارى ؟ وسمعت نفسها تجيب قائلة : ليسهناك ما يدعو الى البكاء · لقد أدى واجبه تماما مثلما فعل ابن مسز جرانت ·

فقالت مسز فولر : وعندما مات ·· جاءت هى وظلت تبكى الصباح بطوله ·

ان هذا وحده يجعلني أشعر بالتعب .. التعب الشديد . هل لك في أن تأخذي بيدي الى فراشي ، ياماري ؟ وأظن أنني أميل الى استعمال قربة الماء الساخن الليلة .

وساعدتها ماري ، ثم جلست بجانب الفراش ، تتحدث عن «وين» وهو في فورة الشباب .

وقالت مس فولر فجأة : أعتقد أن كبار السن والصغار كذلك يتخطون مثل هذه الصدمة ، أما من هم في أواسط العمر فانهم يحسون وقعها أكثر من غيرهم .

فقالت ماري وهي تهب واقفة : أعتقد أن هذا صحيح . سأذهب الآن لأخلي غرفته مما بها من أشياء . ألن ترتدي ثياب الحداد ؟

فقالت مسز فولر : قطعا ، لا . فيما عدا الجنازة بالطبع . أنا لن أستطيع الذهاب . أما أنت فستذهبين . أريد منك أن تتخذي الاجراءات لدفنه هنا . ويالها من نعمة أن هذا لم يحدث في سالسبوري .

كان الجميع ، ابتداء من كبار رجال القوات الجوية الى راعي الأبرشية ... يبدون نحوهم غاية العطف ويشاركونهم في الاحساس بالالم . ووجدت ماري نفسها في تلك اللحظة في عالم كانت الاجسام البشرية تنقل فيه بجميع أنواع وسائل النقل الى جميع أنواع الأماكن والبلاد . وفي أثناء الجنازة وقف الى جانب القبر شابان من زملائه يرتديان ملابسهما العسكرية وقد زرراها باحكام وتحدثا اليها بعد أن انتهى كل شيء .

قال أحدهما : أنت مس بوستجيت ، أليس كذلك ؟ (فولر) حدثني عنك كان شابا طيبا - زميلا من الطراز الاول - خسارة فادحة .

فزمجر رفيقه مؤمنا : خسارة فادحة اننا جميعا شديدو الحزن عليه .

وهمست ماري : وما الارتفاع الذي سقط منه .

- لابد أنه يقرب كثيرا من أربعة آلاف قدم ، أليس كذلك ؟ ألم تكن طائرا في ذلك اليوم ، يامنكي ؟

فأجابه الشاب الآخر : تماما ، كان مؤشر الارتفاع في طائرتي يشيرالى ثلاثة آلاف قدم ، وكنت منخفضا عنه بكثير .

فقالت ماري : هذا حسن اذن . شكرا جزيلا لكما .

وشرعا في الانصراف في الوقت الذي ارتمت فيه مسز جرانت باكية على صدر ماري العريض ، عند مدخل المقبرة وهي تصرخ : أنا أعلم بوقع المصاب ، أنا أعلم بوقع المصاب .

وردت ماري وهي تبعدها عن صدرها قائلة : ولكن أبويه كليهما قد ماتا من قبل . ثم أضافت قائلة في غموض وهي تهرب منها الى العربة التي كانت تنتظر : ربما يكونون الآن قد التقوا كلهم .

وولولت مسز جرانت قائلة : لقد فكرت في هذا أيضا . ولكنه عندئذ سيكون غريبا عنهم من الناحية الفعلية شيء محير تماما .

نقلت ماري بأمانة كل صغيرة وكبيرة مما حدث في أثناء الجنازة الى مس فولر التي ضحكت عالية عندما وصفت لها ماري سورة مسز جرانت .

- أوه ، كم كان «وين» يستمتع بمثل هذا المنظر . لم يكن أحد يستطيع أن يعتمد عليه أبدا في الجنازات . هل تذكرين ، وراحتا تتحدثان عنه من جديد وكل منهما تضيف ما تنساه الاخرى

الى أن قالت مس فولر : « والآن لنعلق الستائر ولنقم ببعض الترتيب العام . هذا يفيدنا دائما فائدة كبيرة . هل اعتنيت بأشياء «وين» .

فقالت مارى : بكل شيء ـ منذ قدم الى هنا لاول مرة . لم يكن ميالا الى الاتلاف مطلقا ـ ولا حتى مع لعبه .

وواجها الغرفة الانيقة .

وقالت مارى أخيرا : لا يمكن ان يكون طبيعيا ألا نبكى . اننى أخشى عليك كثيرا من رد الفعل .

ـ كما قلت لك ، فاننا نحن العجائز نتخطى مثل هذه الصدمة . أنت هى التى أخاف عليها من رد الفعل . هل بكيت بعد ؟ .

ـ « لاأستطيع أن أبكى . ان هذا يجعلنى أشد نقمة على الألمان » .

فقالت مس فولر : « هذا اسراف فى القضاء على ما فينا من حيوية كامنة . يجب أن نعيش الى أن تنتهى الحرب » . ثم فتحت صوانا مكتظا بالثياب . « والآن ، لقد كنت أقلب الرأى فى كثير من المسائل . وهذه هى خطتى . كل ثيابه المدنية يمكن أن نتبرع بها ـ للاجئين البلجيكيين ، ومن اليهم » .

وأطرقت مارى برأسها « وأحذيته ، وياقاته ، وقفازاته ؟ » .

ـ « نعم . لا حاجة بنا لأن نحتفظ بشيء سوى حزامه وقلنسوته » .

ـ « لقد جيء بهما أمس مع بقية ملابسه العسكرية » ـ وأشارت مارى الى لفافة ملقاة فوق السرير الحديدى الصغير .

ـ « آه . ولكن احتفظى بثياب الخدمة . قد يسر بها أحد فيما بعد . هل تذكرين مقاييس ثيابه ؟ » .

ـ « الطول خمسة أقدام وثمانى [illegible] نصف . ومحيط الصدر ست وثلاثون بوصة . ولكنه أخبرنى أن محيط صدره بمقدار بوصه ونصف بوصة . سأسجل هذه المقاييس على بطاقة أشبكها على الكيس الذى يضم هذه الثياب » .

فقالت مس فولر وهى تنقر على راحة احدى يديها بالأصبع الوسطى من يدها الأخرى . « اذن انتهينا من هذا . يا له من اسراف زائد ! . غدا نحضر حقيبة ثيابه المدرسية ونجمع فيها ثيابه المدنية » .

فقالت مارى : « والباقى ؟ كتبه وصوره ولعبه ـ و ـ والباقى ؟ » .

فقالت مس فولر : « أن نحرقها جميعا . عندئذ سنعرف الى أين انتهت ولن يستطيع أحد أن يلمسها من بعده . ما رأيك ؟ » .

فقالت مارى : « أعتقد أن هذا هو خير حل . ولكن توجد كمية كبيرة جدا منها » .

فقالت مسز فولر : « نحرقها فى فرن الحريق » .

وكان هذا فرنا مقاما فى الخلاء يستعمل لاحراق القمامة والنفايات والتخلص منها ، وهو على هيئة برج دائرى صغير من الطوب المضغوط يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام قائم فوق شبكة من الاسياخ الحديدية المتقاطعة . وكانت مس فولر قد رأت تصميمه فى احدى الصحف الخاصة بفلاحة البساتين من سنين مضت ، فأمرت باقامته فى آخر الحديقة . كان شيئا يرضى روحها التى تنزع الى النظام ، فقد وفر عليها رؤية منظر اكوام القمامة التى لاتطاق ، فضلا عن أن الرماد المتخلف كان يخفف من صلابة الارض الطينية الجافة .

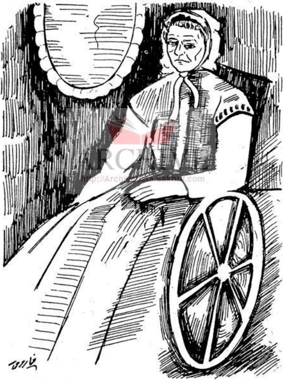
وأعملت ماري التفكير لحظة ، فرأت السبيل أمامها واضحا ، وأطرقت برأسها مرة أخرى . وقضت المرأتان المساء تحرمان البدل المدنية التي تذكرانهما جيدا ، والثياب الداخلية التي كانت ماري قد وضعت لها علامات مميزة ، وأكداس الجوارب وأربطة العنق الزاهية الالوان . واحتاج الامر الى حقيبة ثانية ، ثم صندوق صغير آخر ، حملها في ضحى اليوم التالي تشيب وأحد الحمالين الى احدى العربات . وكان راعي الابرشية لحسن الحظ يعرف ابنا لأحد أصدقائه يبلغ طوله خمسة أقدام وثماني بوصات ونصف بوصة ، يرحب كثيرا بالحصول على طاقم كامل من ثياب القوات الجوية ، فأرسل ابن البستاني لكي يسلمها اليه . وعلقت القلنسوة في غرفة نوم مس فولر ، كما علق الحزام في غرفة مس بوستجيت ، فلم تكن بهما رغبة ، على حد قول مس فولر ، لأن تجعلا من القلنسوة والحزام مادة للحديث على مائدة حفلات الشاي .

وقالت مس فولر : « انتهينا من هذا ، وسأترك لك الباقي ، يا ماري ، فانا لاأستطيع أن أجري رائحة غادية في الحديقة . يحسن بك أن تأخذي سلة الغسيل الكبيرة وتأخذي نيللي لكي تساعدك » .

فقالت ماري : « سآخذ عربة اليد الصغيرة وأقوم بكل شيء بنفسي » . واقفلت فمها لأول مرة في حياتها .

كانت مس فولر ، في أوقات غضبها ، تطلق على ماري لقب المثالية العنيدة . وارتدت أقدم ثيابها الواقية من المطر ، وقبعتها ، حذاءها الواسع الذي لا يثبت في قدميها ، فقد كانت حالة الجو تنذر بقرب هطول المزيد من المطر ، وجمعت مواد اشعال النار من المطبخ ، وكمية صغيرة من الفحم ، وحزمة من عيدان الحطب . وحملت هذه الاشياء في عربة اليد الصغيرة فوق ممرات الحديقة المغطاة بالحطب الى مكان كثير العشب تحيط به أشجار الغار المبتلة بماء المطر ، حيث يقوم فرن الحريق تظلله ثلاث من شجرات البلوط تقطر فروعها المطر من فوقه . وتسلقت السور الحديدي ونزلت الى حقل الأبرشية خلف الفرن . وبعد هذا ظلت تقطع الرحلة بين الفرن والبيت ، مارة في كل مرة بوجه مس فولر المتقع وهو يطل من نافذة الحجرة التي تقضي بها فترة الصباح ، تحمل في عربة اليد سلة الغسيل ، مغطاة بفوطة ، تملؤها بمتعلقاته من لعب وكتب مدرسية ، واطالس ، وأكوام من اعداد غير مسلسلة من مجلة « هواة الدراجات البخارية » و « العربات الخفيفة » ، وكتالوجات عن المعارض المختلفة ، وبقايا أسطول من اليخوت والمراكب الشراعية الصغيرة تتراوح أثمانها بين تسعة بنسات للمركب الصغير وستين شلنا لليخت الكبير ، وثوب من ثياب المدارس الاعدادية ، ومجموعة من المضارب تتراوح أثمانها بين ثلاثة شلنات ونصف وبين أربعة وعشرين شلنا ، وكرات للتنس والكريكت ، وطائفة من القطارات بعضها يعمل بالبخار وبعضها يعمل بالزنبركات ، بقضبانها الملتوية ، ونموذج لغواصة من الصفيح مدهونة باللونين الرمادي والاحمر ، وجرامفون قديم وأسطوانات مشدوخة ، ومضارب للجولف كان لابد لماري من كسرها فوق ركبتها كما فعلت بمجموعة العصي التي كان يستعملها في سيره ، وحربه

كان يقذفها أثناء اللعب ، ومجموعة من الصور الفوتوغرافية لفرق كرة القدم والكريكت فى المدارس الخاصة والمدارس العامة ومجموعة من آلات التصوير الشمسى ، والافلام ، وبضع كئوس من النحاس الاصفر وكأس من الفضة الخالصة ، نالها فى مسابقات الملاكمة وسباق الحواجز للناشئين



وأكداس من الصور المدرسية ، وصورة مس فولر ، وصورة لها ، كان اخذها منها على سبيل المزاح (وحرصت على ألا تطلبها منه · ، ولم يعدها اليها ، وصندوق للعب به درج سحرى، وطائفة كبيرة من الثياب الصوفية والاحزمة ، والملابس الداخلية ، وحذاء جديد لم يخرجه من علبته ، وحزمة تضم جميع الخطابات التى أرسلتها هى ومس فولر اليه ، وقد احتفظ بها كل هذه السنين لسبب لابد غير معقول ، وكراسة تضم محاولة ساذجة فى كتابة اليوميات بها وصف لخمسة أيام ، وطائفة من الصور لسباق السيارات ، كل منها داخل اطار، وكميات من الاشياء المختلطة ، وصناديق العدد المختلفة ، وفخاخ الارانب ، والبطاريات الكهربائية وأدوات اللحام ، والمناشير ، وألعاب الحواة ·

كانت مس فولر تراقبها من مجلسها خلف النافذة وهى تروح وتغدو .فقالت لنفسها : « ان مارى امرأة عجوز · اننى لم أفطن الى هذا مطلقا من قبل »·

وبعد الغداء نصحتها بأن تنال قسطا من الراحة ·

فقالت مارى : « أنا لاأشعر بتعب على الاطلاق · لقد رتبت كل شىء · سأذهب الى القرية فى الساعة الثانية لكى أشترى بعض الكيروسين · ليس عند نيللى ما يكفى ، وسوف يفيدنى المشى كثيرا » ·

واجرت تفتيشا أخيرا فى أرجاء البيت قبل أن تبدأ المسير ، فوجدت أنها لم تغفل شيئا · وبدأ الضباب يتجمع فى اللحظة التى انتهت فيها من قطعة الارض الفضاء التى يملكها « فيج » ، حيث اعتاد وين أن يهبط بطائرته ـ وبدا لها أنها تكاد تسمع ازيز محركات طائرته فوق رأسها ، ولكن لم يكن فى السماء مايرى · وفردت مظلتها ثم قذفت بنفسها فى هذا الجو الممطر العاصف وراحت تسير على غير هدى الى أن صارت فى داخل حدود القرية الخاوية · وبينما هى تغادر دكان « كيد » تحمل زجاجة مليئة بالكيروسين فى حقيبة حوائجها المصنوعة من الخيوط السميكة ، قابلت الممرضة « ايدن » ، ممرضة القرية ، وبدأت تجاذبها أطراف الحديث ، كالعادة ، عن أطفال القرية · وكانتا على وشك الافتراق أمام حانة « رويال أوك » عندما سمعتا صوت مدفع ينطلق ، خلف البيت مباشرة ، تبعه صراخ بدأ حادا ثم بدأ يخفت حتى تحول الى أنين ·

وقالت الممرضة « ايدن » مستجيبة للموقف : « حادث · » ثم اندفعت تعبر الحانة الخالية ، ومارى فى أثرها · ووجدتا مسز « جيريت » زوجة صاحب الحانة ، وهى لاتستطيع أن تفعل شيئا سوى أن تتنفس فى صعوبة وتشير نحو الفناء الداخلى للحانة ، حيث كان المخزن الصغير الذى توضع فيه عربة نقل الخمور ، ينزلق متهدما على أحد جوانبه وسط قرقعة تهشم البلاط الذى يغطى ارضيته · ونزعت الممرضة « ايدن » ملاءة علقت أمام النار كى تجف ، وجرت الى الفناء فالتقطت شيئا من فوق الارض رفعته بين يديها وأحاطته بالملاءة · وتحولت الملاءة ونصف ثياب الممرضة الى اللون الاحمر القانى وهى تدخل بحملها الى المطبخ · كانت (ادنا جيريت) الصغيرة ، التى تبلغ التاسعة من العمر والتى تعرفها مارى منذ كانت أمهاتحملها فى عربة الاطفال ·

وتساءلت (ادنا) قائلة : (هل اصابتى بالغة ؟) ثم ماتت بين يدى الممرضة (ايدن) التى كانت دماء الصبية تقطر منهما · وسقطت الملاءة جانبا ، وقبل أن تستطيع مارى اغماض

عينيها ، لمحت الجسد المسجى وقدتمزق شر ممزق ٠

عجيب أنها استطاعت أن تنطق ٠ ما هذا الذى حدث بحق السماء ؟ » ٠

فقالت مارى : « قنبلة » ٠

ـ « منطاد آخر من مناطيد زبلن ؟ »

ـ « لا ، بل طائرة ٠ اظننى سمعت محركاتها فوق قطعة الارض الفضاء . ولكنى ظننت أنها احدى طائراتنا٠ لابد أنهـا أوقفت محركاتها وهى تهبـط الى أسفل ـهذا هو السبب فىاننا لم ننتبه اليها » ٠

فقالت الممرضـة ، وهى ترتعد وقد ابيض وجهها من شدة الغضب: « أولئك الخنازير القذرون ٠ تأملى الورطـة التى أنا فيهـا ٠ اذهبى وأبلغى الدكتـور «هينيس» يا مس «بوستجيت» ٠ قالت هذا ونظراتها تتجه نحو الأم التى كانت قد خرجت مغشـيا عليهـا ووجهـا الى الارض ، ثم قالت : « انها نوبة اغماء ٠ اقلبيها ليصير وجهها الىأعلى » ٠

وحركت « مارى » « مسز جريت » حتى صـار جنبهـا الأيمن الى أعلى ، واسرعت تسـعى فى طلب الطبيـب ٠ وعندما قصت عليه القصة ، طلب اليها أن تبقى فى غرفة العمليات حتى يحضر لها شيئا تشربه ٠

فقالت : « ولكنى اؤكد لك أننى لا أحتاج لشىء ٠ لا اظن أن من الحكمة أن نخبر مس فولر بشىء مما حدث، أم أنك ترى أن نخبرها؟ ان قلبها حساسللغاية فى هذا الجو » ٠

ونظر اليها الدكتور « هينيس » فى اعجاب وهو يعد حقيبة أدواته ٠

ثم قال : « لا ، لا تخبرى أى انسان الى أن نتـأكد » ٠ ثم أسرع الى حـانة « رويال أوك » على حـين مضـت مارى فىطريقها الى البيت ومعها الكيروسين٠ وكانت القرية التى خلفتها من ورائهـا ساكنة كالعادة فلم يكن الخبر قد ذاع بعد ٠ وعبس وجههـا قليلا ، واتسعت فتحتا أنفها بصورة منفرة ، ومن حين لآخر راحت تغمغم بعبارة كان «وين» ، الذى لم يكن يكبح جمـاح نفسه أمام النسوة من أسل قريته ، يصف بهـا الاعداء ٠ « الكفرة ، السفاحون ٠ انهم فعلا كفرة سـفاحون » ٠ ثم أكملت الحديث لنفسها ، وهى تعود الى المبدأ الذى وطنت عليه نفسها قائلة : «ولكن يجب ألا يجهد المرء عقله بالتفكير فى مثل هذه الاشياء » ٠

وقبل أن تصل الى البيت ، لحق بهـا الدكتور هينيس فى عربتـه ، وكان كونستبلا خاصا فى فرقة الدفاع المدنى كذلك ٠

وقال لها : «اوه ، يامس بوستجيت، كنت أريـد أن أخبرك بأن حادثة حانة «رويال أوك» كانت نتيجة لتهدم مخزن «جيريت» ٠ كان وجوده خطرا منذ وقت طويل ٠ كان الواجب أن يهدم » ٠

فقالت مارى : «أظننى سمعت صوت انفجار أيضا» ٠

ـ «ربما انخدعت بفرقعةكتل الخشب وهى تتحطم ٠ كنت أراقبها منذ مدة ٠ كانت متآكلة نخرها السـوس فى كل اجزائهـا ٠ وبالطبع ، عندما تحطمت صدرت عنها ضجة تشـبه صوت اطلاق المدفع » ٠

فقالت مارى فى أدب جم : «أحقا؟»

واستمرت فى الكلام ، وهو ما زال يحدجها بناظريه : «كانت اونا المسكينة تلعب تحت سـقفه ٠ فمزقتهـا كتل الخشـب وبلاط الارضية اربا اربا ، أفهمت ؟ » ٠

فقالت مارى وهى تهز رأسها : «لقد رأيتها ، وسمعتها كذلك » .

وغير الدكتور هينيس لهجته تماما وهو يقول : حسنا ، لايمكن أن نكون متاكدين. اننى أعرفك وأعرف الممرضة « ايدن ولقد تحدثت معها » وأعلم أنكما أهل للثقـــة ، وأستطيع أن أعتمد على أنكما لن تخبرا أحدا بشىء ـ فليس من الخير اثارة حفيظة الناس الا اذا ـ »

فقالت مارى : « أوه ـ أنا لا أفعل هـــذا أبدا ـ على أية حال » . ومضى الدكتور هينيس فى طريقه الى عاصمة المقاطعة .

وقالت فى نفسهـــا انه ، رغم كل شىء ، قد يكون تهدم المخزن القديم فعلا هو الذى فعل هـــذا كله بادنا الصغيرة المسكينة . وكانت نادمة على مجرد انها لمحت فى حديثها الى أشياء أخرى، ولكن الممرضة «ايدن» ليست حكيمة فحسب، بل انها الحكمة ذاتهـــا . وفى الوقت الذى وصلت فيه الى البيت بدا لها أن الحادث يتقادم بسرعة متزايدة لفظاعته المخيفة . وما ان دخلت الى البيت حتى اخبرتها مس، فولر أن طائرتين مرتا منذ نصف ساعة .

فردت قائلة : « أظن اننى سمعتهما. سأنزل الى الحديقة الآن . لقد أحضرت الكيروسين » .

ـ « نعم ، ولكن ـ ما الذى تحملينه داخل حذائك ؟ انه يقطر ماء . البسى غيره على الفور » .

ولم تصدع مارى بالامر فتلبس حذاء اخر فحسب ، وانما لفت الحذاء المبتل فى ورق جريدة قديمـــة ووضعته فى حقيبة الحوائج مع الزجاجة ، ثم خرجت الى الحديقة بعـــد أن تسلحت بأطول قضيب من الحديد يستعمل لتحريك النار فى المطبخ .

وكان آخر ما سمعت قول مس فولر: «بدأ المطر يهطل مرة أخرى . ولكن ـ اننى أعلم انك لن تكونى سعيدة حتى تنتهى من هذا العمل » .

ـ « انه لن يستغرق وقتا طويلا . لقد نقلت كل شىء الى هناك ، وأحكمت غطاء فرن الحريق حتى لا يتسرب اليه ماء المطر » .

كان المكان يسبح فى ضوء الشفق فى الوقت الذى انتهت فيه من اعداد كل شىء وسكبت الكيروسين . وعنـــدما أوقدت عود الثقاب الذى سوف يحرق قلبهـــا ويحيله الى رماد ، سمعت صوت توجع وأنين يصدر من خلف أشـــجار الغار البرتقالية الكثيفة .

ونادت فى صبر نافد : « تشيب؟ » ولكن «تشيب» الذى يعانى من روماتيزم قديم بجعله يلوذ بكوخه المريح هو آخر انسان يمكن أن يدنس هـــذا الحرم المقدس . فقالت «مستنتجة : لا بد أنه صوت الاغنام ، ثم قذفت بعود الثقـــاب الى الفرن . واشتعلت النار داخل الفرن بصوت يشـــبه الزئير ، وعجلت أضواء ألســـنة اللهب بانتشـــار الظلام فيما حولها .

وقالت فى نفسها : « كم كان «وين» يحب منظرا مثل هـــذا . » وخطت الى الخلف لتتقى وهج النار . وعلى الضوء الذى ينبعث من اللهـــب رأت مارى ، خلف شجرة غار تبعد عن مكان وقوفها خمس خطوات ، رجـــلا عارى الرأس يجلس فى تصلب شـــديد عند قاعدة احدى شـــجرات البلوط . ورأت فرعا ضخما من فروع الشـــجرة قد انكسر وسقط فى حـــجره ، وبرزت من تحته

رجل تلبس فى قدمها فردة حذاء من أحذية الجنود. وكان رأسه يتحرك من جانب الى آخر بغير انقطاع، ولكن جسمه كان ثابتا مثل جذع الشجرة · وكان يرتدى ـ وهنا تحركت جانبا لتراه بوضوح أكثر ـ بدلة عسكرية تشبه بدلة «وين» لها قلابة فوق الصدر مقفلة بأزرار ، وظنت لحظة أنه ربما كان أحد الطيارين الشبان الذين قابلتهم فى أثناء تشييع الجنازة · ولكن رؤوس هؤلاء كانت ذات شعر داكن أملس ، أما رأس هذا الرجل فشاحب اللون كأنه رأس طفل صغير ، وكان ذا شعر قصير لدرجة إنها رأت من تحته الجلد الممتقع الذى يبعث على الاشمئزاز · وكانت شفتاه تتحركان ·

فتقدمت منه مارى وانحنت نحوه قائلة : « ماذا تقول ؟ »

وغمغم يقول بالالمانية : « سيدتى · سيدتى · سيدتى · » بينما راحت يداه تتشبثان بأوراق الشجرة الميتة التى بللها المطر · ولم يساورها أى شك فى جنسيته · وأغضبها هذا بدرجة فائقة فخطت نحو فرن الحريق رغم أن النار لم تكن هدأت أو حان الوقت لاستعمال القضيب الحديدى لتحريكها · وبدا أن النار تلتهم كتب «وين» بطريقة مرضية· ونظرت الى شجرة البلوط التى يجلس الرجل عند قاعدتها ، فرأت عددا من الفروع العليا الخفيفة وفرعين أو ثلاثة من الفروع السفلى المتسوسةقد انكسرت وانتثرت أوراقها فوق أرض الممر المؤدى الى المكان الذى تقف فيه · ورأت قبعة ذات خيوط مثبتة اليها قد استقرت فوق نتوء تبقى من أحد الفروع السفلى ، بدت لها على ضوء ألسنة اللهب المتراقصة أشبه شىء بعش طائر من الطيور · ثبت لها أن هذا الشخص قد اخترق الشجرة أثناء سقوطه · فمن قبل أخبرها «وين» أن من الممكن أن يسقط الناس من الطائرات · كذلك أخبرها بأن الاشجار أدوات نافعة لكسر حدة سقوط الطيارين ، ولكن فى هذه الحالة الراهنة لا بد أن الطيار قد أصيب بكسور فى أنحاء جسمه والا لتحرك من هذا الوضع الشاذ الذى هو فيه· وبدا لها انه عاجز تماما فيماعدا وجهه المخيف الذى لايكف عن الحركة · ومن ناحية أخرى ، استطاعت أن تلمح غمد مسدسه معلقا فى حزامه .. وكانت مارى تنفر من المسدسات · فمنذ بضعة شهور مضت، وبعد أن فرغت هى ومس فولر من قراءة بعض البلاغات الحربية عن المعارك فى بلجيكا ، كانت لهما جولة مع واحد من هذه المسدسات ـ كان مسدسا ضخما له رصاصات مفلطحة عند مقدمتها ، قال « وين » ان استعمالها ضد أعداء متحضرين أمر تحرمه قوانين الحرب · وردت مس فولر قائلة : « انه مناسب لنا بما فيه الكفاية· اشرح لمارى الطريقة التى يعمل بها » · فاصطحب « وين » مارى التى راحت ترمش بعينيها من شدة الذعر ، الى مكان قريب ، وهو يضحك من مجرد التفكير فى امكان وجود حاجة اليه ، وشرح لها الطريقة التى تطلق بها هذه الآلة القاتلة · ان هذا المسدس الآن قابع فى درج منضدة الزينة العلوى الى اليسار ـ تذكارا غاليا لا يدخل فى قائمة الاشياء التى تحرق· ان «وين» لا بد سيسر عندما يرى أنها لا تخاف شيئا ·

وانفلتت الى البيت لاحضاره · ولما عادت تحت وابل المطر ، كانت العينان فى ذلك الرأس مملوءتين بالامل· وحتى

ثم حاول أن يبتسم · ولكن أركانه تهدلت لمرأى المسدس مثلما تهدلت أركان فم « ادنا جيريت » · وانحدرت دمعة من احدى العينين ، وراح الراس يتدحرج يمنة ويسرة من كتف الى كتف كانما يريد أن يشير الى شيء ·

وصاح في كلمات متقطعة: «مكسور · كل مكسور » ·

فقالت ماري في اشمئزاز : « ماذا تقول؟ » وهي حريصة على ان تظل بعيدة عنه رغم أن الراس وحده هو الذى يتحرك ·

فردد قوله : مكسور · ساعديني · الطبيب · الطبيب ·

فقالت ، وهي تستجمع محصولها الصغير من الكلمات الألمانية لتقف الى جانب المسدس الكبير : « لا· لقد رأيت بعيني راسي كيف مات الآخرون » ·

وهدأ الراس وبقى ساكنا · وكانت ماري قد حرصت على ابقاء أصبعها بعيدا عن الزناد خوفا من الحوادث · وبعد انتظار استغرق فترة وجيزة ، عادت الى فرن الحريق ، حيث كان اللهب قد بدأ يخمد ، وحركت كتب « وين » المتفحمة بالقضيب الحديدى · ومرة أخرى راح الراس يزمجر في طلب الطبيب ·

وقالت ماري في تبرم وهي تضرب الارض بقدميها : « كفى · كفاك ضجة أيها الكافر السفاح » ·

تدفقت الكلمات من فمها في نعومة وفي غير تصنع · كانت كلمات «وين» ذاتها ، وكان «وين» سيدا مهذبا لايمكن لأى سبب في الوجود أن يمزق جسد «ادنا» الصغيرة الى تلك الكتلة المختلطة من الشرائح والأشلاء الدامية · أما هذا الشيء المكوم عند قاعدة شجرة البلوط فقد فعل · لم يكن الموضوع الآن مجرد قراءة اخبار الفظائع من الصحف على مسمع فولر · لقد رأت ماري المنظر بعينيها على منضدة المطبخ في حانة «رويال أوك» · يجب ألا تجهد عقلها بالتفكير في مثل هذه الاشياء · والآن مات « وين » ، وكل الاشياء التى تمت اليه بصلة تتكوم وتنتشر في الفرن ، بفعل القضيب الحديدى الذى راحت يدها تقلب به النار في انشغال ، ثم تتحول الى تراب أسود وذرات من رماد · ان هذا الشيء القابع أسفل شجرة البلوط يجب أن يموت كذلك · لقد رأت ماري الموت أكثر من مرة ، فهي تنحدر من أسرة لأفرادها ، كما أخبرت مس فولر ، « مهارة فائقة في الموت تحت أسوأ الظروف » · لسوف تبقى حيث هي حتى تقتنع تمام الاقتناع بأن ذلك الشيء قد مات ـ تماما كما مات ابوها في أواخر القرن التاسع عشر ، وعمتها ماري في سنة ١٨٨٩ ، وكما ماتت أمها في سنة ١٨٩١ وابن عمها «ديك» سنة ١٨٩٥ ، وكما ماتت مديرة منزل الليدى «ماكوزلاند» سنة ١٨٩٩ ، وكما ماتت أخت الليدى ذاتها سنة ١٩٠١ ، ولقد دفن « وين » من خمسة أيام مضت ، ولا تزال « ادنا جيريت » تنتظر مكانا مناسبا من الارض حيث يوارى جسدها التراب · وبينما هي غارقة في التفكير ـ وقد عضت على شفتها السفلى بأحد أنيابها الواهنة ، وزوت ما بين حاجبيها وزادت طاقتا أنفها اتساعا ـ راحت تخز النار بالقضيب الحديدى وخزات قوية رجت شبكة الاسياخ الحديدية في قاع الفرن ، وحكت ما لصق بجدرانه من أعلى · ونظرت في ساعة معصمها · كانت الساعة تقترب من الرابعة والنصف ،

والمطر يهطل فى غزارة والحاح · انهم يتناولون الشـــاى فى الخامسة ، فاذا لم يمت هــذا الشىء قبل ذلك الوقت ، فانها سوف تبتل بماء المطر وتضطر الى تغيير ثيابها · وفى الوقت ذاته ، كان ما شغل بالها أن أشياء « وين » كانت تحترق بطريقة طيبة رغـــم المطر الذى ينز من حولهـا ، ورغم أنه من آن لآخر كان غلاف لكتاب مشـــهور يرتفع من وسط الكتلة المحترقة · وبعث فيهـــا التمرين على تحريك النــــار دفءا بدا كانما وصل منها الى النخاع · وبدأت تترنم باغنية وهى التى لم تكن لها قدرة على الغناء فى يوم من الايام · انهــا لم تؤمن اطلاقا بكل هذه الافكار ـ رغم أن مس فولر ذاتها كانت تميل قليلا الى هذا الســـبيل ـ عن وظيفة المرأة فى الحياة، ولكنها الآن رأت أن هناك الكثير مما يقـــال لصالح النساء · هذا ، على سبيل المثال ، كان عملها ـ وهو عمـــل ما كان أى رجل ليقوم به ، وعلى الأخص الدكتور هينيس من دون الناس جميعا· فالرجـل فى مثل هذه الازمة ، سيكون ما أطلق عليه «وين» اسم « رياضى » ، وسيترك كل شىء لكى يأتى بالنجدة ، وســوف ياخذه بكل تأكيد الى داخل البيت · ولما كانت وظيفـــة المرأة فى الحياة هى أن تقيم بيتا سـعيدا لزوج وأطفاله منها ، فانه اذا لم يوجد هؤلاء ـ كان الامر أتفـــه من أن يدع المرء عقله يجهد بالتفكير فيه ـ ولكن ـ

وصاحت مرة اخرى من خلف الظلال التى يرسمهـــا ضوء اللهب : « كفـاك ضجة · قلت لك ، لا · لقد رأيت بعينى راسى كيف مات الآخرون » ·

ولكن هناك حقيقة واقعة · ان المرأة التى غابت من حياتهـا هذه الاشياء ، يمكن مع ذلك أن تكون نافعة ـ بل أكثر نفعا من اى رجل فى بعض أحوال معينة· وراحت تضرب ذرات الرماد المســتقرة كما يفعل عمال تعبيد الطرق ، لما تضم هذه الحقيقة من اثارة غامضة · كانت حبـــات المطر تطفىء جانبـــا من النار المتأججة ، ولكنها استطاعت أن تشعر ـ فيما كانت تستطيع أن ترى فى الظلام ـ بأنها قد قامت بعملها خير قيام · وكان فى قاع الفرن وهج أحمر باهت ، لايكفى لجعل الغطاء الخشبى يتفحم ان هى غطت به جانبا من الفرن اتقاء المطر المتساقط· وبعد أن انتهت من هـــذا استندت الى قضيب تحريك النـــار وراحت تنتظر ، بينما سيطرت على كيانها ، نشوة عارمة من السرور المتزايد · وكفت عن التفكير وسلمت نفسها لما سيطر عليهـــا من مشاعر · وقطع عليها سرورها الطويل صوت وقفت فى حياتها من قبل مرات عديدة تنتظر فى ألم وتوجع · ومالت الى الامام ، وراحت تصـــيخ السمع وهى تبتسم · لا يمـــكن أن تكون مخطئة · واغلقت عينيها منتشية لسماعه · ثـم انقطع الصوت دفعة واحدة ·

وغمغمت فى صـــوت مرتفع قليلا : « هيـــا استمر · ليست هـــذه هى النهاية » ·

ثم جاءت النهـــاية واضحة تمـــام الوضوح فى لحظة سكون انقطع فيهـــا سقوط المطر · وجذبت مارى أنفاسهـا المبهورة من بين أسنانها ، وارتعدت من قمة الرأس الى أخمص القدمين · وقالت راضية : « هــذا شىء جميل » · ثـــم سارت الى البيت ، حيث حطمت جميـع قواعد الروتين بأن أخذت حماما ساخنا فخما قبل تنـــاول الشاى ، ونزلت الى الطابق الارضى وهى تبدو ، كمـــا قالت مس فولر حين رأتهـا تتكىء مسترخية فوق الاريكة المقـــابلة ، « وسيمة غاية الوسامة » ·

قوس قزح

بقلم

عبد المنعم شلبي

استيقظ السيد منصور السمان من نومه صباح يوم الجمعة ، فسأل زوجته دون ان ينظر اليها :

— كيف حال الولد اليوم ؟

اجابت وهى تسوى الفراش

— هو احسن حالا منه فى الايام السابقة ، قبل ان ينام سقيته كوبا من عصير الليمون المركز ، والحمد لله هبطت حرارته الى المستوى العادى .

فاتجه من فوره الى غـرفة ولده المريض ، اتكأ على حافة الفراش ومسح برفـق على خد الطفل ، فتح عينيه المنهوكتين وحملق فى وجه أبيه فحمله الى صدره وراح يهدهده .. سـوف تشفى يابنى ، وسـوف تعيش لابيك مدى الحياة ، سآتيك بثياب جديدة ، وحذاء جديد ، وعند ما تكبر ستذهب الى المدرسة ، وحينئذ اشترى لك حقيبة من الجلد الملون ، تضـع فيها الكتب ، وتحملها فى يدك ثم تسير بين التلاميذ مرفوع الرأس،كما كان يفعل ابوك وهو صغير ، لكنى لا اريدك ان تعمل صرافا فى بنك مثل ابيك ؟ لانك فى هذه الحال تملأ جيوب الناس بالجنيهات ثم تخرج صفر اليدين ! وحينئذ تصير عصبيا ودائما تخاف من وقوع الخطأ ! يالها من مهنة لعينة ! ، عندما يخطىء صراف البنك فى رقم حسـابى تصبح حياته تعسة للغاية ! تصـور يابنى ، النقطة الصغير التى يسمونهـا صـفرا تهدد الانسان بالسجن ! افهم هذا جيدا ! هيه ! ولكنك بالطبع لن تشـغل هذه المهنة ! اريد ان اراك طبيبا او مهندسا ! هيه .. هذا ما اريده لك يابنى ! .

تململ الطفل على صـدر ابيه متضايقا ، فأرقده فى الفراش ثم خرج الى الصالة ، سأل زوجته :

— هل اعددت الافطار ؟

اجابت من المطبخ

— الشاى على النار ، وفى انتظار اللبن ..

فذهب الى الشرفة آملا فى استنشاق هواء الصباح المنعش ، ريثما يأتى اللبن ، القى نظرة على الشارع . فوجد الحياة كما هى فى كل يوم ، الناس والعربات والخيول ، وحتى الكلاب الضـالـة . كلها تسعى فى اتجاهات مختلفة والى غايات متباينة لايدركها الا اصحابها . والشمس بدورها كانت قد ارتفعت فوق البيوت ودخلت من النوافذ والشرفـات

ملقية بدفئها فى ســخاء الى الاحياء والجمادات على السواء . بالقــرب من رصيف الشارع لمح خبازا يركب عجلة ، على راســه طولتان مايئتان بالخبز ، وفوق يده اليسرى طولة ثالثة بينما امسك مقود العجلة بيده اليمنى ، وقدماه لاتكفان من الحركة . فكر السيد منصور فى ان هذا الخباز ســوف يقع لا محالة ، وسوف يتبعثر الخبز فى الشارع ! فمد عنقه الى امام وفى نيته ان يصيح بأعلى صوته : حاذر ايها الخباز ، ولكنه ادرك ان صوته لن يصل ، لأن الخباز كان قد غر بعيدا ، فتمتم لنفسه : هذا الشيطان الا يخاف ! ثم فرك يديه واجاب نفسه : فليتصرف كما يحلو له..هذه مهنته وهو حر فيها ، هى على اية حال خير من مهنة الصراف .. فيها حرية وانطلاق ونشاط رائع . لكن مدير البنك لا يتركنى أتصرف كما يحلو لى ! ترى ما الذى يحــلو لى ؟ ماذا أريد بالضــبط ؟ لو كان الامر بيدى لاعدت صنع حياتى من جديد . بودى لو اصبح شابا فى العشرين ؟ حينئذ كنت اشغل وظيفة أخرى ، واتزوج فتــاة متواضعة تقدر قيمة الرجل وتقدس الحياة الزوجية . زوجتى لا تفهمنى ! ما اشبهها بمدير البنك ! تخنقنى بتصرفاتها الحمقاء ولا تسمع لى شــكوى . بجانب ذلك تعتقد انهــا بليت بى ! كأنى لم أكن فتى احلامهــا ! اين ذهبت وداعتها والبراءة التى كانت تشع من عينيهــا ؟ بأية عين كنت اراها ؟ يالها من خدعة كبرى ! من الأوفق الا يرتبط الانســان بأية امرأة ، فالخداع كامن وراء نظراتهن البريئة ، لكنا لا نراه الا بعــد فوات الاوان ! كالغلطة الحسابية لا يدركها الصراف الا حــين يشيرون اليه باصبع الاتهام !. فى الشرفة المقابلة على مســافة لا تتجاوز عرض الشــارع . لمح طفلا يلعب.فابتسم متفائلا وتابعه بأمل عريض . هــذه هى البراءة الحقيقية . ما أجمل الحياة عندما يكون الانسان طفلا ! الاشياء البســيطة التى لا تثير انتبــاهنا تعتبر فى نظرهم ذات قيمة كبرى ، وتملأ قلوبهم بالســعادة ها هو يقفز على قدم واحــدة ، يالله من رقص جميل ! اجمــل من هز البطون الفاجرة . توقف عن القفز ليخط بشيء فى يده على البلاط ، ماذا ترسم ياولد ؟ يبدو انك فنان ، تأملاتك تثير الدهشة . لماذا تمحو رسمك بعد هذا المجهود ؟ لعل المنظر لم يعجبك ؟ حــاول مرة أخرى ، لا تيأس . انا أجرى عملية الحســاب خمس مرات ! وفى كل مرة اكتشف خطأ جديدا ، حتى اصــبحت اومن بأن كل ما أراه يحمل فى طياته نوعا من الخطأ ! حتى وجودى نفسه يبدو فى نظرى خطأ من اساسه !.

عاد الطفل الى لعبة القفز من جديد ، فقال السيد منصور فى نفسه : متى تشفى يابنى ومتى اراك تلعب هكذا ؟ . وخيل اليه انه يســمع انفاس ولده تتردد فى صراعها مع الحمى ، فاتجه من فوره الى غرفة المريض . كان ســابحا فى نوم هادىء بأنفاس منتظمة . وقف يتطلع اليه بعينين تومضان بالأمل والرجاء . فنادت زوجته من المطبخ .

— الافطار جاهــز .. ان كنت على موعد ! .

توجه الى المائدة وهو يســائل نفسه : ماذا تقصد بقولها «ان كنت على موعد» هل تريدين اثارتى ؟ ياحصرم النســاء ؟ نظر اليها وهى مقبلة.كانت تحمل صينية الشاى بما عليها من اكواب اللبن المغلى وشرائح الخبز . فلما اقتربت من المائدة امسكت بالصينية من حافتها بيد واحدة ،

ثم راحت تجذب الكرسي بيدها الأخرى معتمدة بقوة اصابعهـــا ، فخشي السيد منصور ان تخونها اصابعهـــا النحيلة ، فصرخ فيها :

ــ حاسبي !

اهتزت يدها بالفعـل فاندلق اللبن على شرائح الخبز ، وســال من حافة الصينية مشـــكلا خيوطا بيضاء كرذاذ المطر . القت بها على المائدة صارخة .

ــ ياغلبي !

ثم راحت تجفف اللبن المتساقط بطرف المريلة ..

ارأيت ؟ .. هذه نتيجة استهتارك ايتها الخرقاء !

رفعت اليه عينين مغيظتين توبخه ..

ــ استهتاري انا ؟ يازينة الرجال!.. لماذا تتدخل فى شئونى بصراخك المزعج!؟

ــ تحملينني ــ اذن مســـئولية اخطائك ؟ هيــه .. عودى الى المطبخ يا ناصحة !

ثم غادرها الى الشرفة مرة أخرى وفى صدره مرارة لا تطاق ! . انعشه الهواء الرطب فاستكان الى الهــدوء قال فى نفسه .. ولكن ربما كانت زوجتى على حق ! لماذا اتدخل فى شئونها بصراخى المزعج ؟ ماذا يحدث لو تركتها تتصرف كما تشاء ؟ ها انا ذا افسدت الافطار ! والخسارة على وحدى ! . استدار الى نافذة الشرفة ثم نظـر الى الداخـــل هاتفا :

ــ انا آسف ! .. لن اتدخــل فى شئونك مرة أخرى .

وعاد ثانية الى الهواء المنعش قبل ان يسمع تعليقها. كان طفل الشرفة المقابلة ما يزال يلعب لكن بشيء جديد . أمسك دمية بلاستيكية من قدميها ، رفعها عالية فظهرت هيئتها كاملة .. بنت صــغيرة بيضاء كاللبن ، عارية كما خلقها المثال : انت تحب البنات ايها الشــقى ؟ لكنك لا تدرى بعد ما الجنس وما المــرأة ؟ . انزلها ثانية الى مستوى نظره ثم خلع راسها عن كتفيها ؟ قتلتها ؟ . . يبدو أنك فهمت ما فى عينيهـا من مكر ! انت اذا ذكى من صغرك ! . وضـع الراس بين الكتفين ثانية وقلبهـا بين يديه ، عادت الحياة تشع من عينيها مرة اخرى . هل تجرب عمليات السحر ؟ تقذفها الى الارض سلمت يداك يا شـــهم . ليتنى املك شجاعتك ! اذن لقتلت المدير وتخلصت من زوجتى ! لكن ولدى يريدها . وهذا سر المأساة ! ماذا تفعل ايها الشقى ؟ لعبتك الأخرى مسلية للغاية ، لماذا تركتها ؟ . هذه لعبة خطرة ياولد ! . ركب الطفل حافة الشرفة واخذ يهز رجليه منتشيا ، كما لو كان فارسا يركب حصانا .. لم يتمالك السيد منصور نفســـه فصرخ محذرا :

التفت الولد مذعـــورا .. وحينئذ شاهد السيد منصور السمان جســدا صغيرا يرفرف بيديه ورجليه فى الهواء هابطا الى الارض كما لو كان حمامة اصيبت برصاص صياد !. اصطدم الجسد بحافة احـدى النوافذ المفتوحة ، كانه كان يريد ان يدخلها ليحتمى بها من ضربات الموت المتلاحقة ، ولكن الحافة الصـلبة قذفته بعيدا كبصقة فى وجه الحيــاة ، فظل يهوى حتى ارتطـم بالارض ، واسترخى فى رقدته دون أن يحتج بأية صرخة !. لعله لم يرد ان يعكر الصفاء المفتعل الذى يسود حياة الشــــارع . ولكن الأمور لم تجر على حسب ارادته! تعكر الصفو تماما ، دوى صراخ حاد من النوافذ والابواب ، وتجمع الناس حول الجسد الساكن ، وراحوا يلفظون بكلام كثير لاطائل من ورائه . بعضـــهم انحى

باللائمة على القدر الذى سلب الطفل حياته بلا مبرر ظاهر ، وبعض آخر صب اللعنات على الأم التى تركت صغيرها يلعب فى الشرفة .

وهز المستسلمون رؤوسهم قائلين : كل شيء بقضاء وقدر . وشق السيد منصور طريقه الى حيث يرقد الطفل ثم اخذ يلوح بيديه فى وجهه ويخاطبه معاتبا : لماذا تلعب بهذه الطريقة ؟ اما كان الافضل لك أن تمارس لعبك المعتادة ؟ . كنت تقفز على قدم واحدة ! وكنت ترسم لوحاتك الفنية على البلاط ! وجئت بالدمية فاجريت عليها تجاربك ! هذه كلها اعيبمسلية ! لماذا لم تكتفبها ؟ الم اصرخ فيك بأعلى صوتى : انزل يا ولد ؟ . لقد سمعتنى من غير شك ! ولكنك لم تفهم قصدى ! كنت اريد ان تنزل الى الشرفة لا الى الشارع ! » .

كان يتكلم بطريقة توحى بأنه قريبمن الجنون مما جعل اهل الحى يجذبونه بعيدا حتى لا يجن بالفعل . اما والدة الطفل فقد جعلت تضربنفسها بلا رحمة وتعوى بصوت مخنوق . ثم ارتمت على ولدها وراحت تضمه الى صدرها وتضغط عليه بحنان خشن كما لو كانت تعيده الى بطنها مرة اخرى ! او لعل حرارة قلبها المكلوم تعيد اليه الحياة . فحملها الناس بطفلها الى البيت مع مزيد من اللعنات على اهمالها . حدث كل هذا فى وقت قصير جدا بحيث لا يحسب فى عمر الزمن ، ولهذا لم يؤثر فى مجرى الحياة ادنى تأثير ، مما جعل الشمس فى برجها تنظر الى الارض بسخرية مرة . فبدأ الناس يتفرقون الى شئونهم المعتادة منغمسين فىرتابة الحياة ، كما راح اهل الميتيعدون لدفنه بنفس الطريقةالعادية التى يدفن بها الاموات كل يوم . غير أن السيد منصور السمان كان ما يزال منفعلا بشكل ملحوظ ، وكان انفعاله مزيجا من الخوف والالم والاحساس بالجريمة . فظل يردد لنفسه : لقد صرخت باعلى صوتى : انزل يا ولد ! وكنت اريده ان ينزل الى الشرفة ! لكنه نزل الى الشارع . لماذا ؟ لماذا كف عن لعبة القفز ؟ والتخطيط على البلاط ؟ واللهو بحياة الدمية الصغيرة ؟ ما الذى دفعه الى ركوب هذا الحصان الحجرى المشاكس ؟ .. ومع ذلك فقد كان يهز رجليه منتشيا ، ويضرب ظهر الحصان بيديه كى يسرع فى الجرى ! وكان مطمئنا وسعيدا لكننىصرخت فيه بأعلىصوتى : انزل يا ولد ! وهكذا اطلقت عليه الرصاصة القاتلة دون ان ادرى ! .

احيانا كان صوته يرتفع حتى يسمع نفسه فيصمت مفكرا : هلاريد ان افضح نفسي ؟ .. هل اعلن عن جريمتى أمام الملا ؟ لماذا أرفع صوتى هكذا كالمجانين ولكنى لست مجرما ولا مجنونا ، كل ما فى الأمر اننى خفت علىالولد منالسقوط فحاولت انقاذه . وان جاءت النتيجة عكسية !. تماما كما حدث مع زوجتى ، حذرتها من اندلاق اللبن فاندلق بالفعل ! لماذا ؟..تتحقق مخاوفى ؟ مع اننى متنبه لها تماما ؟ ولكن لماذا أدافع بهذه الحرارة امام اى قاض أترافع ؟ .. أليس من الأوفق ان الزم الصمت ؟ .. الا اتدخل فى اى شيء ؟ ان اترك الناس ينصرفون على هواهم ! دون اى تعكير ! .. ولكنهم مع ذلك يتهموننى بما لم افعل!.. المدير يتهمنى بالاختلاس لانه وجد « صفرا » ناقصا ، عبثا حاولت افهامه اننى لم ار الصفر اطلاقا ! فهو يرى أن المال يغرى كل الناس حتى الطيبين منهم .. ! هكذا ينبغى ان اصمت الى

النهاية ، لن ادافع عن نفسي امام المدير سوف اتركه يتم عمليات الجرد ليتأكد بنفسه ان اموال البنك لم تنقص مليما واحدا ! لكن ما يستحق الاهتمام هو هذا الخطأ الجديد ! لم أنس صفرا هذه المرة ولم اتهم باختلاس مال ، ولكنى قتلت طفلا بريئا بصرخة طائشة . كيف أدفع هذه التهمة ؟ زوجتى نفسها تستطيع ان تشهد ضدى ! تستطيع ان تقول : ان صرخته كالرصاص المنطلق من فوهة مسدس . صرخة رهيبة ، تخيف وتسقط اكواب اللبن من فوق الصينية ! فما بالك بطفل حى برىء سريع التأثر !. هذا ما تستطيع ان تقول ، وهى على حق فى هذا . لن تفيدنى نواياى الطيبة اذا ما ادعيتها !. مرة اخرى ارتفع صوته دون ان يدرى حتى سمع نفسه بوضوح ، فضرب جبهته مؤنبا كما لو كانت هى التى تتكلم ! . وفكر فى صمت : ولكن احدا لم يتهمنى بقتل الطفل ! لماذا اعذب نفسي بغير طائل!.ثم رفع رأسه وتنفس بعمق فبدا الشارع هادئا رتيبا كأن لم يحدث فيه شيء على الاطلاق . والمكان الذى سقط فيه الطفل كان خاليا من كل اثر ، سوى ان الشقة المقابلة التىكانت شرفتها مسرحا للهو والمرح اصبحت مغلقة بثوب حزين لا تراه العين ولكنه لا يخفى على القلب . وفجأة دوى صراخ حاد من هناك اعقبه خروج نعش صغير مزين بالورود . لقد انتهى اهل الميت من اعداده ، وحان وقت الدفن . جرى السيد منصور السمان واندس بين المشيعين مرهفا اذنيه لكل حركة . قال فى نفسه : لقد صرخت بكل شيء امامهم حين سقط الولد ، لوحت فى وجهه بيدى وقلت : اننى صرخت فيه بأعلى صوتى انزل يا ولد ! فنزل الى الشارع ! . ربما كان هذا الاعتراف وحده دليلا كافيا لادانتى ! .. ولكننى غير مدين بالمرة .. اقسم على هذا .. اننى احب الطفل الذى مات كما احب ولدى الذى اتمنى له الشفاء .. ولكنه كان يلعب لعبة خطرة ولم يفهم نصيحتى .

لاحظ أن صوته بدأ يرتفع . فأطبق فمه ضاغطا أسنانه فى بعضها . وراح يقلب عينيه فى المشيعين محاولا قراءة وجوههم . فلم ير غير الوجوم والصمت الحزين ! ثم دارت همسات خافتة كانت كلها خارجة عن الموضوع ! لم يتحدث اى واحد عن الموت او عن اسبابه ، بل ان بعضهم كان يتكلم عن الزواج والاعداد للعرس ! حتى حان موعد افتراقهم . فرجع السيد منصور السمان الى بيته وعلى شفتيه ابتسامة غريبة ، لا يدرى هو نفسه كيف يفسرها لكنه اعتزم ان يلزم الهدوء ، والا يصرخ ابدا . فلما دخل بيته رفع ابنه الى صدره وجعل يقبله وعندما رأى زوجته ابتسم لها .

في الحكايات الشعبية

بقلم : فوزى العنتيل

– ١ –

القصص الشعبى

يرى بعض الدارسين بأنه من الممكن أن يصنف القصص المأثور – بشكل تقريبى الى : أساطير ، وقصص خوارق ، أو قصص أحداث غير عادية ، وتتضمن ما يسمى بحكاية البطل ، والملاحم النثرية ، أما النوع الثالث فهو الحكايات الشعبية ٠

ومن ناحية أخرى فان القصص المأثور ينتظم بصورة طبيعية فى صنفين : قصص رويت على أنها حقائق وهى الأساطير ، وقصص الخوارق ، وقصص قيلت للتسرية وهى الحكايات الشعبية بمختلف أنواعها ٠

واذا كنا نستخدم – فى طريقة الحديث العادية – تعبير «الأساطير» ، وقصص الخوارق كما لو كانا متبادلين ، فان دارسى الحكايات الشعبية والمأثورات بعامة يفرقون بينهما ، فيقولون بأن الأسطورة قصة مخترعة ، ربما بغرض تفسير الأحداث الطبيعية الخارقة كالزلازل ، أو تفسير ما هو أقل خطرا من ذلك كطلوع الشمس وغروبها ، أو يكون غرضها تفسير بعض الأحداث الانسانية مثل الأحلام ، والتى كانت شيئا محيرا بالنسبة للشعوب البدائية ٠

أما حكاية الخوارق أو حكاية الأحداث غير العادية فانها من جهة أخرى ليست قصة مخترعة ، انها شكل تاريخى اختلط وأصبح غامضا نتيجة للاضافات المتأخرة ٠

فقد تجتمع فيها كل ألوان الأشياء الغريبة التى أضيفت اليها ٠ وقد يلتف حولها كثير من « المختلقات » والأساطير ، ولكننا نجد فيها – بصفة أساسية – نواة الحقيقة مهما اعتراها من تشويه ٠

ومن الممكن ألا نتبين فى الحكاية الشعبية أنها قصة خوارق ، حتى يكشف البحث التاريخى والآثارى عن الحقيقة التاريخية مدخرة فيها ٠

ان مصطلح « قصة الخوارق » تعنى فى الاصل شيئا يتلى فى الصلوات الدينية أو فى وقت الطعام ، وكان هذا الشىء فى العادة هو حياة القديسين والشهداء ، ومن

ثم ، فقد أصبحت تستخدم فى حكاية يفترض أنها تعتمد على الحقيقة مع خليط من المواد المأثورة قيلت حول شخص أو مكان أو حادثة ٠

فهذا الشكل من الحكايات يقصد لأن يكون رواية لبعض الأحداث غير العادية التى يعتقد بأنها قد وقعت فعلا كطوفان أو هجرة ، أو غزو ، أو بناء جسر ، أو مدينة ٠

ومع أنها فى الغالب تدور حول أشخاص تاريخيين أو حول حوادث تاريخية ، فان قصة الخوارق نفسها قد تكون مغلوطة ، أو لا أساس لها ، أو تكون قد رويت عن أشخاص آخرين فى أماكن أو أقطار بعيدة ٠

اما الأسطورة ، فهى قصة تقدم كأنها قد وقعت بالفعل فى العصور الماضية ، قصة تفسر مأثورات الناس حول العالم وما وراء الطبيعة ، كما تفسر آلهتهم وأبطالهم والسمات الثقافية ، ومعتقداتهم الدينية وغيرها ٠ فهى اذن قصة تعليلية غرضها تفسير وجود العالم ، والحياة والموت ، والانسان ، والوحوش ، والطقوس المقدسة ، والعادات ، وما الى ذلك من الظواهر الغامضة ٠

على أن الحد الفاصل بين الأسطورة ، وحكاية الخوارق مبهم فى الغالب ، وان كان من الممكن القول بأن الممثلين الرئيسيين فى الأسطورة هم الآلهة ، وأن غرضها هو التفسير ، بينما قصة الخوارق قد رويت على أنها حقيقة ، فى الوقت الذى نجد فيه أن صدق الأسطورة يرتكز على ايمان سامعيها بالآلهة الذين هم أشخاصها ٠

ان الصعوبة فى تحديد الأسطورة قد جاءت من أنها قد سبقت مناقشتها منذ أمد بعيد ، وأنها قد استخدمت فى كثير من المعانى المختلفة ٠

وقد حاول الدارسون المحدثون تحديدها فى أنها حكاية موضوعة فى عالم يفترض أنه سابق لوقتنا الحاضر ، وأنها تتحدث عن الكائنات المقدسة ، والأبطال ، وانصاف الآلهة ، كما تقص نشأة جميع الأشياء من خلال الأفعال فى العادة ٠

وترتبط الأساطير ارتباطا وثيقا بالمعتقدات الدينية وممارسات الناس ٠ فلا بد اذن من وجود الأساس الدينى من وراء الأسطورة بالنسبة للشخصية الرئيسية فيها ، أو يكون الممثلون فيها من الآلهة ٠

فحيثما لا يقع مثل هذا التبادل فى العلاقة ، وكذلك حيثما لا يظهر الآلهة أو انصاف الآلهة ، فمن الأنسب أن تصنف هذه القصص كحكايات شعبية ٠

* * *

اذا تعمقنا الاساطير وجدنا أنها تمثل الاجوبة التى يقدمها التخيل الانسانى للمشكلات التى تتعلق بكيفية حدوث الاشياء مثل : كيف خلقت الأرض والسماء ؟ أو كيف جاء الشر الى العالم ؟ ٠

ولقد واجهت معظم المشكلات المتصلة بالتجربة الانسانية الأسئلة ذاتها فى كل مكان ، ومن ثم فانه لا يثير الدهشة لدينا أن تكون الأجوبة فى أجزاء مختلفة من العالم شديدة التشابه ٠

فالأسطورة اذن تمثل الاجابة الأولى للعقل الانساني عن هذا الاحساس بالتعجب والذى هو جذور الفلسفة كما يقول أرسطو ٠

انها تحاول أن تجيب بالتخيل عن الأسئلة التى ينشد العلم — فيما بعد — أن يوجد حلا لها عن طريق التعليل المقنع ٠

ويقول بعض الدارسين : « اذا كانت الأسطورة تمثل «شكلا» مبكرا وبسيطا للعلم ، فان حكاية الجنيات تمثل « شكلا » مشابها بالنسبة للأدب الخيالى ، أما قصة الخوارق فانها « تاريخ » من نوع بدائى » ، وهى تخالف قصة الجنيات فى أنها تتعلق بشخص فعلى أو مكان أو ظاهرة اجتماعية أو دينية ٠

وبسبب أن قصة « الخوارق » لها جذورها فى بعض الشخصيات الواقعية أو الأماكن أو الطقوس ، التى نجد أنها قد استهوت الخيال الشعبى ، فانها بالنسبة لاستهوائها الشديد الخيال قد تجتذب الى تأثيرها الخاص اضافات مختلفة من «مخزون» الأسطورة ، أو حكاية الجنيات ٠

فقد تتحدث « قصص الخوارق » مثلا ، عن قتال مع المخلوقات الغريبة التى ما تزال العامة تعتقد فيها كالجنيات ، والأشباح ، وما الى ذلك ، وقد يمدنا هذا النوع من القصص بما توارثته الأجيال كذكريات — غالبا ما تكون خيالية ، بل وحتى غير معقولة — عن بعض الشخصيات التاريخية ٠

هذا ، وينبغى مراعاة أن هذه القصص بسيطة دائما فى بنائها ، ولا تشتمل فى العادة على أكثر من جزئية قصصية واحدة ٠

ويجب أن نضع نصب أعيننا كذلك ما قاله الدارسون من أنه يكاد يكون متفقا عليه بصفة عامة أنه يجب تناول قصة الخوارق بحسب ما تقتضيه ، وليس كلغز يوارى بعض المعانى الخفية ، وذلك لأن ما نسميه قصة من قصص الخوارق الآن ، كان يعنى بالنسبة لهؤلاء الذين رووا هذه القصة جزءا من أحداث التاريخ القديم ٠

والصعوبة التى نلقاها ، هى أن نعرف — فى الحالة التى نكون بصددها — متى ينتهى التاريخ ويبدأ الاختلاق ٠

حكاية البطل ، والملحمة النثرية :

أشرنا فى بداية هذا الحديث الى أن حكاية البطل ، والملحمة النثرية يمكن تصنيفهما فى اطار « قصص الخوارق » ، ويمكننا القول الآن — بالرغم من أن كل هذه التصنيفات تقريبية — أن حكاية البطل عبارة عن مجموعة من قصص الخوارق ، أو حكايات الأحداث غير العادية مرتبطة بفعال بطل من أبطال التراث الشعبى ، الذى يسلم جدلا بوجوده ، وانها تتخذ من فعاله أو مآثره مادة لها ، ويكون هذا البطل هو غايتها الأخيرة ٠

فاذا تتابعت تفصيلات هـــذه الاحـداث التى تدور حول حيـاة الشخصيات ومغامراتها ، ففى هذه الحالة تصنف كملحمة نثرية « سيرة شعبية » ٠

على أنه ينبغى ملاحظة أن حكاية البطل ، والملحمة النثرية ـ غالبا ـ غير متميزة بوضوح بعضها عن بعض ·

واصطلاح « **حكاية البطل** » يتميز بشموله عن حكايات العجائب الأخرى بسبب أن الحكاية من هذا النوع تدور فى عالم خيالى صريح ، أو عالم يسبق فى واقعه الخيالى ـ ان صح هذا التعبير ـ عالم حكايات الجنيات أو حكايات العجائب · وعلى الرغم من أن الأخيرة تتضمن بالطبع « أبطالا » فاننا نجد من الصعب أن نسميها حكاية « بطل » ، الا فى حالة واحدة هى أن تقص علينا سلسلة من المخاطرات حول نفس البطل ·

هذا ، ونجد أن الدارسين يفرقون بين الحكايات الشعبية بعامة وبين حكاية البطل ، والملحمة النثرية ، بأن الشخصيات فى الحكايات الشعبية مجهولة ، وأننا لانجد ـ فى الغالب ـ تحديدا للزمان والمكان فيها ، كذلك فانها لا تروى بجدية على عكس حكاية البطل والملحمة النثرية ـ وأيضا فان الموضوع فى الحكاية الشعبية محدد، وتنمو « العقدة » فيها ويتطور الحدث حتى يصل الى نتيجته الطبيعية · على حين أن « حكاية البطل » تقص ـ فحسب ـ مغامرة أو طائفة من المغامرات ، وتنتهى عندما لا يجد القصاص شيئا آخر يرويه ·

ـ ٢ ـ

طبيعة الحكايات الشعبية

فى كل مكان فى العالم ، وفى كل حين يجد رواة القصص جمهورا مولعا بالاصغاء لحكاياتهم ، سواء كانت الحكاية التى يقصها الراوى مجرد تقرير للأحداث الغريبة أو كانت أحدوثة تتصل بالماضى البعيد ، أو رواية متقنة أجاد ابتداعها ·

ففى سائر هذه الأحوال يجد هذا الراوى أن الرجال والنساء ـ على السواء ـ متعلقين بكلماته مشدودين اليها · لأنها تهبهم اشباع دوافع التشوق لحب الاستطلاع، أو المتعة فى الحض على الأفعال البطولية ، والتهذيب الدينى ، أو الرغبة فى الانعتاق من الرتابة التى تسود حياتهم ·

فى كل مكان فى هذا العالم الرحب : فى قرى أواسط أفريقيا ، فى القوارب التى تستخدم المجداف فى المحيط الهادى ، فى أدغال استراليا ، فى ظلال براكين هاواى ، تشد المستمعين بسحرها الغامض حكايات الماضى المثير ، وحكايات الحاضر أيضا ، وهى تحكى لهم عن الحيوانات ، والأبطال ، والآلهة ، أو عن رجال ونساء مثلهم ، أو تقوم باثراء أحاديث الحياة اليومية ·

كذلك نجد أيضا ـ سواء فى أكواخ الاسكيمو الثلجية تحت ضوء قناديل زيت الحوت ، أو فى أحراش البرازيل الاستوائية ، وفى اليابان والصين والهند أيضا نجد أن رجل الدين ، والمعلم ، والفلاح ، والصانع يشاركون فى حبهم للقصة الجيدة ، ويتفقون فى اعتزازهم بالراوى الذى يقصها فى براعة ·

والسؤال الذى يواجهنا الآن هو : ما الذى نعنيه بالحكاية الشعبية ؟

ولقد تحدثنا – فى ايجاز – عن بعض الخصائص التى تميز القصص المأثور بعامة ، ونود أن نشير – فى ايجاز أيضا – الى المحاولات التى بذلت للوصول الى نوع من التفريق الحاسم بين الأشكال القصصية المختلفة ·

ولقد استخدم اصطلاح « **حكاية شعبية** » استخداما طليقا لكى يغطى جميع أنواع القصص « الشفوى » المأثور ·

وفى الانجليزية يستخدم هذا « المصطلح » – غالبا – للاشارة الى حكاية الجنيات أو « الحواديت » ، كما يستخدم أيضا بمعنى أكثر شمولا ليتضمن كل الأشكال الروائية النثرية ، شفوية كانت أو مدونة · والتى وصلت الينا خلال العصور ·

وفى هذه الحالة فان الحقيقة الهامة هى الطبيعة التراثية للمادة ·

وفى بعض الاحيان نجد أن التعبير : حكاية العجائب أو حكاية الجنيات تستخدم للدلالة على قصص مليئة بغرائب لا تصدق كمقابل لقصة الخوارق التى يفترض – كما بينا – انها ترتكز على حقيقة ·

الأمر الثانى أن « حكاية الجنيات » تبدو أنها تتضمن وجود الجنيات فيها ، ولكن الغالبية العظمى من مثل هذه الحكايات ليس فيها ذكر للجنيات على الاطلاق ·

ومن أجل كل ذلك نجد أن علماء الفولكلور يرون أن الاصطلاح الفرنسى خير من الاصطلاح الانجليزى ، ومثله فى ذلك المصطلح الالمانى ، ففيهما « عمومية » يمكن أن تتضمنا أى نوع من القصص · ويؤثر العلماء بالتفضيل – فى النهاية – المصطلح الالمانى ·

ومهما يكن من أمر فاننا نجد أننا اذا أخذنا الحكاية الشعبية بمعنى محدد فان الدارسين يعنون بها : **الحكاية النثرية المأثورة التى انتقلت من جيل الى جيل سواء أكانت مدونة أو اعتمدت على الكلمة المنطوقة ·**

انها بالطبع – تمثل واحدا – فقط – من كثير من أنواع المادة القصصية وبهذا التحديد أو الاستخدام للاصطلاح فان أهم حقيقة كما ذكرنا هى طبيعة المادة « التراثية » ·

* * *

وعلى عكس الجهد الذى يبذله مؤلف القصة الحديثة أو القصة الادبية بحثا عن الاصالة والابتكار فى معالجة القصة وفى « العقدة » ، على العكس من ذلك نجد أن راوى الحكاية الشعبية فخور بقدرته فى أن يسلم ما سبق له أن تلقاه ·

انه يحب – فى العادة – أن يؤثر فى المستمعين اليه أو فى الذين يقرءون له بتأكيد هذه الحقيقة ، وهى أنه يقدم اليهم شيئا موثقا ، وأنه قد سمع حكايته من بعض الرواة العظام ، أو من بعض الرجال المتقدمين فى السن ، الذين ما يزالون يتذكرون هذه الحكاية من الأيام الماضية البعيدة ·

اننا نجد كذلك أن الفن الشفوى فى حكاية القصة أقدم بكثير من التاريخ ،

كما أن هذا الفن لا يمكن أن يحد بقارة من القارات ، أو بحضارة من الحضارات •

وقد يختلف القصص ـ من حيث الموضوع ـ من مكان الى مكان آخر ، وقد يعترى التغير حالات « القص » ، وأغراضه عندما ننتقل من قطر الى قطر ، أو من عصر الى عصر آخر ، ولكنا نجده فى كل مكان يقوم بخدمة نفس الاحتياجات الاجتماعية والسياسية ، وكذلك الاحتياجات الفردية •

ان الفضول نحو الماضى يجتذب المستمعين دائما ، ويثير شوقهم لحكايات الماضى البعيد الذى يمد الرجل البسيط بجميع معارفه عن تاريخ جماعته •

ولقد نمت مع القص حكاية الأحداث ، وانبسط الماضى البطولى العظيم ـ غالبا ـ بغرض ارضاء الزهو والفخر القبلى •

كما أن الدين قد لعب ـ فى كل مكان ـ دورا هاما فى تشجيع الفن الروائى ، لأن العقلية الدينية قد حاولت أن تتفهم البدايات ، وراحت ـ لعدة أجيال ـ تحكى قصص الكائنات المقدسة ، وحكايات الأيام الغابرة •

ـ ٣ ـ

دراسة الحكايات الشعبية

لقد مضى أكثر من قرن من الزمان منذ أن بدأ علماء الانثولوجيا والفولكلوريون يولون اهتمامهم بشكل جدى لجميع مظاهر التراث الانسانى •

وتاريخ البحث فى هذه الحقبة ، فيما يتعلق بهذه المجالات ، يظهر التغييرات المختلفة التى حدثت فى هذه المناهج ، كما يظهر أيضا البدع الكثيرة التى حدث من نشاط الدارسين •

وفى بادىء الأمر لا نجد سوى ملاحظات اعتباطية على التشابه الغريب فى العادات والعقائد والأغانى والحكايات الشعبية فى جميع أجزاء العالم •

ومن هذه البداية نجد أن التطور الطبيعى للدراسة قد أنشأ المسح المنظم الذى أدى الى حشد كثير من النظائر ، فكان أن تأثر الدارسون الأوائل تأثرا شديدا بهذه المتشابهات مما قلل ميلهم الى الاستقصاء بدقة تامة •

وعلى هذا فقد صارت لدينا المجموعات الضخمة « لفريزر » ، والتى أينعت فى النهاية فى « الغصن الذهبى » ، وغير ذلك من المجموعات المختلفة فى الحكايات الشعبية •

وقد بذلت المحاولات المتأنية لتفسير هذه المواد بقدر الامكان •

وقد أنجزت بعض هذه الأعمال بمهارة فائقة ، وما تزال حائزة لتقدير خير الدارسين •

غير أن الاتجاه المبالغ فيه نحو تشكيل مدارس الفكر كان موجودا ، وكذلك محاولة حل جميع المشكلات بتطبيق قاعدة مفردة •

ولقد كان طبيعيا أن تقود التفسيرات المختلفة لمفهوم الفولكلور ، وأيضا المناهج المتعددة الى وجود كثير من المدارس الفولكلورية ٠

ونستطيع ان نذكر – على سبيل المثال – طائفة من هذه المدارس التى تبحث فى الحكايات الشعبية من مثل : **المدرسة الأدبية أو الهندية مدرسة** « بنفى » وأتباعه الذين حاولوا اقرار الأصل الهندى للحكايات الشعبية الأوربية ،

والمدرسة الأسطورية مدرسة « ماكس مولر » التى رأت أن الحكايات الشعبية « موروثات » باقية للأساطير القديمة ، وبخاصة أساطير الطبيعة ، **والمدرسة الأنثروبولوجية** ، ومن أعلامها « أندرو لانج » ، والتى اهتمت بالأساس الثقافى للحكايات ، ورأت أنها بقايا حفرية لثقافات الماضى البعيد ، **ثم المدرسة التاريخية** الجغرافية ، مدرسة « كرون » وآرنى ، وطومسون ، والتى تتبع المنهج المعروف باسمها ، والذى يسمى أحيانا : المنهج الفنلندى والذى يهتم بجمع المادة وتصنيفها ، ويرى أن لكل نبذة من المأثورات تاريخها الخاص ، يقتضى دراستها مستقلة عن غيرها ٠

هنالك أيضا مدارس اخرى منها **المدارس الوظائفية الحديثة** التى تقوم بفحص الحكايات فى بيئتها ٠

وقد شهد منتصف القرن الماضى زيادة فى الاهتمام بالحكايات الشعبية ، وانكب جامعو التراث الشعبى – فى معظم بقاع الارض – على الاصغاء الى القصاصين وتسجيل حكاياتهم ٠

وأخذت الأساليب الفنية فى التسجيل والنشر التى يتبعها هؤلاء الجامعون تتطور وتنتقل من حسن الى أحسن ٠

وفى الوقت نفسه نجد أن بعض الدارسين قد قاموا بتصنيف الحكايات الشعبية، وبعمل « مسح » محلى بغرض تهيئة هذا القدر الكبير من المادة للدراسة العلمية ٠

كما قام بعضهم بوضع المناهج لدراسة المرويات الشفوية ، على حين انصرفت طائفة ثالثة الى استخدام هذه المناهج للكشف عن تاريخ كثير من القصص المشهور ٠

وقد أسهمت أنواع النشاط المختلفة هذه فى القاء الضوء فى كثير من الأمكنة التى كانت مجهولة من قبل ٠

كما أسهمت كذلك فى تصحيح النظريات المبكرة ، أو النظريات الفطرية غير الناضجة ٠

وكان من نتائج كل ذلك أنه قد بدأت تتضح لنا كثير من الحقائق ، فبدأنا نرى أن الحكاية الشعبية هى أكثر اشكال المرويات عالمية ، وبدأنا نفهم علاقتها بالقصص الأدبى الذى أنتجته الحضارة الراهنة ٠

وادركنا كذلك وظيفة الحكاية فى حياة أولئك الذين يقومون بروايتها ، وأولئك الذين يستمعون اليها ٠

وأيضا طبيعة هذا « الفن » فى الأقطار المختلفة ، والأزمنة المختلفة ٠

وفى الوقت نفسه نجد أن هذا الموضوع – بحسب طبيعته – موضوع عظيم الأهمية لجميع الدارسين – الجادين – للأدب ٠ وعلم الانسان ، وعلم النفس ، وللفن بصفة عامة ٠

كيف يبتسم الناس



بقلم: سعد حامد

غربت الشمس وانا امضى فى الطرقات على غير هدى ، واشعر بالوحدة .. اننى وحيد وغريب عن هؤلاء الناس لاتربطنى بأحد منهم رابطة ما ، وان اصواتهم واحاديثهم وضحكاتهم تاتى الى خافتة كانها تاتى من مكان بعيد .. وبدا لى ان هؤلاء الناس يتحايلون على النسيان ويبحثون عنه .. انهم يسهرون ويضحكون ويتحدثون محاولين نسيان ذلك الشبح الذى يتربص بهم ، والذى يقف هناك على الجانب الآخر من الطريق .. شبح الموت .. الذى ينقض عليهم فجأة ، ويطوى حياتهم فى لحظة كلمح البصر..

لقد حدث كل شيء فجأة ... وبلا مقدمات ...

كنت اعيش مع أخى الذى يصغرنى ببضعة اعوام بعد وفاة والدينا ، ولم يكن لنا اشقاء آخرين ، وكنا نسكن فى شقة صغيرة فى حى هادىء ، وكان اخى طالبا فى الجامعة وكنت احتل مكان أبيه وامه ، فقد تركه لى أبى صغيرا واوصانى به ، وكنت اعمل موظفا فى الحكومة ، وقد عاهدت نفسي على ان اكرس حياتى ومالى لبناء مستقبله . وكما ربانى ابى ولم يبخل على بشيء من ماله او جهده قررت ان ارد الجميل الى اخى الصغير ، وهو احوج ما يكون الى

الرعاية والحنان ، وكان يقدر لي هذا الجهد ويحبني أعمق الحب ...

اشحت بوجهي عن كل الكماليات من أجله .. ولم افكر في الزواج من اجله ايضا ..كنت ادرك جيدا ان وجود امراة بيننا سيفسد الامر كله .. ستريد — وهي زوجتي — ان تستأثر بي لنفسها ، ولن يرضيها قط ان يشاركها اي شخص آخر في حياتي حتى ولو كان اخي .. ستصر على ان تكون حياتي ومالي ملكا خالصا لها .. ولهذا ارجأت فكرة الزواج حتى يتم اخي تعليمه ويتوظف .. وقد كانت التضحية قاسية خاصة وان القلب كان قد خفق خفقة الحب .

كانت « ثريا » فتاة من جيراننا من اسرة طيبة ، مات ابوها وتعيش مع اخوتها وامها ، وهي سيدة طيبة كانت تربط بينها وبين امي اواصر صداقة ومودة .. كانت ثريا جميلة ومثالا للخلق الكريم ، وكنت اراها في نافذة او في شرفة بيتها احيانا ، وكنت التقي بها احيانا في الطريق فيركض قلبي في صدري ويحمر وجهها وتلتقي عينانا في نظرة معبرة ، وكانت تطرق ، وكنت أواصل سيري مضطربا خافق القلب..

كانت ثريا في حوالي الخامسة والعشرين من عمرها ، وكنت اكبرها بأعوام اذ كنت في الاربعين لكنني كنت أشعر من التقاء عيوننا لحظة اللقاء العابر في الطريق أن هناك شيئا من الحنين والود يربط بين قلبينا .. كانت ثريا هي الامل الحلو الذي يطمح اليه قلبي ، والمصباح المتألق الذي سيضيء حياتي ، وكنت اعتقد ان سعادتي في الدنيا ستتحقق يوم يفرغ اخي من دراسته ويتوظف ، ويوم أتزوج من ثريا ...

كانت التضحية قاسية .. ضحيت بنفسي وبمالي وبقلبي من اجل عاطفة الاخوة النبيلة ، واحتملت التضحية عن رضا وطيب خاطر لكنني لا انكر انني كنت اتعذب في أعماقي ، وكنت احس لذعة الحرمان من ثريا تحرق صدري .

وفجاة حدث ما حدث ...

ذات يوم بينما كان اخي عائدا من كليته تحرك الترام قبل أن يركب فسقط تحت العجلات ، وحملوه الى المستشفى في حالة سيئة ، وعندما ابلغوني النبأ ، وهرعت الى هناك وجدته قد فارق الحياة ...

كانت الصدمة قاتلة .. مميتة .. لم يمرض ولم يلازم الفراش بل كان يفيض بالشباب والامل والحياة .. اصبت بذهول ، واستحالت الدنيا امام عيني الى ظلمة دامسة ، ولا ادري حتى هذه اللحظة كيف شيعت جثمانه الى مقره الاخير ، فقد كنت أسير واتحرك وانظر الى الناس كأنني مستغرق في حلم رهيب ...

وعندما انفض الناس من حولي القيت بجسدي على الفراش غير مصدق ما حدث ، وانا لا اكاد اقوى على التنفس ، والمرئيات تبدو امامي كأنها أطياف يغمرها ضباب كثيف ، واضطربت افكاري ، وتلاحقت في ذهني صور سريعة غامضة لا معنى لها ولا رابط بينها .

ولا ادري كيف مرت بي الايام الاولى عقب الكارثة ، وقد لازمني بعض اقاربي ليخففوا عني المصاب ، ولكن احاديثهم وكلماتهم كانت تطرق سمعي باردة

لا معنى لها لاتصل الى قلبى ولا تخفف من آلامى . كان مصابى اكبر ان ينفع فيه عزاء ...

احسست بشيء فى صدرى قد مات.. جزء من نفسي او نفسي كلها .. لم يعد هناك انسان يستطيع ان يحمل الى العزاء او ان يمسح احزانى بأنامل الحنان ، وكم تمنيت لو كنت انا الذى مت وعاش هو .. لماذا لم يأخذنى الموت ويتركه وهو الشاب الباسم الذى ينتظره مستقبل مشرق عريض ، ولكن الموت لا منطق له ، فقد يخطف صبيا ضاحكا بريئا ، وينتزع الحياة من شاب قوى متفتح للحياة ، ويترك كهلا مريضا ورجلا محطما ضائعا لانفع منه لانسان ...

وشعرت بأننى اصبت بشلل فى نفسي وحواسي ، فكنت اجلس فى مكانى بلا حراك احدق فى لاشيء ، ولا افكر فى شيء ، ولا احس برغبة فى شيء ، ولم اكن حتى لأرغب فى الحديث مع اى انسان ، اصبحت اعيش فى صمت مطلق ، ولم اكن افتح فمى الا للضرورة القصوى ...

بدت لى الدنيا مشحونة باليأس والتعاسة ، وكنت اشعر برغبة تتملكنى فى ان ابكى وان اظل ابكى ، وبحزن عميق اسود يتراكم فى اعماقى ، ولكن الدموع لم تستجب لى .. جفت فى عينى .. لقد بكيت يوم وفاة اخى كما لم ابك من قبل ، ولكن فى الايام التالية رحت ابحث عن الدموع عبثا ... كنت اريد ان بكى اياما حتى تخف تلك الاحزان الدفينة فى صدرى ، ولكن الدموع تحجرت فى عينى ...

وتلفت حوالى جزعا .. منهارا .. لم يعد هناك شيء يستهوينى او يجذب انتباهى او يحرك قلبى .. لم يصبح لحياتى طعم ولا معنى ، وزهدت فى كل شيء .. حياتى وعملى .. حتى الطعام لم اعد اتناول منه الا ما يقيم الأود ، وانهارت صحتى ونحل جسدى ، وكنت امضي فى الطرقات مترنحا كالثمل . كنت اذهب الى عملى فأقضي فيه بضع ساعات ثم اتركه وأنا اشعر بالملل والسأم ، فألقى بجسدى على مقعد فى احد المقاهى واروح انظر امامى بعيون ذاهلة لا ترى شيئا ...

ثم اعود الى البيت محطما من التعب فأدور فى المسكن كالمأخوذ انظر الى فراش اخى والى ثيابه المعلقة فى الصوان باحثا بعينى عن ذلك الانسان الحبيب الذى كان ملء البصر والسمع .

ما معنى هذه الحياة .. ؟ ! لماذا جئنا ومن اين جئنا .. والى اين نذهب .. ؟!

ودرت فى دوامة مظلمة عميقة ، ومضيت ادور فيها بلا مخرج ، وكل بضعة ايام اذهب الى قبر اخى،واجلس امامه احدق فيه بعيون جامدة لاتطرف.. ما هو الموت .. ؟ وما معنى هذا كله .. ؟ ! ثم اقفل عائدا الى المدينة مطرقا اترنح ...

وضقت بحياتى ذرعا ، وازدريتها ، وغرقت فى اعماق مأساتى ، ولم اعد اينما وليت وجهى ارى شيئا سوى شاهد القبر ، وفقدت كل شجاعة على مواجهة الحياة ..

واهملت نفسي وثيابى ، وكان اقاربى ومعارفى ينظرون الى فى عطف ، وحاول بعضهم ان يخرجنى من عزلتى المظلمة

النظرات تقتحمنى .. البعض ينظر الى فى اشفاق ، والبعض فى رثاء ، والبعض فى سخرية ...

وكنت احيانا وانا سادر فى عذابى تعود لى خيالى ذكريات الماضي ، فأذكر أيامنا الأولى عندما كنت اعيش فى كنف ابى وامى واخى . وتبدو أمام عينى لحظات السعادة والحنان والدفء ... ثم اذكر أيامى مع أخى .. عندما كنا نقضي اوقات فراغنا معا ، ونتنزه معا ، ونذهب الى السينما معا ، ونتجول فى طرقات القاهرة المزدحمة معا ، ونحن نضحك حتى تدمع عيوننا من الضحك. ثم يجذبنى الحاضر الى ظلامه فجأة ، وتصدمنى الحقيقة المرة ... كل هذا قد ذهب .. ذهب الى غير عودة ، مضى كل شيء ، وبقيت وحيدا ضائعا فى هذه الدنيا الواسعة ...

وفى تلك اللحظات كان يخامرنى حنين عجيب الى حياتى الماضية ، وتراودنى غريزة حب الحياة ، وتجتاحنى رغبة فى أن اهرب بنفسي من هذه الاحزان ، وابتسم للحياة مرة أخرى ، واحاول ان ابتسم لكن الابتسامة لا تطاوعنى ، واجد وجهى جامدا كتمثال من الشمع ..

ان الابتسامة لم تعرف طريقها الى شفتى منذ رحل اخى عن هذه الدنيا .. مرت بى شهور طويلة لم ابتسم فيها مرة واحدة حتى ايقنت اننى قد نسيت الابتسامة تماما ... !

وكنت اتطلع الى الناس وهم يبتسمون ، واسأل نفسي فى حيرة وعجب :

— كيف يبتسم هؤلاء الناس .. ؟

واى شيء يجعلهم يبتسمون . ماذا فى الحياة يجعل الابتسامة ترتسم على شفاهم .. الحياة كلها تعب وشقاء وعذاب وفراق وموت . الا يذكر هؤلاء الناس حياتهم المعلقة على خيط أوهى من خيوط العنكبوت . الا يذكرون الموت الذى يتربص بهم فى كل لحظة ومع كل نفس يتردد فى صدورهم .

وفى الدوامة المظلمة التى ادور فيها نسيت كل طيبات الحياة ..

***

اضاءت مصابيح الطرقات ، وهبط الظلام ، ومازلت اهيم فى الطرقات على غير هدى افكر بلا انقطاع ...

وتناهى الى سمعى صوت الشيخ عبد الباسط وهو يتلو القرآن بصوته العذب الأخاذ فى مذياع بأحد المتاجر ، فوقفت انصت اليه وقد انتبهت حواسي، ومست الكلمات المعجزة شغاف قلبى.. كان يتلو « وما كان لنفسي ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » ...

وتلاحقت نبضات قلبى ، والمقرىء يردد الآية بقراءات مختلفة اكثر من مرة وشعرت بهزة فى اعماقى كمن مسه تيار كهربى ، وظللت واقفا استمع الى القرآن العظيم فى انفعال وخشوع ، ثم غادرت مكانى ومضيت بطىء الخطو وقد احسست بهدوء يشملنى لكننى سألت نفسي فى حيرة وحزن :

— كيف نسيت السماء وانا غريق فى محنتى .. ؟

وراودتنى من جديد تلك الرغبة فى ان اهرب بنفسي من احزانى.. الرغبة فى الحياة التى تعتمل فى كل نفسي..

رحت انقل قدمى على ارض الطريق بلا وعى وانا غريق فى خضم من الافكار

وفجأة وقع بصرى على اضـواء متألقة تشع من نوافذ مبنى ضـخم وتنعكس على ارض الطريق ، ورفعت بصري الى المبنى المتألق الذى يبدد الظلمات من حوله ، فاذا به مسجد ...

وقفت فى مكانى مبهوتا اتطلع اليه وقد اشـتدت خفقات قلبى ثم تحركت مقتربا منه ، فوقع بصرى على المصلين يؤدون صلاة العشاء ...

وقفت كالخائف وانا ارتعش كالمقرور ، واحدق فى المسجد وكأنه مكان قد حرم على ، وظللت جامدا اتطلع الى النور المنبعث من باب المسجد ومن نوافذه ، ونسيت نفسي لحظات ثم انتبهت ، فاذا بعض المصلين يغادرون المسـجد وهم يتمتمون بالدعاء ، ونظرت الى وجوههم واجتاحتنى الدهشة ..

رأيت وجوها هادئة مشرقة مطمئنة ، ولمحت بسمات تتلألأ على تلك الوجوه .. بسمات حلوة كلها الرضا والتفاؤل .. وهتفت من اعماقى :

ــ كيف نسيت هذا .. ؟! شيء واحد هو الذى يجعل الناس يبتسـمون .. الايمان بالله هو النور الذى يضيء جنبات الصدر . وينزل السكينة فى القلب . هو طوق النجاة الذى يحمل الانسـان من لجة الشقاء والعذاب الى شاطىء الطمأنينة والاسـتقرار .. ليس شيء غيره ..

وعندما غادر المصلون المسجد وجدت نفسي اتسال داخلا اليه ، ورغم اننى احسست براحة تغمر صدرى وانا ادلف الى المسـجد ، فقد اجتاحتنى رغبة شديدة فى ان ابكى ، وان استغرق فى البكاء ...

ووقفت لأصلى العشاء ... وفجأة .. فاض من عينى نهر الدموع ، فحطم سد الشقاء والعذاب ، وجرف امامه ركام التعاسة والاحزان الدفينة ... وعندما فرغت من صلاتى لمحت شيخ المسـجد وهو ينظر الى دموعى فى تعـاطف وحنان ثم رفع عينيه الى السماء وهمس بكلمات ثم انصرف لشأنه ..

وغادرت المسجد وانا اشعر بهدوء واطمئنان ، وقد افترت شـفتاى عن بسمة ..

لقد عرفت اخيرا كيف يبتسم الناس .. الايمان .. والأمل .. الايمان بالله الذى يشع فى الصـدر راحة وفى الاعماق طمأنينة .. والامل .. الامل فى رحمته تعالى وفى عونه ... لقد افقـدتنى الصدمة صوابى ، واظلم اليأس الدنيا امام عينى .. واحسسـت وانا اخرج من المسجد الى الطريق اننى ولدت من جديد ....

نعم انا الآن انسان آخر .. ومضيت اتجول فى الطرقات لكننى لم اكن امضي على غير هدى بل كنت أعرف ماسـوف افعل . وكانت طمأنينة الهية تغمـر صدرى . وهدوءا نفسيا يشمل عقلى ونفسي جميعا ...

كنت ارسـم الخطوط الاولى لحياة جديدة .. لن البث ان انفذهـا على الفور .. اجل يجب ان ابدأ من الليلة .. سأبدأ من الليلة فى ترميم حياتى التى حطمها اليأس والحزن .. لن استسلم لليأس القاتل مرة اخرى .. نعـم لن استسلم ، وسيعيننى الله على ذاك ، ولن يتخلى عنى ...

سأنتقل اولا من المسكن القديم الى شقة اخرى .. سأهرب من مثوى ذكرياتى

ولن اعيش بمفردى .. سأتزوج .. اجل سأتزوج ...

ثريا ... ياالهى .. كيف نسيتها.. واضاء الاسم امامى وتوهج كالمصباح المتالق فى ظلمة الليل .. تلك الفتاة الجميلة ، جارتنا بنت « الست ام خليل» الطيبة .. الفتاة التى طالما كان قلبى يركض فى صدرى كلما رايتها ، والتى كان وجهها يحمر كلما التقت عينانا فى نظرة معبرة ، والتى خفق القلب بحبها اول خفقة ، وكان زواجى منها اقصى امنية لى .. تلك الامنية التى اودعتها — من اجل اخى الحبيب — فى مكان سحيق من صدرى ...

اجل سأتزوج من ثريا ، وسأبدا حياة جديدة ، وسيقف الله الى جانبى ، ولن يتخلى عنى ، وكل جمعة سنزور معا قبر اخى ، ناقرا هناك ما تيسر من القرآن واترحم عليه .. لن استسلم لليأس مرة اخرى .. ان الله الذى وهبنا الحياة لنعيشها ولنتمتع بها لايرضي قط ان اعيش عمرى كله فى ظلام اليأس والضياع ، ولن انقطع عن الصلاة ابدا .. لقد اضاءت صدرى المظلم واخرجتنى من ظلمة اليأس الى نور الحياة ...

كنت ارتجف من الانفعال،وفى اعماقى شحنة من الاحاسيس تريد ان تنفجر . لن انام الليل هذه الليلة .. هذه ليلة خالدة فى تاريخ حياتى .. يجب أن أفعل شيئا .. أى شيء .. يحقق آمالى فى الحياة الجديدة التى صممت ان اعيشها ...

واتجهت صوب الشارع الذى اقطن فيه .. وفى هدوء دخلت بيت ثريا .. اخيرا سنلتقى ، وسيتحقق الامل ، وسننتقل من هنا الى حى آخر والى شقة جديدة واثاث جديد وحياة جديدة ، وساحملك بعيدا عن الناس جميعا الى جنة الحب والزواج ..

وطرقت باب شقتها باسما خافق القلب ، وانفتح الباب عن وجه « الست ام خليل » ومدت يدها تصافحنى وترحب بى ، ودخلت الى حجرة الصالون ..

جلست امامها مضطربا كالتلميذ البليد المحرج ، وكانت السيدة تتطلع الى فى شيء من الدهشة فلم اكن متعودا على زيارتهم ، وكنت اريد ان اصارحها على الفور برغبتى ، ولكن لسانى انعقد فى فمى ، والعرق تصبب على جبينى وانا احاول جاهدا ان انبس بكلمة ؛ والسيدة تقول لى بين الفينة والفينة مرحبة وكانها تشجعنى على ان ابدا الحديث :

— اهلا وسهلا . مرحبا . زارنا النبى ..

وانا ارد عليها بغمغمة لاتبين ..

وبعد لأى قلت لها فى ارتباك وبصوت خافت مرتعش :

— والله ياست ام خليل انا لى عندك رجاء ..

فقالت السيدة وهى لاتنى تتطلع الى فى فضول :

— انا تحت امرك يابنى .. قل ماتريد .. ؟

فقلت ووجهى يزداد احمرارا :

— جئت اطلب الآنسة ثريا زوجة لى ..

ونظرت الى السيدة فى دهشة وعجب كمن تتطلع الى انسان يهذى..

ثم اطلقت ضحكة ولم تملك نفسها فاستغرقت فى الضحك . وزادتنى ضحكاتها رتباكا وحرجا ، وكان قلبى يركض فى صدرى وانا فى اشد العجب من ضحكها ، ثم تمالكت السيدة نفسها وقالت لى فى صوت هادىء فيه رنة اشفاق :

— ثريا يابنى تزوجت منذ اكثر من عام .. وبالامس انجبت طفلا جميلا ، اننى عائدة توا من عندها ..

بهت .. ونظرت اليها كالمشدوه ..

واستطردت السيدة فى رقة وحنان :

— كيف لم تعلم وانت تسكن فى نفس شارعنا ..

فقلت فى استحياء وانا اكاد ابكى من الحرج :

— مرت بى ظروف عصيبة انت تعرفينها. ان وفاة اخى جعلتنى لا احس بالدنيا من حولى . لم اكن طوال الشهور الماضية محسوبا فى الاحياء ..

وتسللت خارجا من البيت كسير القلب اتصبب عرقا ..

والآن ... ماذا افعل .. ؟ لقد فشلت فى اول خطوة اخطوها .. ان القدر يعاندنى ويقف لى بالمرصاد .. ماذا فعلت ياربى حتى تحكم على بكل هذه التعاسة ، وكل هذا العذاب .. ؟

لكننى كنت احس فى قلبى قوة من حديد لا ادرى من اين جاءت .. قوة الايمان بالله وقوة الامل فيه .. اجل.. رغم هذا الفشل لن استسلم .. لن استسلم لليأس والمرض والهزيمة مرة اخرى .. لقد تزوجت ثريا .. الفتاة التى كان القلب يحلم بها تزوجت وانجبت طفلا .. جاءت بطفل جديد الى الحياة.. الحياة التى لاتتوقف ابدا .. وانا ايضا .. لن اتوقف .. لقد فقدت ثريا ولكن هناك غيرها .. هناك عشرات الفتيات غيرها ...

لقد انجبت ثريا .. ان الحياة لاتتوقف ابدا .. لاتتوقف .. وانا لن اتوقف .. سأبدأ من جديد .. نعم سأبدأ من جديد ..

أنا وأبي

قصة من العراق

بقلم عبد الرزاق رحيم المطلبي

كان ابي صورة فريدة في هذا الزمان ...

كان فظا ، شديد القسوة ، هائجا دوما كالاعصار ، ثائرا ثورة البركان العنيد ، حانقا ابدا ، بسبب وبلا سبب ، ولم اعرف حقيقة ما يدور في ذهنه . وكنت اراه طيلة سنوات حياتي في غيظ متصل وغضب جامح .. رباه !! ترى كيف يسلك مع الناس درب الحياة الطويل ؟! ...

كان نارا موقدة تحت قدر أزلي ، يحرق بأواره المتاجج من كانوا حوله ، أنا وأمي واخوتي الصغار ، فكنا جميعا نتقلب في مياه غضبه الغالية بلا استثناء ... حتى الصغير المرضع ، وكنا جميعا صابرين ، بانتظار رحمة الله .

وكنا نتحاشاه ، كنا نهرب او نتهرب منه ، فان حدث ورددت عليه ، كان الخطب الهائل والمصيبة الكبرى ، ومع هذا فقد لازمت الصمت وعشت ماضغا الضجر والتألم ، كابحا جماح الغضب الذي يدمدم في دخيلتي احيانا ..

حتى كانت تلك الساعة !!

ودلفت الى بيتنا مسرع الخطو ، وما لبثت أن تباطأت أقدامي حتى شدت الى الارض وجمدت في وقفتي مما عراني من خوف ، ونفذ ثقل الصمت الرهيب الى قلبي ، وصرت انقل نظرات وجله بين الوجوه القريبة ، فقد استشففت نذر العاصفة الهوجاء من قدحات العيون من حولي ولم انبس ببنت شفة حتى ارتفع صوت ابي قائلا :

– اين كنت ... ؟

فاضطربت للحظات ، ونظرت الى أمي مستغيثا ... ثم قلت بنبرة متعثرة :

– هـ .. هنا ...

– هنا ... اين .. ؟

– هنا ... فـ .. في الشارع

ـ شارع امك . ابيك ؟! تغيبون من الصباح الى المساء كان ليس عندكم بيت تأوون اليه ... الا تخجل .. ؟

فاطرقت مركزا نظراتي على أصابع قدمي ، بينما تابع وقد اشتدت ثورته وعلا صياحه :

ـ الى متى .. الى متى اشتغل وارمي بافواهكم .. لقد عجزت .. والله عجزت ...

وظل الصمت جاثما بقسوته ،مكمما افواهنا ، ولما لم يجد من يبادله الصراخ اقترب مني وانهال على صفعا ثم اخذ بخناقي صائحا :

ـ امكم .. امكم هي السبب .. **بنت الكلب اضاعت كل امل فيكم ..** افسدتكم بافكارها السخيفة ...

فخنقتني العبرة ، وشحب وجهي وارتعدت من الخوف ، وتركني وطفق يصفق بيديه ويدمدم ثائرا متوعدا ، وما ان اقترب من امي حتى ركلها بقسوة صارخا بوجهها :

ـ كل شيء منك .. انت .. انت السبب يابنت الكلب ...

واقترب اخي الصغير من امه لائذا باكيا يطلب بضعة فلوس ... ويالهول ما كان .. امتدت يدا ابي الى الصغير وامسك به من اعلى ثوبه ، وجره على الارض ثم صفعه صارخا :

ـ حتى انت !! حتى انت تأثرت بامك

ثم دفعه دفعة قوية ،وكان في ذروة غضبه وفورة حنقه ، فما ان صرخت **امي فزعة منه حتى هجم عليها وقبض** على عنقها ضاربا وجهها بكلتا يديه ، وهكذا خط الحطب الفادح ، نزلت المصيبة **في دارنا ، وحينما حدثت المعجزة ...** **حينما انفلتت كلمات واهنة من شفتي :**

ـ بالحيـانا !! متى نتخلص من هذا الجحيم ... ؟!

ولم ادر كيف نطقت بهذا .. ؟! فقد انطلقت الكلمات دون ما وعي مني ... وفغرت فمي دهشة وانهال علي صفعا .. وازددت جمودا ، وظللت احدق في الفراغ العاوي باعماقي ، وزاغ بصري عن الاشياء والناس المتناثرين من حولي ... وصفعة اخرى ، وارتجفت شفتاي، وخنقتني العبرة ، بل مزقت أحشائي . وتوالت الصفعات .. ولم اتحرك ... وركلني ، ودفعني بعيدا فتصلبت . وجمدت ملامحي .. وقلت بصوت منخفض :

ـ كفى .. اليس من حد لهذا .. ؟

وتأففت وهززت راسي .. ونظرت الى من حولي مستنجدا .. ولاول مرة وقفت .. وقفت متحديا مخالفا **طبيعة** الخضوع في .. وعنفت نفسي على موقفي الا اني صرخت غير عابيء بشيء :

ـ ماذنبنا .. ؟ **لم تسومنا العذاب؟** **اننا اناس ونريد ان نحيا كحياة غيرنا من الناس ..**

ـ « رباه !! من اين جاءني هذا ... ؟ من اين ؟! »

ولاول مرة ايضا قال ساخرا مني ..

ـ من علمـك هـذا .. ؟ انت انسان .. !! هممم ..

فقلت وقد استرددت شيئا من قدرتي على الكلام :

ـ **طبعا** انسان ... وساحيا **كأي** انسان ..

ـ اخرس **ياابن الكلب والا** حطمت **راسك ... والا ...**

ـ اطردنا اذا شئت .. اطردنا ... **فقد سئمت حياتي ...**

ودفعني صوب الباب صائحا :

ــ اغرب عن وجهي ... اذهب .. فاني لا اريد رؤيتك ... ياعاق ... ياسافل ...

***

ودوت صرخات حادة في راسي ، وطنت الريح في اذني طنينا ممضا ، وتعالت اصوات عديدة ولم اع شيئا ، وتحركت قدماي بجهد ، وبارحت بيتنا وانا ارد بحنق « لن ارجع لهذا البيت .. لن ارجع .. » واجتمع الناس في دارنا بينما تابعت سيري الوئيد ، وفكري الشارد يجوب آفاقا بعيدة الغور في راسي دون ان يقرلي قرار ، وصحت « ليذهب كل شيء .. وماقيمة المدرسة ما قيمة الحياة بلا كرامة .. بلا عزه .. » وثرت واوغلت في ثورتي الجنونية ..

لكن هواجس عنيدة تحركت في صدري ، وصرخ هاجس « اخسئا يا هذا .. اهكذا تكون مع ابيك ؟ .. » وقلت بمرارة : « ولكنه ظالم .. قد سحقت قسوته كل امل لي في الحياة .. رباه .. اين انا ..؟ انت معيني يارب .. » وتأوهت .. وزفرت زفرات متتابعة . وتابعت سيري ، وكنت اهز راسي واحرك يدي دون ان اعبا بمن في الشارع ، واخيرا قر رايي على ترك البيت الى الابد . وان كان فيه تحطيم مستقبلي ، مستقبلي كطالب في الصف الرابع الاعدادي « وما قيمة كل هذا بدون حرية ؟!.. »

كنت في الثامنة عشرة من عمري وقتذاك .. حينما دفعت بنفسي الى زحمة العمل هربا من جحيم بيتنا وقسوة ابي ، وقيوده القاتلة ، واخذت المدينة ،لكن كيف وانا لا املك نقودا ؟! كيف سأتركها ، وتركت كل شيء لله .. وتابعت سيري ..

ومررت بسيارة ضخمة كان القوم مشغولين بنقل اكياس الحنطة اليها . فامتلأ نظري بهيكلها الكبير وفراملها الجبارة ، فقلت في نفسي « بها .. بها .. سأهرب » فراقبت القوم عن كثب متحينا الفرصة لاعتلاء أكياس الحنطة « انهم لن يعرفوا شيئا عن هربي ولا الجهة التي انتويت وفجاة قلت « رباه!! ماذا يكون من امي .. انها لا تصدق باني اهرب .. فكل آمالها معقودة علي .. وذلك القاسي .. انه لم يدر بخلده باني استطيع الهرب .. اذن ليرى .. » وانتبهت على صوت السيارة يصفق فاتجهت اليها حتى حاذيت مؤخرتها ، وما ان دوى بوقها وشاعت الحركة والاضطراب حتى ارتقيت معتمدا على حافتها الخلفية ، وهناك طالعني وجه كالح لشخص منطرح على الاكياس ولبضع دقائق اخذ احدنا يحملق في وجه الآخر ، ثم ابتسمت بينا ظلت علامات الاستفهام والتعجب مرتسمة على ملامحه ... فقلت : السلام عليكم ... فرد : عليكم السلام ..

ولم يرفع نظراته عني ، وبحثت بنظراتي بين الاكياس ، وما لبث ان استرجع نظراته ولم يقل شيئا ، وشعرت ببعض الحرج فقلت :

ــ اعتقد باننا سنصل الى مدينة (ن) قبل الظهر ...

وواصل صمته ، وكانت السيارة قد قطعت بضعة امتار في سيرها ، وهكذا اجتزت هذه المحنة ثم تقربت اليه وفتحت صدري له بغير ما اكنه ،

وفتح صدره لى فعرفت انه الوحيد لعائلة تتكون من امه واخواته الاربع وقد اضطر للاشتغال بعد وفاة أبيه ، افضى الى بذلك وسيما الاعتداد تنير وجهه . فقلت فى نفسى « ومالى انا ؟! لم لا احذو حذوه فاشتغل لنفسى..؟»

وفى مدينة (ن) شاركتهم فى التفريغ مع الحمالين فاصبت ثلاثة دراهم « رباه !! حمدا لك يا رب » قلت هذا وانا اقلب الدراهم الثلاثة فرحا ، ثم انطلقت اجوب الأزقة والطرقات والأسواق بحثا عن عمل .. اى عمل كان ، فكنت اتسمع واسأل .. ومضى اليوم الأول، ولم اعثر على ما انشد ..

وتذكرت ساعة يدى ، وقررت بيعها . فما حاجتى بها ؟ وبعتها ، وقبضت ثمنها ، ثلاثة دنانير ونصف.. « انها ثروة » وبحثت عن فندق حقير، من الفنادق التى تمرح فيها الجرذان والصراصير .. وما عتمت ان وجدته .. وصرت أدفع ثمن نومى به درهما كل ليلة ...

وكنت على يقين بأن نقودى فى طريقها الى النفاد .. فتفكرت .. وتفكرت ، وبينما كنت جالسا فى الفندق ، اذ لمحت صباغا للاحذية متأبطا أدواته . مارا بالجالسين فى المقهى ، يسأل هذا وذاك وينهمك فى عمله بصمت ... « انه يعمل !! » قلت هذا وزممت على شفتى ...

وبارحت الفندق من فورى، ورحت افتش حتى عثرت على بغيتى .. وصرت أصبغ الاحذية لقاء عشرين فلسا ، ووجدت سعادة عظيما بعملى .. واخذت اقتر على نفسى فلا انفق الا بمقدار ، اجمع النقود الى يوم العسر .

وذات يوم ... بلغ بى الضيق مبلغه ، فقد شارف على الانتهاء ولما اصب غير عشرين فلسا اجر حذاء واحد ، وطفقت ألج المقاهى وأبحث واسأل دون جدوى ، فبعدت كثيرا واوغلت ملاحقا رواد المقاهى ، سائلا رواد الحدائق العامة ، حتى انتهى بى المطاف الى مقهى مغبرة كالحة ، فأردت ان اعرض عنها الا انى دلفت اليها ولا ادرى لماذا ! ! وبنفس اللحظة دخلها صباغ آخر ، فشعرت بشىء من الحنق،وهممت بالسؤال لكنى اكتفيت بنقل نظراتى اليائسة بين وجوه الرواد ، بينما مضى الآخر يسأل حتى حصل على حذاء يصبغه وبقيت انا « آه .. يا للحظ .. ! الويل لى منه اذا ادبر » وتأففت ، ثم خرجت حاثا خطاى الى الفندق وأنا أقول « انه ليوم نحس فما اجدرنى بالاعراض عنه . ودلفت اليه اخيرا ، فرميت بكل ادوات الصبغ بعيدا عنى وتوسدت ذراعى مخفيا وجهى فى الوسادة . . فما أمر الخيبة ... ! !

وتتابعت الأيام تاركة رعشات قاسية فى قلبى ، وومضات خفيفة فى اعماقى ، وجفافا فى حلقى ، فماذا استطيع وعجلة الزمن تغرس اسنانها الحادة فى حناياى يوما بعد يوم ..

***

انقضى على هروبى ستة اشهر ، فلم اسمع عنهم شيئا ، ولم أترك ماينبىء عنى ، حتى اسمى غيرته ، فعلت كل ذلك لأمحو كل اثر للوشائج التى تربطنى بذلك الأب ، لكنى لم أرتح لبعادى عن البيت ، فان هناك امى ، واخوتى الصغار ، فما ذنبها تتعذب من اجلى ؟ ماذنبها لتبكينى وانا على قيد

.. لكن عل هذا يلقنه درسا !!

وكانت ساعات خلوتي ساعات اسى واتراح ولوعة ؛ اهرع فيها الى دموعى فاطلق لها العنان والتجأ الى الله استمحيه الغفران « رباه !! كم تحملت من الآلام وكم ساحتمل !! » فكنت اشوه مشاعرى واقلب دموع شجنى الى دموع فرح وغبطة بحياة الانطلاق والحرية الجديده ، فانكر وخزات الالم واستنكر عواطف الشوق ما وجدت الى ذلك سبيلا وان عدمت السبيل القيت بنفسى فى احضان الدموع ، فكانت افكار الندم والخوف والحرقةالشديدة تضج فى راسى فتتركنى فى وهم من نفسى وشك مما ادعيه ، تائها فى حياة ضبابيه متخبطا فى ازقة مظلمة ، سائر فى دروب تكتنفها الحيرة والقلق والغم العظيم ؛ وكثيرا ماردت مؤنبا نفسى « لقد ركبت شططا لا يصلحه الا الله !! لاننى متهور .. سخيف جدا .. والا فما معنى هذا ؟! » .

الله الله مما فى صدرى من مشاعر !! الله الله مما فى قلبى من نار ندم والتياع لاذع .. « ماذا عملت يارب ؟! اكاد اموت كمدا ولوعه .. اكاد اذوب حسرة .. » الصرخات الداويه فى اعماقى تمزق سكون نفسى وتقطع نياط قلبى كلما خلوت الى نفسى ،كلما طلبت الراحة مما اعانيه من نصب شديد .

واصبحت فى ازمة نفسية حاده ، فصرت اغضب لاتفه الاسباب ، اخرج حانقا وادخل حانقا ، ولفائف التبغ تأخذ طريقها تباعا الى فمى ، حتى اعتدت تركها بين شفتى دون ان المسها حتى تنتهى فامد يدى لارمى بعقبها الى اهرب من الناس . اخشى كل شيء . حتى انفاسى فنكصت على نفسى والحقد الشديد يعمر دخيلتى على ذاتى الوجده ، التى لم تربأ عن كل صغيرة .. فيالنفسى منى ، ويالى منها ، بل ويالنا من الايام !!

ذات صباح .. خرجت مبلبل الخاطر ، مشتت الافكار ، اشعر بضياع شديد فى تيه لاحد له ولا مدى ، ضيقا بنفسى اشد الضيق ، تائقا لرؤية مدينتى توقا تضرم ناره رغبة جامحة لرؤية بيتنا الحبيب وامى والصغار .. بل وأبى العزيز .. أبى الذى صرت اسمع لكل كلمة سمعتها قبلا الحانا من الحنان الفياض والعطف الزاخر . فكم هزات بنفسى عما رايته منها .. !!

واخذت افكر بوسيلة للذهاب اليهم .. طال تفكيرى دون جدوى ، واتصل هيام روحى فى رياض احلام اليقظة العذبة .. فكنت أتمثل أمى وأبى والصغار .. شريطا لذيذا من الاحداث .. واللحظات ، خيل لى بانى بينهم اسمع حديثهم واسمعهم حديثى ، وهم يلتفون حولى يمعنون النظر فى «رباه !! أيمكن ان يكون هذا حقيقة .. ؟! » فلم انتبه الا وانا اتجاوز المقاهى .. فوجدت نفسى فى السوق .. وفى ركن لبيع الخبز ، فتطلعت الى من حولى ذاهلا .. فكيف قطعت الشوارع واكثر السوق دون ان انتبه لحركة قدمى ..

ومن خلال نظراتى الساهمة ، نفذت صورة صبى صغير ممتقع اللون الى قلبى فاهتز اهتزازات عميقة وطفرت الدموع من مقلتى ، فنسيت نفسى ، ونسيت كل شيء ، وغبت فى عالم غير عالمى الذى اعيش فيه ؛ فعانقت روحى

ذلك الخيال قبل ان افيق من دهشتى .. فما ان افقت حتى هرولت نحوه تاركا ادواتى فى مكانها ، وامسكته من ذقنه وقبلته عدة قبلات ، فامسك ذلك الطفل بيدى مجاهدا لابعادها عنه فقد اذهلتــه المبــاغتة ، وللحظة !! التقت نظراتنــا وشردت روحــانا فدلفنا كل الى اعماق صاحبه ، وران صمت لم نسمع خلاله غير وجيب قلبينا ثم صرخ كل منا مناديا الآخر .. وتعانقنا .

ولم اعبا باحد .. رفعته الى اعلى واجلسته على صدرى ، واضعا خده على خدى متشمماريحه ، متلهفا اضمه فى صـــدرى ، فقد كان اخى ، اخى ذا الخامسة من عمره ، اخى الحبيب سالم !!

وتحركت عينــاه باضــطراب ، ثم مالبث ان طفق يبكى ، فذرفت دموعى بصمت وانا التمس منديلى مضطربا لا لامســـح دموعى وقد خنقتنى العبره «الهى .. حمدا لك .. شكرا فلطالما رعيتنى !! » ضممته الى صدرى ، ولم استطع الكلام ، ولم يتكلم هو .. لم يتكلم ابدا ، ولم يتركنى فقد وجد راحة عميقة فى ضمى له ، ولما انعمت النظر فى المكان رايت طبقا واســعا مليئا باقراص الخبز الطازج ، ارغفه ساخنه، وعرفت انه يبيع الخبز فصرخت فزعا ذاهلا :

ـ وابى ياسالم .. ؟ ابى اين .. ؟؟

ولم ينبس سالم ببنت شفه فقلت :

ـ كيف تركك تبيع الخبز ... ؟

« ترى ماذا حـــدث .. ؟ ما الذى اراه .. ؟ .. رباه لكم اخشى .. »

وبكى ســـالم ، وبكيت انا الآخر « رباه !! انى استجير بك من كل شىء .. رباه اليك امرى .. » وانحنى سالم على طبقه ورفعه قائلا من خلال دموعه:

ـ لنذهب الى البيت .... فامى هناك ...

وابى ياسالم !

الا تتكلم ؟!

فنظر الى نظرة كسيره ، فيها الكثير من الالم والقهر ، ولم يتكلم .. بينا انهمرت دموعه بغــزاره عـلى خـده الشـــاحب ، واودعت ادواتى عند «عطار» قريب ومضيت معه الى البيت والف علامة استفهام ترتسم امامى فى الهواء متحديه كل همســـة دافئة تلج قلبى من فم سالم الصغير ... « فاين انا ؟ .. وكيف جاءوا الى هنا .. ؟! وابى .. ؟؟؟ .. » كل هذه **التساؤلات،** وحشد كبير منها جالت فى راسى وكل شىء حولى غارق فى **الصمت** ، كل شىء يسبح فى بحر من الغموض ، معتم . ثقيل ...

سار سالم وتبعته متفحصا الوجوه « آه .. لعلى ارى ابى فى الطريق .. لعلى التقى به مصادفة فليس من عادته البقاء فى البيت » هكذا قلت لنفسى وانا اتبع سالم ، اقتفى اثره ولهفتى تسبقنى وتسبقه الى الطريق ...

وفى طـرف من المدينـــة .. طرف تعشعش فيه القذارة ، ويؤمه البؤس كل لحظة ، طرف جل ما فيه كوم نتانة وقبح .. اقتادنى اخى ســـالم اليه ، فاين هذا من طرفنا الزاهى البديع فى مدينة آبائى واجدادى .. ؟! اين بيتنا من مثل هذه البيوت التى حط عليها البؤس ففدت قذرة المظهر ، ذرية الهيكل كانهــا حظائر حيــوانات افقر الناس واقذرهم ..

وشققت طريقى معه وروحى تكاد تزهق مما اجتــاح اعمــاقى من نفور

حقدا لذلك الحى من اول وهلة رايته فيها . بينما راحت عيناى تجوبان اطراف الحى وزواياه وتتسللان الى مداخل البيوت بحثا عمن اريدهم . فجاست كل منعطف وكل ملتوى دون ان يبلغها الكلل . حتى وقفت على شبح محنى القامه .. امام بيت قذر كئيب، يسربله العوز بسربال التعاسة والشقاء، فعرفت فيها امى الحنونه !! كانت تعد عجينا ، فلهثت انفاسى وشعرت باللهفة الشديدة والفرحة العميقة يعتملان فى صدرى فاسرا قلبى لقوتهما ، وبقيت مسمر القدمين بينا ركض سالم بقوة الى امه .. ومن بعيد اخذ يصيح :

– اماه .. اماه .. هذا حامد

– حامد .. ؟؟ .. حامد .. ؟؟ ..

ورفعت راسها بشهقه .. ووقفت تنتظرنى للحظة !! ثم صرخت من اعماق ام مكلومة :

– حامد .. ابنى .. حامد ...

واقبلت على راكضة وقد نسيت ملاءتها فى مكانها ، فجاءتنى بثوبها الفضفاض فقط والقت بنفسها على وكانها تريد ضمى بصدرها ، امسكت بابطى واخذت تنتهمنى بقبلاتها ، صارت تقبلنى فى جبينى وفى راسى .. بكل شبر من جسمى مجهشة ببكاء مر .. ثم اخذت تحملق فى ، تحدق فى بعينين مغرورقتين بالدموع ، ثم طفقت تقول :

– حامد يابنى ... لم فعلت هذا .. ؟ فعلت بنفسك ، وفعلت بنا .. كيف استطعت العيش بدوننا ..؟! رباه .. لم اكن اتصور انك قاس الى ذلك الحد ولم اعرف ابنا عمل مثلك ياحامد !» وطفقت تبكى .. فبكيت ، وكطفل غرير !! انهملت الدموع من عينى وسالت على خدى دون ان اتذكر عزة .. او كرامة ، او اعتدادا بالنفس ...

من خلال وجيب قلبى المرتفع :

– امى .. اين ابى .. ؟ .. ابى اين ياامى ... ؟!

فطفحت عيناها بالدموع ، وتجهمت ملامحها وكساها الحزن العميق ، حتى خيل الى بانه قضى عليها ، ثم اتانى صوتها خفيضا كسيرا يحمل الكثير مما نالهم فى سبيله :

– لقد سجن ابوك ياحامد .. سجن بسبب مشاجرة مع احد ارباب عمله .. بعد شهر من هروبك ... وقد حكم عليه بالسجن لمدة ثمانية اشهر ..

وهممت ان اسالها عن سبب وجودهما هنا .. لكنها استطردت :

– ولشهر خلا .. نقل الى سجن هذه المدينة .. فكان علينا ان ننتقل .. وهكذا ترانا .. انا اخبز وسالم يبيع فنحصل على قوتنا ، ونشترى له مايحتاجه .. ندفعه له فى اوقات مخصصة

– سجن ابى ... سجن .. ياللمصيبة !!

وضربت كفا بكف ، وتبلدت ملامحى .. ووهنت انفاسى ، فجف حلقى ولم استطع بلع ريقى وظلت نظراتى شاردة تائهة .. لا هدف لها ..

وفى صباح اليوم التالى ...

اجتمعنا انا وامى .. واخوتى الصغار وحملنا بعض الطعام وعلب السكاير والثقاب وتوجهنا الى السجن .. وهناك نسيت كل شىء .. واقبلت على ابى تلتهم الآلام كل جوارحى ، دامع العينين ، اطلب منه العفو والمغفرة .. فكان جوابه وهو يربت كتفى بحنان ابوى كبير :

– لاضير عليك يابنى .. وستستفيد كثيرا مما حدث .. فالحياة تجارب وعظات .. !!

المحاكمة

بقلم : عبد العال الحماصى



قاعة المحكمة مكتظه بناس ذوى اشكال واحجام مختلفة .. لا شيء مشتركا بينهم سوى شراهة الفضول.. وأنا قابع في القفص الحديدى «أهرش» جرحا ملتئما فى ساعدى الأيسر ، وأتأمل وجوههم بشتى الانفعالات البادية عليها وهم يحملقون فى بشراهة حتى لأتوهم نفسى كائنا هلاميا قذف به الى الارض احد الاطباق الطائرة !!

نظراتهم تعرينى .. تبدو وكأنما توشك إن تنقض على وتفترسنى . نظرات دائبة بعضها تطل منه الحيرة.

[illegible]
لى . وبعضها لا يكتم العداء !» وامراة بدينة اخرجت ثديها المترهل من فتحة جانبيه فى ثوبها المتسـخ وطفقت تلقمه رضيعهـا الملفوف فى « قماطه » الذى تناثرت عليه « ريالته » ! .. وتهمس فى اذن جارتها الصغيرة بكـلام غريب يتحدث عن الخديعة . و « المقلـب » الذى شربته . والقلوب التى تحجرت فى هذا العالم !!

مقلب .. وخديعة .. عن اى مقلب تتحدث المراة البدينة ؟!

خدعت ..ربما ..اخذوا يخدروننى بكلماتهم الضخمة . الشرف . العار . التقاليد كرامة العائلة .. رجولتى .. وواجبـى .. ! ان احتمـال اعـدامى لايهولنى بقدر ما يعذبنى احساس بانى تخليت عن القيم التى كنت افخر بها .. ومن اجلها واجهت الكراهية والعذاب . كيف اسـتجبت لهم هكذا ببلاهـة ؟ كيف !

وازاحت المراة البدينة فم رضيعها وبدت حلمة الثدى محمرة ومتورمة من الامتصـــاص .. اقذعتنى الى حـد الغثيان ! مازالت النظرات تلاحقنى .. وددت لو كان بيدى سيخ ملتهب افقأ به جميع تلك العيون المصوبة نحوى كانها فوهات بنادق ..

لماذا لا ينتهـون .. وما فائدة كل هـكذا .. قتلتها واعترفت .. فمـا جدوى أن يعرضـوننى هـكذا لعيون الآخرين بنظراتهم المسعورة ؟

قتلتها .. سلوى .. اختى المبدعة الفـاتنة .. القـلب الذى كان يعطينى الحب .. والحنان والمشاركة .. قتلتها بوداعتها وصباها ..كيف بيدى انتزعت

[illegible]
ومم يعرضونه على .. وترددت ..انا تعرض على هذه المهمة ؟ غريبة !؟ من اين جاءتهم الثقة فى أننى ساوافق .. منذ متى كنت رجلا فى نظرهم .. دائما كانوا يعتبـروننى « خرعا » لا يصلح لمواقف رجولة .. دائما كانوا يبعدوننى عن مشـاكلهم ومعاركهم مع العـائلات المنافسـة لأننى فى نظرهم لا اصلح الا لتمشيط شعرى . وقراء المجلات .. دائما كانوا يسخرون من طراوتى التى تشبه بسلوك بنات الذوات .. ! عندما كنت صـغيرا اذهب الى الحقول مـع اطفال العائلة كان ابناء اعمامى يعايروننى كلما وجـدوننى قد اسـتغرقت حالما أصغى لخرير المياه فى الجداول .. أو أربت بيدى فوق رؤوس الكلاب بينما يمارسون هم العابهم العنيفة ويتربصون ببنادقهم للذئاب فى حقول القصب .. او يقومون بعمليات سطو على الحقول المجاورة ليسرقوا البطيخ .. او يتلفون زراعة من يختلف الكبار معهم .. !

حتى « جليلة » صغرى بنات عمى الأكبر كانت تمسك بخصلات شـعرى وتنكشها « وتنكشها » فى سخرية لتؤكد باننى تماما أشبه أمى .. نعم .. لم يكن احد ينادينى ابدا باسـمى .. كانوا ينـادوننى على الدوام بقولهم « ابن سميرة » .. ابن امى !!

فمـن اين اتتهم الثقة فى اننى يمكن ان اصبح بطلا هكذا بلا مقدمات لأقتل .. واختى بالذات .. .وهم يعلمـون فرط حبى لها وشغفى بها .. قلت لهم اننى لا اسـتطيع ان اكون قاتلا مهما كانت الأسباب .. وقذف بها حسـن ابن عمى متهكما .. الم اقل لـكم ..

كنت أتوقع ذلك .. ذيل الكلب لا يمكن ان ينعـدل ابدا .. حضرته ينفع بس يكتب مـواويل !! ولكزه عمى فى جنبه معترضا .. وانطلق يردد الاسطوانة .. العار كلام الناس .. شرف العائلة .. وواجبى .. فليس هناك من هو احق منى بازالة هذا العار .. وترددت .. أختى وليالينا .. والعشرة .. وقلبها الذى يحتـوى أفـراح انتصاراتى .. واشجان هزائمى اى جنون سول لى الموافقة ...

كانت مستلقية فوق فراشها وتحت راسها وسادة يتمرغ فوقها شـعرها الفاحم المتموج وقد استغرقت فى قراءة قصة مترجمة من تلـك القصص التى كانت شـغوفة بها .. ودخلت عليها بهـدوء وانا اغلق الباب خلفى واحاول السيطرة على اعصابى .. لابدو طبيعيا بينما سوس التردد ينخر فى مشاعرى. نظرات الى وحسبت الأمر مجرد هموم صغيرة كتلك التى تعودت ان افضى اليها بها ..

ـ مالك ياوجدى .. زعلان من ايه»!

ـ ابدا يا سلوى .. مفيش حاجة. شـوية صـداع بس .. خلصتى الراوية .. اصـل « مدحت » عاوزها .. سالنى عليها ..

ـ ايوه قربت .. على فكرة مدحت ماله اليومين دول مش عايز ييجى عندنا كمان ملاحظة ان تصرفاته مش طبيعية خالص ..

آكد لى تهافت نبراتها فى سؤالها عنه. ووميض اللهفة الذى شـع من عينيها عندما سـمعتنى اذكر اسـمه صـدق مازعمـوه لى عـن عـلاقتها به .. ان الخطـابات التى وقعت فى ايديهم هذه الخطابات لاتؤكد وجود علاقة آثمه .. انها تتحدث عن الحب والاشواق واحلام الغد .. وعندما قلت لهم هذا ثاروا فى وجهى .. حب .. ! ومنذ متى كانت عندنا بنات تحب .. ! واخذوا يؤكدون لى بأن قرار قتلها قدوافقت عليه العائلة بأجمعها .. وأن مهمة التنفيذ اذا كانت قد القيت على عاتقى فلانى اجدر العائلة بذلك .. وأن عارها يلحق بى قبل اى واحـد منهم .. فاذا امتنعت فليس معنى هذا ان يبطل القرار .. فالبلدة كلها تتهامس بالفضيحة .. وأين يمكن لرجال « عائلة الشرقاوى »ان يخفـوا شواربهم .. سينفذ القرار قمت بالمهمة ام ابيت .. وفى هذه الحاله سـتعلن العائلة انها تبرات منى .. لا ياحسـن .. لن ادع يدك القظة تمسـها .. بيدى انا تموت .. لابيدك ايها الجلف الموتور .. لن ادعك تقتلها ياحسـن .. لن ادعك تشفى غليلك منها لانها رفضت بشجاعة وكبرياء أن تتزوج من وحش مثلك .. لا يا حسن لن تكون نظرتك الشـامتة المتوحشة آخر ما تراه سلوى فى هذا العالم ! » .. ودنوت منها كانما لارى الى أى صفحة وصلت فى قراءتها .. وفجاة وفى جنون ولأحسم التردد الذى بدأ يخرب ارادتى أمسكت بخصـلات شعرها والى الخلف لويت رقبتها .. واغمدت السكين حتى النصل فىصدرها .. وتفجر الدم .. الدم .. الجنـون الاشباح .. عقلى .. قوة ماتنتزعه . طبقات من الضباب تتراكم فـوقه .. وسلوى تتدحرج من فوق سريرها .. تتلـوى غارقة فى دمها .. وفى نظراتها

كالعتاب . وبلا حقد !! وامى تخبط الباب الذى احكمت رتاجه حتى تكسره ..

– احنا فلاحين يا امه .. وصعايده ! ..

– عملوها فيك ياابنى .. يا خراب بيتك يا سميرة .. سلوى .. حبيبتى .. كبدى انا امك يا حلوة .. كلمينى يا سلوى .. ردى على ماما يا سوسو ..

واحتضنتها بالدم تبكى وتصرخ فى التياع وتمزق .. وتعفر راسها فى بلاط الحجرة الذى اصطبغ بدمها .. تطفر من اعماقى اشباح .. فاجرى ملتاثا .. مهبولا .. ثم اعود لأتهالك على الجسد الراكد فى دمه وقد سكنت تماما اختلاجاته .. اقبله .. الثغر الوجنات .. الشعر .. الصدر .. فى جنون .. ثم انهض واجرى من جديد واعود لاخبط فى الجدار راسى .. وتتزايد الضجة ولا اعود اشعر بشىء .. عربة البوليس تقلنى والقيد فى رسغى .. وصرخات امى تلاحقنى .. وعويل الجيران .. والأشباح . واختى غارقة فى دمها !!

***

والذكريات .. موت ابى برصاصات معادية اطلقها عليه احد خصوم العائلة انتقاما لثار قديم .. والكراهية التى كانت تواجهنى من عائلة ابى الذى تزوج برغمهم من قاهرية غريبة احبها وهو يطلب العلم فى الازهر تاركا ابنة عمه التى كانت مخطوبة له .. كانوا يكرهوننى

تعذبت من اجل ان تصمد لمؤامراتهم .. وأحلامى . وزملائى فى الجامعة الذين كانوا يسخرون منى . من «صعيديتى» وتحفظى وانطوائى . والبنات اللواتى كنت ارتبك امامهن وينز وجهى عرق الخجل لو سالتنى احداهن عن موعد المحاضرة .. او طلبت منى ان اعيرها كراستى ، والقصائد كنت اكتبها وابثها ذوب روحى .. وغربتى .. وزميلتى المحررة بمجلة نسائية فى نفس الوقت والتى كانت حلم عمرى ولكنى اضعتها بخجلى وتحفظى وخوف من جراتها المتحدية .. والكتب التى كنت اعيش معها أكثر مما اعيش مع الحياة ! كانت الكتب عالمى .. والأغنيات التى كنت اسمعها بكل ذرة فى كيانى والدموع فى قلبى .. وليلى مراد .. التى كنت اعشق صوتها واتخيل اننى سالتقى بها ذات يوم وتحبنى .. مع اغانيها كانت روحى تجد دنياها !!

ودلفت الى « العنبر » كان مليئا بالمساجين من اعمار متفاوتة .. وقبعت فى صمت تحت جدار بدون أن التفت اليهم .. وهرع الجميع يسالون ما خطبى .. كنت تائها .. سلوى بدمائها كانت امامى !!

– دا .. باين عليه ذواتى !! قالها احدهم وابتعدوا عنى !!

فى الليل انطلق المساجين يتغنون بمواويل عن ادهم الشرقاوى .. وحسن ونعيمة .. ثم انزوت كل « شلة » فى ركن تثرثر حول « التعيين » والبق .. والشاويش عبد الباسط والبنت ذات العشرة اعوام التى اخذت ثار ابيها ..

ويسألوننى : احك شيئا .. قل حاجة وخليها على اللى فوق.. ولا أجيب ..

ــ أمال ٠٠ كنت فاكر السجن ايه ٠٠ سيما ياروح أمك ! ..

قالها سجين أعور .. ومن جديد ابتعدوا عنى

واندفع الحاجب يهدر .. «محكمة» فى انتفاضة متشنجة .. لامبرر لها اطلاقا .. وتطلع الجميع الى المنصة ماعداى .. كنت مشغولا احدق فى وجه المرأة البدينة وهى تتجول بنظراتها القلقة ما بين هيئة المحكمة والقفص الذى يحتوينى .. غريبه .. لم أهتز لم أنتفض لرؤية هيئة المحكمة .. ربما لاننى وطنت نفسى على كل الاحتمالات ! نظرت الى القاعة وقد وفد اليها آخرون.. بينهم اعمامى. عمى الأكبر. هذا العتل الأشيب بذقنه الكثة ومسبحته . كم ابغضه .. حج بيت الله الحرام ثلاث مرات ويقتل القتيل ويسير فى جنازته. لقد عذب امى كثيرا بكبريائه وتعاليه.. لم يغفر لها ابدا انها تزوجت أبى برغمه .. عمى .. أنا على استعداد لأن أخلد فى الجحيم مقابل ان يدعوننى الآن انتف ذقنه هذه .. شعرة .. شعرة .. وامى .. امى لماذا لم تات لماذا .. انى احتفظ بدموع لا اريد ان اذرفها الا عندما تأتى ..

وقام رجل غليظ الأنف .. صارم الوجه وظل يتكلم طويلا عن الجريمة ونذالة دوافعى اليها .. والضحية البريئة . الزهرة المثقفة التى سحقتها بخسة قربانا لمطامعى فى التركة .. ثم انطلق يتلو تقرير الطبيب الشرعى مؤكدا بأن فعلتى لا يمكن أن يكون الانتقام الشرف هو سببها .. ولهذا فانه يناشد المحكمة فى الا تأخذها بى شفقة ! . لم يحنقنى عليه كونه طالب باعدامى .. انها مهمته .. مورد رقاب للسيد عشماوى .. غاظتنى منه حذلقته .. وضغطه على كلمات ضليعة معينة .. وكونه دائب ينظر الى طيلة مرافعته وكأننى فى نظره لا اكثر من حشرة !..

وأمر الرئيس باحضارى الى المنصة وأخذ يستجوبنى وأنا صامت كأنما يوجه أسالته الى انسان لا يعنينى ... وغاظه برودى فأخذت لهجته تشتد وصوته يتوتر فى حنق ..

وأخيرا ولمجرد أن أتخلص من الموقف قررت ان اقول شيئا ..

ــ كل ما أعرفه أننى قتلتها ..ــ قتلتها .. لأرث التركة وحدى دبرت الأمر على ان تظل الجريمة مجهولة .. لم يكن فى خاطرى أن صرخات أمى ستأتى بالجيران .. وسرت فى القاعة همهمات ناشزة .. ودنا منى المحامى يهمس فى اذنى ان هذا التصرف من جانبى بمثابة الأنتحار .. ليكن ! ..

وعدت من جديد الى القفص .. المرأة البدينة تنظر الى فى دهشة واشفاق نظراتها الحائرة تقول لى . انت تكذب . فلماذا ؟ ما الذى يدعو هذه المرأة لأن تحملق فى هكذا .. ولست ابنها ٠ ولا حتى أعرفها ؟ لقد عشت لا ابغض شيئا قدر أن يرثى لى

المفرط .. ومعاملتها لى وكاننى شىء هش تكسره هفوة .. وعندما نهض المحامى الكهل الموكل للدفاع عنى تمنيت لو ان أطلق العنان لرغبتى فانطلق مقهقهـا .. ثمة شىء يثير الضحك فى منظره وهو يقف بجسده النحيل .. وعنقه الذى نفرت عروقه وروبه المتهدل..وقد اطلت من وجهه الشاحب كآبة تندد بالعالم كله .. وأخذ يترافع مناشدا المحكمة بأن بالا تلقى بالا الى اعترافى الأخرق .. حقا اننى قتلتها .. ولكن الامر ليس كما أقول هو الطمع فى استحواذى على التركة .. لان الطريقة التى ارتكبت بها الجريمة من السذاجة بحيث لاتتناسب أبدا مع تفكير مجرم طامع يرسم خططا .. واستطرد يقول باننى قتلتها وانا مسلوب الوعى .. وكنت ضحية مؤامرة .. وانطلق يحمل على أعمامى مؤكدا بأن الانصاف يقتضى بأن يكونوا هم الان فى القفص وليس انا.. فقد اقنعونى بعلاقتها التى لم تكن اكثر من حب عفيف بين شاب جامعى نبيل وفتاة مثقفةتواجهاتقاليد عفنة وتنمو حياتها خلف أسوار من قيم عطنة .. اقنعونى بهذا بدافع الحقد المتأصل الذى يكنونه لنا ... ليضربوا عصفورين بحجر واحد تموت هى ويكون السجن مصيرى انا ..وانسان فى مثل شاعريتى وحساسيتى .. سيدفعه تكوينه لا محالة الى الانتحار .. اما الأم فما ايسر الخلاص منها ..وبهذا تقع التركة الضخمة جاهزة فى أيديهم ..

« آهذا هوالمقلب الذى كانت تتحدث هذه الحقيقة .. كيف لم تخطر على بالى .. لم يكن فى خاطرى امام تصميمهم الا ان مسالة التقاليد هى التى تدفعهم . كيف غابت عنى هذه الحقيقة .. كيف ؟ ! »

واستطرد المحامى يواصل دفاعه .. لقد استغلوا احساسى بأنى كنت دائما موضع سخريتهم لعاطفيتى ورقتى .. فعرضوا على دور بطولة استجبت له بلا وعى وبلا فهم..حيث انطلقت كل الرواسب القديمة .. كل العقد .. تسوقنى من الداخل لأرد أعتبارى فى نظرهم ولو بالجريمة مبررا فعلتى امام نفسى بانها ستقتل حتما فمن الافضل أن تقتل بيدى ! .. ونهضت أطالبه بأن يغلق فمه .. لا يهمنى أن يظهرنى فى وضع الجبان الذى اراد أن يكون بطلا فى نظر الذين كانوا يعايرونه برخاوته لا يهمنى ذلك فهذا لم يخطر على بالى .. ثم انها مسألة تخصنى .. ولكن كيف يؤكد للمحكمة فعلا علاقة اختى بحبيبها .. مهما كانت هذه العلاقة بريئة .. هنا لا يعرفون علاقات بريئة أوغير بريئة.. لا اريدهم يعتقدون بأن هذا هو سبب مصرعها .. اهون عندى أن أموت من ان تلوك الالسنة شرف سلوى .. ولم يهتم المحامى باهانتى وانطلق يضرب على نفس النغمة .. ومن جديد طلب منى الرئيس أن اتقدم .. وتكلمت ..

كذبت كل ما قاله المحامي .. مصرا على أن الدافع فقط هو الطمع في التركة ..

وعاد المحامي يوضح سبب اصراري هذا .. ثم قدم للمحكمة دفتر مذكراتي الذي كنت ارصد فيه انطباعاتي ومشاعري عن الاذلال الذي كنت اعانيه من أبناء عمي منذ كنت صغيرا .. وفي المدرسة .. وفي المجتمعات لأحساسي بأن ثمة شيئا في سلوكي يثير دهشة الآخرين .. وقد وضع خطوطا حمراء تحت العبارات التي كتبتها في فترة الصراع النفسي التي سبقت الجريمة وهي تؤكد في نظره دور أعمامي فيها .. والدوافع المتشابكة التي ساقتني لقتل الانسانة التي أعبدها .. وختم مرافعته مناشدا المحكمة بأن تضع كل تلك الملابسات في اعتبارها ! .. ورفعت الجلسة للمداولة ..

عزم علي الشرطي الأسود الذي يقف ببندقيته أمام قفصي بسيجارة فاعتذرت شاكرا .. مازلت المرأة البدينة تنظر نحوي وتوشك الدموع ان تطفر من عينيها .. ومازلت حلمة ثديها في فم رضيعها .. كلما ازاحت فمه عن ثديها انطلق صراخة فتسكته بوضع الحلمة من جديد في فمه .. أمي .. لماذا لم تات أمي .. لماذا ؟..

وعادت هيئة المحكمة :. ونطق الرئيس بالحكم الذي يقضي بادانتي عشر سنوات مع الأشغال لأن المحكمة وضعت في اعتبارها الظروف المحيطة بالجريمة ..

عشر سنوات .. في السجن ! .. زايلتني رباطة جأشي .. شعرت بالانهيار والضياع .. عشر سنوات يطاردني دم سلوى .. وتهمس في اذني .. « مالك ياوجدي » عشر سنوات .. أمي .. لماذا لم تاتي .. غفرانك يا أمي قتلتها لك .. ولست مجرما .. صدقيني يا ماما .. لست مجرما .. وانطلقت دموعي .. والمرأة البدينة .. منذ لحظات كانت نظراتها تلدغني .. الان أريدها .. تقول لي نظراتها بأن هناك من يشفق علي ويتألم لمصيري .. والتقت عيناي بعينيها كانت الدموع تنهمر على خدها .. والرضيع يمتص ثديها .. لكم اود أن اعانقها .. أن اغفو عن ضياعي لحظة واحدة بين أحضانها .. ودنت تهمس في اذني :

ـ ولدي .. الله معك ..

ـ سيدتي .. لست مجرما ! ..

ـ أنا لا افهم شيئا .. ولكن .. قلبي يقول لي هذا !!

جاء عمي في هذه اللحظة .. وعندما اقترب من القفص كانت بصقتي قد تناثر رذاذها فوق ذقنه كرغوات صابون صفيره ..

ـ سيدتي .. هل تعرفين أمي .. قولي لها ان تغفر لي ..

نظرت الي طويلا وانخرطت تبكي ..

ـ يمكنك يا ولدي ان تعتبرني أمك ! ..

نظرت اليها وفهمت .. لم أجد دمعة واحدة .. وامتدت يد المرأة تلامس جبهتي .. وفتح الحارس القفص وأخرجني ودفعوني الى عربة كانت في الانتظار .. !!

عمالقة فى زجاجة

فائزة بجائزة نادى القصة

بقلم : محمد ذكرى مراد

رحت ارقبه وهو يميل مع المنشار بقوة كلما دفعه أو جذبه فيمرق فى الخشب محشرجا كوحش مجنون لاتمل انيابه الافتراس ، فتتناثر تحت أسنان سلاحه الرهيب ذرات خشبية دقيقة يتطاير بعضها مع ذرات الهواء ثم يستقر على البنك الطويل الذى يعمل عليه .

وتساءلت بينى وبين نفسي فى عجب ايمكن لمثل هذا الجسد المتين أن يسقط فجاة ودون سبب ، فيتمرغ فى الارض كحيوان مذبوح ، ويصدر عنه خوار كخوار الثور ؟

واخذت اتملى اجزاء جسده ، واسبر غوره بناظرى . كان معتدل القامة . مجعد الشعر قليلا . عيناه عسليتان واسعتان . ووجهه لم يكن نحيلا . وكانت بنيته قوية . وذراعه الاسمر الذى يبدو من كمه المرفوع .. متين . تبرز عضلاته كلما دفع المنشار او سحبه اليه .

وضع المنشار جانبا بعد أن انفلقت قطعة الخشب المثبتة بين فكى المنجلة الى شطرين وصاح بالصبى .

— الفارة يابنى .

وكأن الغلام كان يتوقع طلبه . فما ان نطقت شفتاه بنصف الكلمة حتى كان قد وضع « الفارة » بين يديه . ثم راح يقلب الفراء بقطعة خشب صغيرة،

وينظم بعض الادوات ، فثمة فارة هنا .. وكماشة هناك . وباقى لوح ابلكاش ينقله الى ركن المحل . وعاد يقف مترقبا ينتظر بادرة اشارة من احد العمال حتى يضع مطلبه بين يديه .

ولم تكن تلك الصورة الرهيبة تفارق ذهنى ابدا. فكلما رايت الاسطى سعدان لا يلبث ان يدور بذهنى اعصار عنيف. وتتملكنى دوامة من الحيرة ، لا يخرجنى منها تشاغلى بالنظر الى المارة او معروضات المحل من الدواليب والاسرة، او حتى بالحديث مع بعض العمال .

لم يكن يبدو على الاسطى سعدان الضعف والهزال حتى يمكننى ان اقبله فى هذه الصورة . ولم يكن يبدو من حديثه انه مختل فى قواه العقلية او به مرض . بل على العكس من ذلك. عرفت من احاديثه انه يقوم بواجبه فى الحياة كاملا . ويتحمل مسئولياته تماما . حكى لى ذلك هو بنفسه . واحيانا اخرى كنت التقط من بين احاديثه المتناثرة ما جعلنى

احيط بكثير من جوانب حياته . فلم اجد فيها ابدا ما يشير الى انه انسان مريض .. او ضعيف . وكنت منذ جئت الى هذا المحل لعمل سرير امر عصر كل يوم لاشرف على نوع الخشب ، ودقة الصنع . فيضعون لى مقعدا على عتبة المحل اشرف منه على الشارع . وقد اوصانى صديقى الذى قدمنى لهذا المحل بالاسطى سعدان. قال لى : دع الاسطى سعدان يصنع سريرك لانه ادق صانع فى الورشة . وداعب الاسطى سعدان قائلا : خد بالك من البيه أحسن ده عزيز علينا .. فلم يتمالك الاسطى سعدان ان قال بصوت هادىء وابتسامة مهذبة : من عينيى الاثنين .

هذا رايت الاسطى سعدان لاول مرة . وقد ارتحت اليه ، ارتحت الى هدوئه فى الكلام والى اخلاقه وخاصة بعد ان زادت معرفتى به وازدادت بيننا الألفة .

كان صورة مناقضة لزميله الاسطى على باخلاقه الغجرية ، وعباراته المفضوحة . وكانت أخلاق كل منهما تنعكس على مظهره وصنعته . فبينما كان الاسطى على يعود الى بيته بعد انتهاء العمل بقميصه وبنطلونه الملطخين بالغراء وبالقبقاب ، كان الاسطى سعدان يغتسل جيداويغير ملابس العمل بملابس نظيفة رغم قدمها ، وحذاء مرتق .وبينما كان الاسطى على يصنع كل شيء بلا دقة ولا اهتمام . كان الاسطى سعدان يولى عمله عناية كبيرة . مما جعله محبوبا من العملاء . وجعل صاحب المحل لا يستطيع أن يفرط فيه لأى سبب .

والتقط الاسطى سعدان قطعة الخشب بعد أن مسحها بالفارة . ونظر لى قائلا :

ــ شايف يابيه .. حاجة مظبوطة عشان خاطر عيونك . وخشب زان نمرة واحد .

فقلت :

ــ تعيش ياالسطى سعدان .. ده عشمنا فيك .

والقى قطعة الخشب جانبا . والتقط القطعة الاخرى يمسحها « بفارته »وكنت فى تلك اللحظة قد انشغلت عنه بمشاهدة ساقى امراة جميلة تمر أمام المحل .وما كدت أسحب ناظرى من على جسدها حتى التقت عيناى بعينى الاسطى سعدان .. كان يختلس النظر الى المراة وعندما احس اننى رايته .. سحب ناظريه مسرعا . واطرق .. وتشاغل عنى بقطعة الخشب ، وحرص على الا تلتقى عيناه بعينى .

وكان الاسطى على قد خرج من داخل المحل ، ووقف على عتبة الباب يتتبع المراة بناظريه ويصيح وهو يصفق بيديه : ياحلاوة .. ياحلاوة .. ياسلام ياجدعان . والتفت الى كمن يتساءل : بيعملوهم فين دول يابيه .. ثم التفت صائحا بسعدان كمن ضبطه متلبسا :

ــ عينك يانمس ..

فنظر اليه سعدان مستنكرا ، وقال محذرا وهو يشير له بيده :

ــ ياجدع انت بلاش كلام فارغ .

فنظر على نحوى مستنجدا ، وقال :

ــ أنا باستغرب الجدع ده عايش ليه .. سيما .. يقول بيضحكوا علينا

بالله . حتى جنينة ما يقعدش يشم فيها شوية هوا .. دى النسوان زينة الحياة الدنيا ...

ونظر اليه سعدان ولم يتحدث . تعثرت الكلمات على لسانه . واخذت فتحتا أنفه تضيقان وتنفرجان . ثم صاح فجأة :

ــ يعنى ما بتشوفهمش .. ما بتشوفهمش فى شارع فؤاد وسليمان باشا بيبقوا عاملين ازاى .. واخذ يردد النظر بيننا مكملا ــ محبكين الفساتين على جسمهم خالص .. والا رجليهم ال .... العريانة . ودراعتهم .. و .. و .. حاجة تخلى الواحد ...

ولم يجد كلمة يتم بها حديثه ، فصاح :

ــ ياهوه ...

وابتسم على ابتسامة خفيفة حينما وجد ثغرة ينفذ منها الى الاسطى سعدان ، وسأله :

ــ وانت ايه اللى بيوديك شارع فؤاد وسليمان باشا يااسطى سعدن .. ؟

ونظر اليه سعدان كمن ضبط متلبسا بالجريمة . ثم قال :

ــ اهو ساعات الواحد ياخدها مشي وهو مروح .

فمال على الاسطى على وهمس :

ــ اصله مقرم أوى . تصور اكلنا كله فول وطعمية ويوم ما اقول له تعالى نتشارك فى نص كباب .. يقول لى ياشيخ .. اهو اللى بياكل كباب بيشبع واللى بياكل طعمية بيشبع .

فقال :

ــ ماتصدقوش يابيه اذا كان بيقولك انى بروح شارع فؤاد مخصوص عشان اتفرج على النسوان .. حاكم هو دايما كده يحب يقرفنى .

فقلت :

ــ وافرض بتروح مخصوص ..

فأردف :

ــ اعوذ بالله . هم دول وراهم الا المتاعب .

ــ متاعب ايه يااسطى سعدان ..؟ انت شفت من متاعبهم حاجة ؟

ــ شفت كتير

قالها على عجل كما لو كان له خبرة دهر بالنساء . ثم أردف :

ــ تصور يابيه .. اخويا .. اخويا الكبير يسيبنا عشان مره .. كان عايش معانا فى نفس البيت .. ابونا مشلول ولينا اختين على وش جواز ، واخ صغير فى المدرسة .. يقوم يروح هو يحب واحدة ويجوزها ، ويسيبنى فى البيت لوحدى .

فقلت محاولا ان اشجعه :

ــ معلهش يااسطى سعدان .. انت ادها وادود .

ــ وشرفك يابيه ما مخليهم عاوزين حاجة . انا راجل جدع اعرف الواجب .. يوميتى اربعين صاغ بصرفها عليهم .

وانتهى سعدان من مسح قطعة الخشب . وصاح بصبيه أن يحضر الغراء . وجرى الغلام مسرعا الى وعاء

الغراء فحمله من فوق الموقد . واقترب من سعدان الذى امسك بفرشة الغراء. ومال على الوعاء . . .

وعادت الصورة المزعجة التى لم تفارق ذهنى تعصف به من جديد . صورة سعدان وهو يميل على الوعاء . ويسقط فوقه على الارض . فينسكب الغراء ، ويتمرغ فيه سعدان كحيوان مذبوح وهو يصدر خوارا كخوار الثور.

هكذا وصفه لى صديقى حينما احضرنى الى المحل . قال : مسكين سعدان .. ولد كويس وابن حلال .. لكن ما عرفش ايه اللى صابيه .. تبص تلقاه فجأة راح واقع على الارض .. واشنخ وبقى زى حتة الخشب .. ويطلع صوت .. أعوذ بالله .. زى صوت التور المدبوح.

وكنت ارقب سعدان دائما ، واعجب ان يحدث ذلك لمثل هذا الجسد المتين ، حتى شاهدت ذلك بنفسى . ولا ادرى السبب فيما حدث . فقد كنا نتحدث حديثا عاديا . وكان الاسطى على يداعبه باحدى عباراته . قال : ايه رايك نشاركك فى ثمن كباب النهاردة على العشا .. ونروح السيما بعد ماتخلص شغل ...؟ زغطط ياخى يوم كده وبطل الحنبلة بتاعتك دى ...

وابتسمت انا ونظرت نحو سعدان . ولكنه اسهم فجأة . وبرقت عيناه . واتسعت فتحتا انفه وضاقتا . وتلوت شفتاه كما لو كان يريد ان يقول كلاما يعصى عليه . ثم شهق شهقة متقطعة وسقط على الارض يخور كثور مذبوح

ومنذ تلك اللحظة وهذه الصورة لم تفارق خيالى . حيث وقفت مشدوها التمس بناظرى انسانا يفعل اى شىء .

وخرج الاسطى على من داخل المحل وفى يده بصلة ، هشمها بالشاكوش ، واخذ يشممها له ، ويربت على وجهه ، ويدلك راحتيه . وبدا لى حينذاك ان العالم قد توقف عن الحركة .. حتى رايته يفيق قليلا قليلا ، وينظر الينا كأنه قادم من عالم بعيد .

ووضع الاسطى سعدان الفرشة فى وعاء الغراء ، وراح يفرى قطعة الخشب . فانشغل بها عما حوله . حتى جاءه صوت الاسطى على معابثا وهو مقدم من الداخل .

— ماتروح تجوز بقى ياأخى بدل ما انت طول النهار عينك على النسوان .

والقى سعدان الفرشة وقطعة الخشب من يده على البنك ، وتمتم بينه وبين نفسه .

ثم صاح غاضبا :

— لا اله الا الله .. انت ياجدع انت مش حتبطل تقريفنى ..

ورايت ان اخفف قليلا من غضبه فقلت :

— طب وزعلان ليه ياسطى سعدان .. هو الجواز وحش .. ؟

فنظر الى لحظة ثم ابتسم ، وسالنى :

— لازم حضرتك مجوز ؟

— انا مش مجوز لانى بصرف على عيلة زى حالاتك . لكن مابكرهش الستات زيك .. بحبهم .

وتفرس سعدان فى وجهى كأنه يحاول ان يقرا معنى طرأ له . ثم قال :

— [illegible]
وتلاتين سنة ..

وفاجأني قول سعدان . كنت بين حين وآخر افكر في عمرى الذى يضيع. وامد لنفسي عاما بعد آخر ، فيستطيع عقلى ان يكيف نفسه ويجد من المبررات ما يخفف وقع الحقيقة . ولكن سعدان وضع يدى على الحقيقة مرة واحدة فأحسست بشبه دوار . واخذت تطن في رأسي الكلمات التى راحت تنطلق من فم سعدان :

— وتقول ايه في اخويا اللى اجوز ولا سألش في حد .. والنبى حضرتك لو جدع تعمل زيه .. ده حرام .. والنبى ده حرام . والبنى آدم عمره يضيع يوم ورا يوم .. لحد ما يبص يلاقى نفسه عنده خمسين سنة .. و .. و ..

ولاحظت فتحتى انفه تضيقان وتنفرجان ، وشفتيه تتلويان ، وشهق شهقة خفيفة توقعت بعدها ان يسقط على الارض . وبدا لى كانه زجاجة صغيرة في داخلها اشياء كالعمالقة لا تتسع لها . وخيل الى انه قد تهشم وانهار على الارض. ونظرت الى الارض فلم اجده . وجاءتنى كلماته وهو منتصب بجوار البنك . وكانت رعشة قد اصابتنى . وانتابنى شعور يدعو للغثيان ..

— تلقاك عشت حياتك كلها محروم .. محروم من بنت تعرفها لتصرف عليها ترش .. محروم من اكلة نضيفة ..

[illegible]
بتاع النظاجة .. محروم منه .. وانت ذنبك ايه .. ؟ ذنبك ايه انت .. ؟ اذا كان اخوك الكبير راح اجوز .. هو انت مسئول عن الخلق دى .. والا .. والا ... انا عارف بقى مين اللى مسئول ..

وسكت سعدان وهو يتنفس في راحة وهدوء . وبدا كأنه قادم من عالم بعيد . تماما كما يبدو حينما يفيق من احدى نوباته . ولاحظ اعيائى ووجومى فاقترب منى متعجبا ، ولم اكن قد افقت تماما ، ونظر الى لحظة ثم صاح :

— الله .. مالك يابيه .. ؟ الاستاذ بينه حيغمى عليه .

وجاء صوت على المفضوح — حتى في جده — من الداخل :

— اكسر له بصلة ؟

فقلت :

— لا ياجماعة .. متشكر .. الحكاية مش حكاية بصلة .

وبدت المناظر تتضح امامى . ورغم الصور المهزوزة التى بدت تحت عينى ، رايت سعدان مازال منتصبا بقامته . ودهشت .. لماذا لم يقع سعدان ويتمرغ على الارض ، ويخور كالثور المذبوح .. ؟ ولكن الذى اثار دهشتى اكثر اننى لم اشكو لسعدان عن شيء من ذلك ... كما اننى ليس لى اخ اكبر .



بين القصة والقراء

يقدمه : ثروت أباظه

أبدأ بتقديم هذه القصة للأديب محمد الراوى صالح من السويس ٠ وقد أعجبت غاية الاعجاب بمنهجه فى العرض فهو لم يلجأ الى الاسلوب المباشر مطلقا وقد قدم رأيه فى فنية وعمق ٠ وهو ذو نظرة عريضة عميقة فى وقت معا ٠ وهو يتناول شخصياته فى تفهم تام وفى انسانية بالغة ثم هو يعرض عليك هذه الشخصيات من خلال حديث الشخصيات نفسها ومن خلال رغباتها وآلامها ومخاوفها كما يعرض عليك شخصياته من خلال تصرفاتها ولا ينسى أن يقدم الهجسات النفسية فى أعماق شخصياته ٠ وكل هذا يضعه فى اطار قصته ذات الفكرة الانسانية العميقة ٠

الحياة

بقلم : محمد الراوى الصالح

كانت محتويات الغرفة مبعثرة وكأنها قبو قبر قد نبشته الذئاب بمخالبها ، وكان هناك مقعد هرم يزقزق كلما مر عليه ذلك النسيم الخفيف المتسلل من اطار النافذة المكسور ، ومفرش الارض قد تبوأت فى وسطه الرقع والثقوب وبرزت الارضية فى اكثر من موضع منه متربة باهتة ، والسقف كالح

السواد ، والحائط قد اجتمعت عليها الوان مختلفة من الطلاء الردىء الرخيص فلا يعرف من يراها ان يحدد لونها . اما هو فكان يجلس على حافة الفراش وأمامه منضدة هزيلة الارجل تكاد تسقط على الارض . كانت يداه نحيلتين طويلتين، وشعر رأسه مشعثا متنافرا كل مجموعة منه تكون ضربا مستقلا ومكانا منفردا. ولكن عيناه وهي وجدها ، كانت شاذة عما يحيط بها من فوضى سواء ان كانت في الغرفة الشبيهة بقبو القبر او هو .. الشبيه بالميت . كانت عيناه تتجلى فيهما احساساته وانفعالاته واصبحت تترجم عن كل مايجول بنفسه من خواطر دون حاجته الى الكلام . اما فمه فلقد اقفله الى الابد أو هكذا كان يقرر كل يوم . كان يفتحه عندما ياكل ولكن قليلا ما كان ياكل .

تملل على اسماله وكانه ساكن قبر وقد بعثت فيه الحياة من جديد ، وقرر ان يغادر المكان وتحسس ساقه اليمنى ، انها ساقه الخشبية ، فابعد يده عنها وكانما اصابها مس من الشيطان . انه يشمئز من نفسه ولا يطيق ان يلمس ساقه الخشبية .. راض كل الرضا بانه لايرى وجهه لانه والحمد لله لا يملك مرآة .

نزل الى الطريق .. كان زقاقا مختنقا ، ولم يكن صوت ارتطام ساقه الخشبية بالارض واضحا حينما كان يسير في هذا الزقاق لكثرة الاتربة المتراكمة ، ويكون الصوت اكثر وضوحا واكثر قلقا بالنسبة اليه اذا ما خرج الى الطريق العام الذي يكره ضوءه ويبغض الضوضاء ، والكتل البشرية التي تعج به .

الى اين يا من تملك ساقا خشبيا ؟

الى اين وانت تسحب جسدك المسكين هذا ؟

الى متى سأعيش هذه الحياة ؟

الى متى سأظل ميتا ؟!

توالت عليه الاسئلة وهو في الطريق، وجعله لايدري بما يحيط ، منصرفا تمام الانصراف الى نفسه مركزا احساسه وانتباهه الى تلك الاسئلة التي تصدر من صميم اعماقه ، ولكن بماذا كان يقابلها ؟

بلا شيء .. لقد اعتاد ذلك منذ انفرد وواجه الحياة بجسد ناقص . وعزيمة خابية صدئة .. وقطع تأملاته صياح الاطفال من حوله : ابو رجل خشب .. ابو رجل خشب . ونظر اليهم ، وابتسم في داخله وقال لنفسه ببراءة خالصة : « الاطفال هم الوحيدون الذين في استطاعتهم ان يواجهونا بحقيقتنا في براءة وبدون خوف » . وتركهم يدورون من حوله ، ناظرا اليهم من حين لآخر وكانه يرجوهم ان يبتعدوا عنه ويتركوه لسبيله. وبعد أن أشبع الاطفال رغبتهم تركوه منصرفين متصايحين من الاعجاب لان احدهم اقترح عليهم لعبة جديدة سيعلمها لهم .

وعاوده تفكيره من جديد ، وتذكر طفولته واذا بها مغلفة بضباب كثيف لم يتبين من خلاله غير صور مهزوزة مرتعشة لكنها أحسن بكثير من حالته الراهنة . لقد طوى الزمان افراد اسرته الثلاثة أخته وأمه وأبيه من خلال المرض والحوادث القدرية ثم التفت عجلته على جسده فابقته بساق واحدة ونفس مهدمة يائسة متشائمة . قال لنفسه « اذا كنت سأظل كما أنا بلا أمل ، بلا هدف فالعدم اولى بي ، حقيقة اني استنفذت كل طاقتي العاملة من خلال

تجربة او اكثر ، ثم صمت برهة قصيرة وقال بصوت مسموع ولكنه مخنوق : « آه الضياع .. الضياع » ، وكاد جسده يهوى الى الارض من اثر ارتطام ساقه الخشبية بحجر كبير لم ينتبه اليه : « اللفة اللفة .. آه لو ان الله قدم لى من رحمته ما يجعل قدمى هذه تنمو من جديد » ، وأطرق برأسه الى الارض وواصل سيره بينما كانت عيناه تنظر الى داخله « كان لى يوما ما قدمان قويتان ونفس كبيرة تحمل من الآمال ما كان يضيق بها هذا الوجود » .

تذكر كيف كان يعيش ايام شبابه الاولى .. وكيف غلى دمه وجرى فى جنون يبعث الثورة فى كل جزء من اجزاء جسده ونفسه عندما اعلن الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وعندما وجد بعضا من ابناء بلدته يعلقون اللافتات التى تعلن هذا النبأ وتطالب بالاستقلال وتصرخ فى وجه الانجليز ان اخرجوا من بلادنا . منذ هذا اليوم وهو دائم الحديث مع زملائه عن هذه المعاهدة وعن الانجليز وعن معنى كلمة الاستعمار وما تتضمنه من وحشية وعبودية ، ووصلت حماسته منتهاها حينما اشتبك الاهالى مع الجنود الانجليز على أطراف البلدة ، وتكررت هذه المعارك وكثر عدد الضحايا من الجانبين . كان مما يثير جنونه رؤيته للعربات التى كان يدفعها بعض الاهالى وهى محملة بالمصابين والدماء تنزف من اجسادهم وترسم خطا طويلا بطول الطريق ، وصيحات الالم تدوى فى ارجاء نفسه وكأنها صدى لمطارق قوية تطرق بشدة على الجدران الداخلية من جسده . فانضم الى اخوانه من الفدائيين وقبض على سلاحه بساعدين قويين مصمما على

أن يحول تلك الصرخات اليهم وأن يجعلها تنبعث منهم .

ولم يعد هناك شىء يعوقه عن الكفاح والتضحية .. فلم يتبق له غير اخت تعانى من آلام المرض فى المستشفى .. اجتاز معارك كثيرة وتعرض للخطر اكثر من مرة . وذات يوم تسلل مع اربعة من زملائه معسكرا للانجليز حاملين معهم المفرقعات والالغام يريدون بها تفجير مخازن المؤن والذخيرة واخذوا يبثون الالغام بهدوء وحذر .. وفى طريق عودتهم شعر بهم احد الحراس وسلط عليهم ضوء قوى من كشاف المراقبة وانطلق سيل من طلقات نارية كانت تبرق فى السماء متوجهة اليهم . وقام هو بمواجهة مصدر الخطر واطلق اعيرته النارية تحطم الكشاف وقبل أن يهرب ليلحق بزملائه شعر بوخذة ألم شديدة فى ساقه اليمنى ثم تلاها على الفور وخزات اخرى اشد ايلاما فى نفس الساق . فصرخ واتى اليه زملاؤه وحملوه واسرعوا به بعيدا .. وبعد قليل ابرقت السماء وارعدت .. لقد انفجرت الالغام وتحطمت مخازن المؤن والذخيرة .. وها هى النيران تأتى على بقية المعسكر .. .

وشعر بسخونة دمعة صغيرة تنزلق على وجنتيه بينما كان امامه رجل يحملق فيه بدهشة قائلا فى نفسه : « ما هذا المجنون .. يبتسم ويدمع فى آن واحد» وتنحى له عن طريقه تاركا اياه فى استغراقه العميق . ولكنه افاق حين وصل الى ملتقى الزقاق الذى يعيش فيه بالطريق الرئيسى . توقف برهة حتى يعود اذنه على ضجيج هذا الطريق ، ووقفت عربة المسافرين على بعد منه ، واستقلها بعض المنتظرين لها . لكم كان

حيث لا يكون هنـــاك بشر » ، وعبر الطريق الى الجهة المقـــابلة وتوغل مرة اخرى فى طرق ضيقة تقوده قدماه ، الى هدف معين • وانتهى سيره الى منزل ذى طابقين ••• قديم مشارف على السقوط، ولج من بابه فوجد كلبا بالقرب منه ومن خلفه ظهرت قطة سوداء • تموء تريد ان تخرج ولكنها خائفة من الكلب • فدفعه بقدمه الخشبية فافسح الطريق للقطة التى اختفت بسرعة وكأنها تخاف انتقام الكلب •

سار فى دهليز مترب طويل ذو رائحة تجلب الغثيان وقد تعذر الرؤية فيـــه خاصة أن الليل أرخى سدوله• وتوقف امام باب مغلق على يساره وطرقه طرقا خفيفـــا وبعـــد قليـــل فتحت له امرأة بدينة بعض الشىء لم تتجاوز الخامســة والثلاثين من عمرها يحمل وجهها قبحا ودمامة ، كمـــا تحمـــل انفـــاسها اليه رائحة قذرة نتنة • والقى اليهـــا بنظرة من عينيه فتحت له عن المدخل وتوجه الى الداخل باطمئنان وكأنه اتى الى هنـــــا مرات من قبل وجلس على حافة السرير وهو يأخذ انفاسا عميقة متلاحقة • كمن يشعر بالاختناق • ومد يده واخذ يحل رباط ساقه الخشبية ثم وضعها بجوار الحائط وارخى جسده على الفراش واغلق عينيه • وحاول مرة اخرى ان يجهـــد مخيلته من جديد لتمده بذكرياته الماضية •• ولحظات الالم التى عاناها عندما بتروا ساقه •• وحزنه الشـــديد عندما ماتت اخته•• لكن الشريط قد انقطع لأن هذا المكان الذى يجلس فيه انما اتى اليـــه ليستريح وقال لنفسه « كانت امعـــائى اولى بالخمسة قروش التى ستأخذها منى هذه المرأة » !

ومرت فترة سكـــون يمزقه فى غير من النحـــــاس ••• لقد كانت المرأة تغتسل •• وعاد يحدث نفسه «مسكينة •• كلانا من المساكين البؤساء ، لكنهـــا طيبة •• نعم طيبة بل هى صورة اخرى لنفسى الضائعة»• كانت هذه المرأةملجأ كل تعيس شقى يأوى اليها حينما تثور نفسه وتغدر به الايام ليجد على صدرها المكتنز المفتقر الى الجمال كل الراحة التى تعيده ولو لفترة قليلة عن التفـــكير فى سوء حاله ، اقتربت منـــــــه المرأة وهى تمسح وجهها بمنشـــفة قذرة ثم القت بجسدها على صدره واخـــذت تقبله فى فمه قبلات سريعة ثم استقلت بجـــواره ومدت يدها تربت على خديه وتدلك له وجهه وسرى الدفء فى جســـده فتحرك اليها واخذها •

قالت له بعد ذلك : لم لا تقضى الليلة معى ــ انتى بمفردى •فأجابها باقتضاب: لااســـتطيع •• لابد من الذهاب الآن • ونولتـــه ساقه الخشبية وربطهـــا ربطا سريعا غير محكم وغادر المنزل وقد بلغ الليل منتصفه او كاد • وسار بين الازقة مترنحا غائبا عن نفسه الى ان قابله كلب ضال فى الظلام هجم عليه فجأة ، ولكن لسوء حظ الكلب انه عقر ساقه الخشبية فآلمت استنانه وولى الادبار •• « اللعنة على الكلاب •• حتى الكلاب » واثاره السكون الذى شمل الوجود من حوله واخذ يتمتم لنفسه « اى حياة تلك التى اعيشهـــــا وكأنى لا اشعر بما يحيط بى •• هل انا انسان حقا ؟ •• او ترانى اناني اعيش لماضى دون حاضرى •• واى حاضر هذا •• لحظات كلهـــا عذاب ونفس لاترحم صاحبها لاتنفكعنوخزه بقضيب حديدى مصـــــلى فى النار لما لا أذهب •• لن يشعر بغيابى احد •• القى بجســـدى الى النهر او تحت عجلات قطـــار •• آه

يالى من بائس حقا ·· لو فعلت سيذهب كل شقائى فى لحظة واحدة ·· فى صرخة واحدة ··

وكان حينئذ قد وصـــل الى الطريق الرئيسى ·· كان هادئا ساكنا خاليا من المارة الا عربة كانت عينـــاها تبرق من بعيد ·· وبدأ يعبر الطريق وهو مازال فى دوامة تفكيره ، ولفت نظره اقتراب العربة ··

فقال لنفسه « آه ·· لو القى بنفسى تحت عجلاتها ، ربما صرخت ولن ن باتى احد ·· ربما ظنوا ان صياحى عواء كلب »

وفجأة وفى منتصـف الطريق انحل رباط ساقه الخشـبية فوقع على الارض مرتطما بها بشدة ··

كانت عينـــاه تحملق فى ذهول فى العربة التى تقترب منه بسرعة مخيفـة دون أن تراعى وجوده وبكل ما تملـكه ساقه اليسرى الســـليمة من قوة دفع جسده متفاديا اياها ، فمزقت من جواره كالسهم مثيرة خلفها زوبعة من الغبـــار ·· تاركة على وجهه لطمة قوية من الهواء الرطب ·

حينئذ نظر الى العــربة وهى تبتعد وعيناه مغرورقة بدموع لألاءة وصـــدره يجيش بفرحة النجاة من موت بغيض ·

أما القصة الثـــانية فهى حنين بقلم الاديبة كاميليـــا جلال وهى تعتمد على التحليل وقد تعمقت نفسية فتاة تهفو الى الزواج دون أن تبين عن مشاعرها وقد قدمت قصتها فى اسلوب رفيق ليس فيه افتعال ·

حنين

بقلم : كاميليا جلال

اســـتيقظت فوقية من نومهـا على اصوات الباعة المتجولين الذين اصـطفوا تحت النافذة كعادتهم صباح أيام الجمعة ينادون بأصواتهم المتنـــافرة ـ كل على بضاعته ـ لعل قاصدى المســـتشفى الجامعى ـ القائم على الطوار المقـــابل ـ تبهرهم هذه النداءات المتحمسة على شتى أنواع الفاكهة فيحملونها هدايا لمرضاهم·

وتمطت فوقية فى الفراش وقد ندت عنها تنهيدة طويلة وهى تفكر فى هؤلاء المرضى ، انها مثلهم ، مريضة ، رغم صحة بدنها ونشاطها الجم ، أقرب الى الموت من أكثرهم معاناة رغم أنفاس الحياة المترددة بين جنبيها فى قوة وانتظام ·

ودخلت أمهـــا الحجرة ، تسـبقها دعواتها الطيبة ، ورائحة البخور الذكية التى تصاعدت من طبق صاج فى يدها ، أخذت تلوح به هنا وهنـــاك حتى ملأت رجاء الغرفة بخطـــــوط متعرجة من الدخان تأملتهـــا فوقية وهى تتجمع فى الفضاء بيضاء ·· واضحة ·· ثم لاتلبث أن تتلاشى فى هدوء كالطيف ، فتنهدت مرة أخرى، واستلقت على صدرها تخفى وجهها وانفعالاته فى الوسادة الناعمة ·

واقتربت منها أمها تقول بحنان :

ـ هيا انهضى يافوقية فالساعة تقترب من التاسعة ·

وعبرت فم فوقية الدقيق ابتســـامة رقيقة انعكس نورها على عينيها فأضاءها وهى تحيى أمها تحية الصباح ولكنها لم

تتحرك من مكانها فقالت الام مداعبة : ـ

ـ ألآن اليوم عيد ميلادك تتدللين يا فوقية ؟ هيا ٠٠ هيا ٠٠ ان اخوتك ينتظرونك بلهفة لترى هديتهم ٠ أما هديتي فسوف أسبقهم وأعطيها لك ٠

وانحنت فوقها تقبلها في عطف ، ثم خرجت وهي تتلو بعض الآيات القرآنية ولاتنى تلوح بطبق البخور هنا وهناك ٠ فنهضت فوقية على مهل واتجهت نحو نتيجة الحائط وقد خبا بريق عينيها وهي تتأمل التاريخ المكتوب في مزيج من التعجب والاشفاق ، فما أطول ما عاشته اذا حسبته كمجرد رقم ، وما أسرع ما مر عمرها وانفلت من بين أيامها اذا حسبت رغباتها وأمنياتها التي حيرتها في ضباب الحياة ٠

وبغتة ، أفاقت من شرودها على ضجة اخوتها وهم يتصايحون في مرح ، فتلقت منهم هدية عيد ميلادها الثامن والثلاثين وقد راحت تنبش الماضي ، عندما كانت تتلقى مختلف الهدايا من والدها رحمه الله ، فرأت بعين الذكرى فوقية أخرى ، خفيفه ، مشرقة ، تخطر بخطى الربيع على بساط الحياة ، متوردة الوجنتين بدماء الشباب والآمل ، ثم تدرجت مع ذكرياتها فاذا بالأب الرحيم يرحل عن الحياة ويتركهم لها ، فطحنتها تحت عبء أسرة متوسطة الحال ، صارت هي ربتها بعد ان اختصرت مدة دراستها لتعمل موظفة متوسطة باحدى الشركات، وجرفتها دون أن تشعر ومعها آكثر من ضرورة ضنت بها على نفسها في تلك الدوامة التي دارت بها فأسكرتها وأغمضت عينيها تعبا وملالة ، واليوم وقد هدات تلك الدوامة وصار اخوتها يتعاونون له فيما بينهم لم يعد للعهد السعيد رسم ولا أثر ٠

وصاح شقيقها الاوسط في لهفة : ـ

ـ ألا تعجبك الهدية يا ابلة فوقية ؟

فانطبعت على شفتيها ابتسامة واسعة ، وانحنت تضم اليها اخوتها الثلاثة وقد جال الدمع في عينيها الصافيتين وهمست :

ـ انها تعجبني ٠٠ تعجبني جدا ٠

وكادت تتنهد مرة أخرى لولا شعورها بانها أكثرت من التنهد ، وأن وراءها من الأعمال المنزلية البسيطة ما يكفي لملء فراغ يوم عطلتها ، فطوحت بشعرها الغزير الى الوراء وتوجهت خارج الحجرة يحيط بها أشقاؤها وهم ينشدون لها احدى أغنيات عيد الميلاد ٠

وبينما هي أمام الحوض في المطبخ ، وقد انهمكت في تنظيف بعض الصحاف، أقبلت عليها أمها تقول في نبرات منفعلة : ـ

ـ فوقية ان السيدة « انتصار » جارتنا قد دعتنا لحضور حفل عقد قران قريبة لها ، وأقسمت على وألحت حتى لم أجد بدا من القبول خاصة وأننا لم نر المجتمعات منذ زمن بعيد ٠٠ فما رأيك ؟

وهزت فوقية رأسها موافقة ، وهي تتأمل المياه تتسرب من الصنبور نقطة ٠٠ نقطة ٠٠ ثم تذكرت صديقتها وزميلتها في العمل « فريدة » فتركت الصحاف بمكانها ، وأغلقت الصنبور بعناية ، وجلست على مقعد منخفض في ركن من المطبخ تستعيد تفاصيل قصة زواج فريدة ، تلك القصة الحالمة ٠٠ ما أجملها ! كانت فريدة مدعوة في احدى حفلات الزفاف وبينما هي تخطر هنا وهناك وسط المدعوين التقت نظراتها بنظرات شاب وسيم سمرتها في مكانها حتى اقترب منها وقال في اعجاب : ـ أقسم أنك أجمل عروس يحلم بها انسان ٠

[illegible]
الشاب ، والآن ٠٠ ها هى ذى تستعد للذهاب الى حفل زفاف الى مجتمع كبير ، زاخر بالحياة والأمل ، فهل يا ترى تعود منتشية فرحة ، فتخرج لسانها ساخرة من التاريخ الذى يخنق أنفاسها ، وقد ضمت بين ذراعيها قدرها التائه ؟

وأمضت فوقية بقية يومهـــا تستعد للحفل ، فأخرجت من بين أثوابها أجملها، وانتقت حذاء مرتفع الـــكعب لتبدو رشيقة ، وعقصت شعرها الاســـود الى الوراء وزانتـــه بوردة برتقـالية زاهية تتفق ولون ثوبهـا الواســـع ٠ وعندما ألقت نظرة أخيرة على مرآتها شـــعرت بنفسها الصادية تحن الى الشراب البارد العذب الذى فاتها ، وبروحها تهفو فى وجل الى الرقص والغناء والمرح ٠٠٠ الى كل شيء وعندما خرجت من باب الشقة مع والدتها ليمرا على السيدة « انتصار » تنفست الهـــواء الذى هب من نافذة مفتوحة فى السلم وقد احتشـــدت فى رأسها رغبات وآمال مبهمة ، غامضة ٠

وهناك ـ تحت الأضـــواء المتلألئة ، أحست أنها تميس فى النور الأبيض ، وأن العش الصغير الذى تمنت أن تبنى فيه حياة جديدة ، خاصة بها وبمشاعرها أصبح قاب قوسين او أدنى ٠ ولكنهـــا عادت تسأل نفســـها وهى تتحسس وجنتيهـــا ٠٠ أتراه قد مر وانمحى ذلك العهد الذى يمـــكنها فيه أن تحلم بعش لأحلامها ، وبصغار كالملائـــكة ، امتدادا لحياتها يسمعونها برقة كلمة ماما ؟

وجاءت العروس تجلجل مع طلعتهـــا الزغاريد ، فتأملتهـــا فوقية بنظرات مسكينة ، تائهة ، فيها اعجـــاب لايخلو من شعور خشيت بينها وبين نفسها أن تسميه الحسد،فحولت نظراتها الى بعيد، فاذا بنظرات أخرى ترمقها فى اصرار ، وكانت لشاب فى حوالى الخامسة والثلاثين [illegible]

القسمات،فأطرقت وهى تفكر فى فريدة، وعندما اقترب منها بحثت عن أمهـــا فى ارتباك فرأتها فى الجانب الآخر من القاعة مع بعض السيدات ، وأخيرا ســـمعت صوته يسألها عن الطريق الى حيث يمكنه غسل يديه ، فأخبرته انها مثله غريبـــة عن المكان فظل بجانبها يدلى بتعليقات عن العروس والعريس ، وهى تجاريه بصوت بدت فيه رنة المرح واضحـــة وتحرك يدها حركات أنيقـــة ، ودقات قلبها تنبئها فى عنف أن الحياة التى طالما حرمتها من الشعور بأنوثتهـــا ، حنت عليها اليوم وبعد طول عزلة وحرمان ٠

وفجاة سالها الشاب فى غموض : ـ
لقد رأيتك تدخلين مع السيدة التى ترتدى ثوبا بنيا داكنا ٠ فهل أنت من اقاربها ؟

كان يعنى بسؤاله السيدة « انتصار » فاجابته أنها جارتها ٠ فعاد يقـــول فى تردد : ـ

ـ هل أكون متطفلا لو سالتك عن الآنسة روضة ؟

وفى تلك اللحظة دخلت « روضة » ابنة السيدة انتصار وهى تمرر بيدهـــا على عقصة شعرها ، وما أن رأت الشاب حتى تقدمت صوبه فى دهشة قائلة :

ـ أنت هنا ؟ وكيف ؟

فقال :

ـ جئت مع العريس فهو صديقى ، وأنت لماذا تأخرت ؟

فقالت بدلال ٠

ـ كنت عند مصفف الشعر

فنظر هو الى فوقية وقال : ـ

ـ لقد جاءت الآنسة مع والدتك التى انشـــغلت مع والدة العروس ولم تظهر حتى الآن ، ولم أطق صبرا فسألت عنك الانسة ٠٠

وهنا انتبهت روضة لوجود فوقيـــة

[illegible]
الشاب ـ الاستاذ راشد خطيبى وسوف تعلن الخطبة رسميا قريبا جدا ٠

وبعد أن همست فوقية ببعض كلمات المجاملة :، انسحبت بهدوء تاركة الشاب يرنو لروضته فى حنان ، وانكمشت فى ذهول بجوار والدتها حتى انتهى الحفل البسيط الهادىء ، فخرجت تتأبط ذراعها ٠

وفى غرفتها ، خلعت الحذاء المرتفع الذى آلم أصابعها ، وطوت الثوب البرتقالى والقت به فى أرضية الصوان الداكنة ، وتهيأت للنوم ، ولكنها لمحت ورقة النتيجة ثابتة مكانها ، فنظرت اليها طويلا فى جمود ، ثم نزعتها بعنف وكورتها بين أصابعها ، وفتحت النافذة وألقتها ، وانحنت ترقبها وهى تهوى فى بطء ٠٠

**

محمود الحسينى مرسى :

موهبتك القصصية تستحق التقدير لا شك ، فانت تقدم فى قصتك هذه مزاجا بين الرؤى والخيال والمخاوف الهاجسة فى النفس ٠ وقصتك هذه صورة مليئة بالأشباح ولعلك تنظر فيها الى رسالة الغفران ولكننى أعتقد أن الفكرة التى تريد أن تتصدى لها أكبر وأعمق من أن تحيط بها قصة قصيرة ٠ فالافكار فى قصتك لمحات تريد أن تتوغل فى العمق ، والقصة نفسها تقوم على فكرة الصورة الرمزية ٠ وحتى الصورة الرمزية لا بد أن تقنع القارىء وهكذا تحتاج الى التعميق فى فكرتك حتى يقتنع قراؤك ، الا ترى معى أن تظل بعيدا بعض الوقت عن الرمزية حتى تتقن غيرها اتقانا ترضى عنه كل الرضى ٠ انها ههنا مجرد اقتراح أرجو ألا تتقيد به اذا الحت عليك فكرة لا ترى لها اطارا يصلح الا الرمزية ٠ فالفكرة نفسها هى التى تحدد الشكل الفنى ٠

رجب سعد السيد :

اعجبتنى طريقة العرض عندك فهى تبشر بمستقبل لك منتظر ان شاء الله ٠ وقد أعجبت أيضا بطريقتك فى انهاء القصة فى غير اصرار ولا افتعال ٠ ولكن القصة نفسها ترددت بين الصورة القصصية والقصة ذات الحادثة ٠ وقد ابتدأت فى القصة وانتهيت منها دون أن تستقر على رأى معين . لو انك كنت قررت أن تتخذ طريقا معينا وسرت فيه لاستطعت أن تقدم الينا عملا أكثر اتقانا ٠ والقصة قصيرة بشكل غير مقبول . ولعلك لو كنت تعمقت هذه الصله الجديدة بين الحجار وام تفيدة لكان ذلك اجمل بالقصة .

عبد الستار محمد خليف :

يسعدنى ياسيدى أن القاك . خطابك مس مشاعرى ولكننى لا أعتذر اليك عما قلت ٠ فالمدرسون الالزاميون من أعلم الناس بقواعد اللغة ٠ فلا يعفيك كونك مدرسا الزاميا أن تعرف لغتك معرفه تامة . لا اخفى عليك . لقد تعلمت أنا اللغة العربية أول ما تعلمتها على مدرس الزامى ٠ وحين كنت فى السنة الثالثة الثانوية كنت أقرأ الشعر على هذا المدرس الالزامى وهو شاعر رقيق فقال لى لا بد أن تهتم باللغة فأنت كثير اللحن فكان هو السبب أن التفت الى لغتى ٠ فلا تظن أن وظيفتك تعفيك من أن تتقن اللغة العربية كل الاتقان .

محمد العقدة :

اشكرك غاية الشكر على خطابك واقتراحاتك جميعها بلا استثناء صالحة للبحث ان لم تكن جميعها

صالحة للتنفيذ . ورجو ان نجد الأشخاص الذين يستطيعون تنفيذ هذه الاقتراحات : ان الرسالة التى تتحدث عنها لم تصل الى . فان كنت قد احتفظت بصورة منها فانه يسعدنى ان تعيد ارسالها الينا .

حسن محمد نور :

لماذا يا أستاذ حسن كتبت حوارك بالعامية ثم اتجهت الى العربية فى أغلب حوار القصة . وحوارك العربى عنيف . فكلمة يا صاح مثلا لا تصلح للحوار فى أيامنا هذه. القصة فى ذاتها عباره عن أفكار لم تكلف نفسك عناء وضعها فى قصة بل هى أفكار، تراشق بها صديقان وانتهى أحدهما الى الجنون . ما هكذا تكتمل القصة ثم لماذا لم تأت لنا بنبأ عن حشد الاصدقاء الذين قدمتهم فى أول قصتك . ماذا فعلت بهم والقصة قصيرة . ان حذف الشخصيات لا يجوز فى القصة القصيرة وان جاز فى القصة الطويلة . ما دمت قد ذكرتهم فلا بد أنك كنت تريدهم أن يقوموا بأدوار معينة .

عنتر عبد السلام مخيمر :

يخيل الى أنك لو كنت رويت عن غير طريق الشيطان لكان أجمل . انها تمثل مرحله متأخرة من فن القصة حين كان الكتاب يجسمون الشياطين والملائكة . ولكنها فى لونها هذا لا بأس بها . اننى سأنشرها فى العدد القادم لأقدم للقارىء نموذجا من لون كان موجودا ثم عدل عنه كتاب القصة نهائيا . وانا ارحب دائما بالمناقشة فلا يقف بك شىء أن تناقشنى فى اى رأى أسوقه . واحب أن يستقر فى الذهن ... لا يقبل ... الجدل وكل ما أسوقه من آراء على هذه الصفحة ما هو الا وجهة نظر واحده فى الموضوع يصيبها الخطأ كما قد تصيب الصواب . ان الأعمال الأدبية ما هى الا انعكاسات مختلفة على نفوس القراء، وأنا قارىء منهم أتيح لى ان اقول رأيى فقد أعجب بشىء لا يعجب آخرين وقد افند شيئا كان حقيقا بالاعجاب . وليس على فى ذلك من بأس انما اذكر انعكاس العمل الفنى على نفسى . وانا حين أتكلم عن القواعد لا أفكر فيها الا بعد أن اجد العمل لم يعجبنى حينئذ اروح أبحث عن الأسباب التى جعلتنى لم اعجب بالعمل وغالبا ما أجدها فى البعد عن القواعد المعروفة . وثق أنه حين يعجبنى عمل ما لن أفكر فى القواعد وسأعلن اعجابى به . بعد فاذا اردت أن تناقشنى فمرحبا بنقاشك .

سعيد صبحى الصفانى :

اعجبت بقصتك غاية الأعجاب فقد استطعت فى براعة فنية أن تعرض وجهة نظر الظالم على انه مظلوم وكنت صادقا فى تصويرك دون افتعال اوتكلف ودون خطابة أيضا . وانما نفسية أبـ... يواجه الحياة بصدق ويواجه نفـ... والناس دون ملق ولا مداورة . ا... ان تقرأ قصتك فى العدد القادم ان شـ... الله . قصتك التى المحت عنهـ... « الصراصير » لم تصل الى . والواقـ... أنها معذورة أن تفقد طريقها فالخطابا... كثيرة الى درجة تجعلنى أحس بالعجـ... الكامل . فالحقيقة التى لا مهرب منهـ... اننى لن استطيع اجابة الجميع فالأمر... وأمرهم لله .